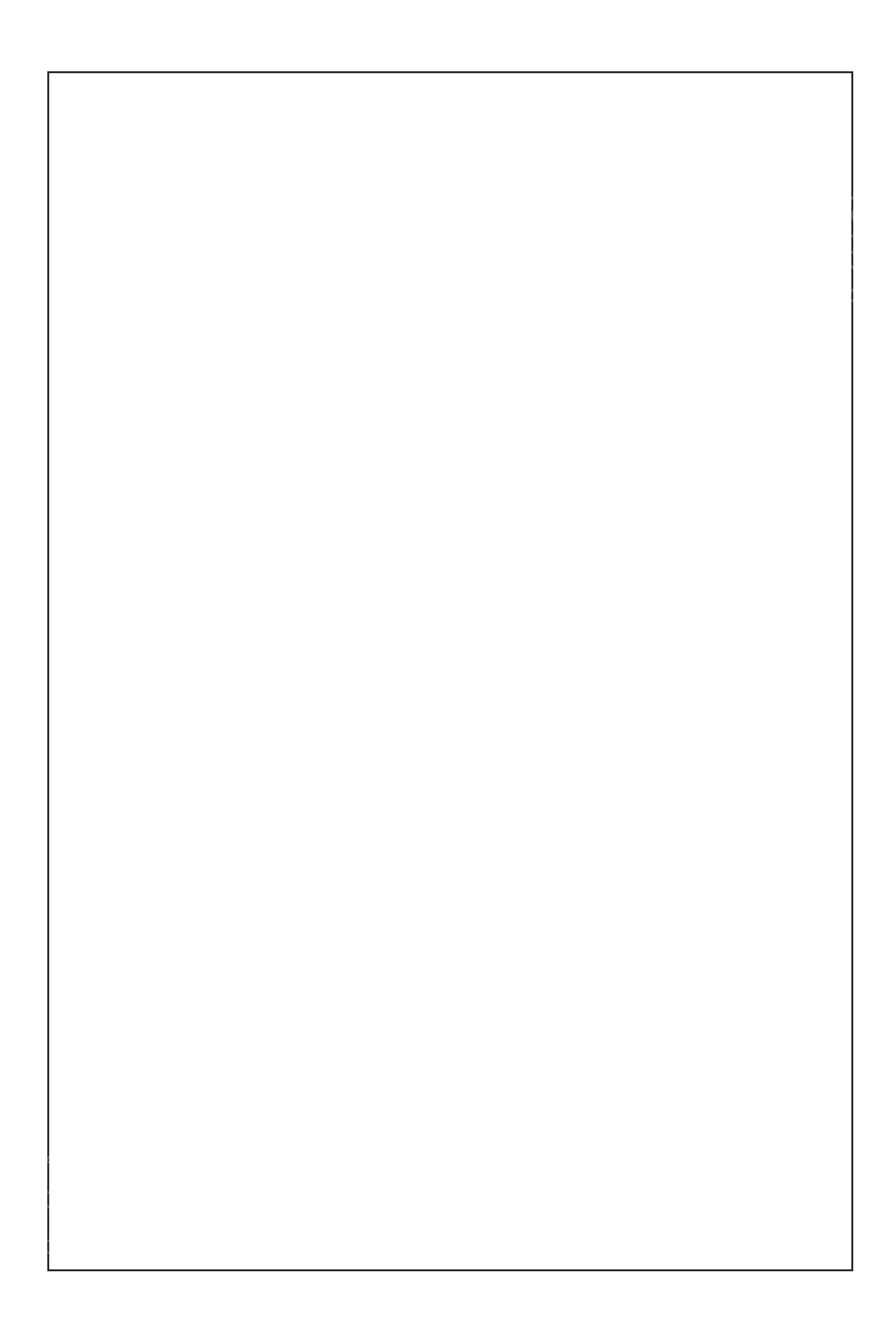
المجلس الأعلى للغة العربية

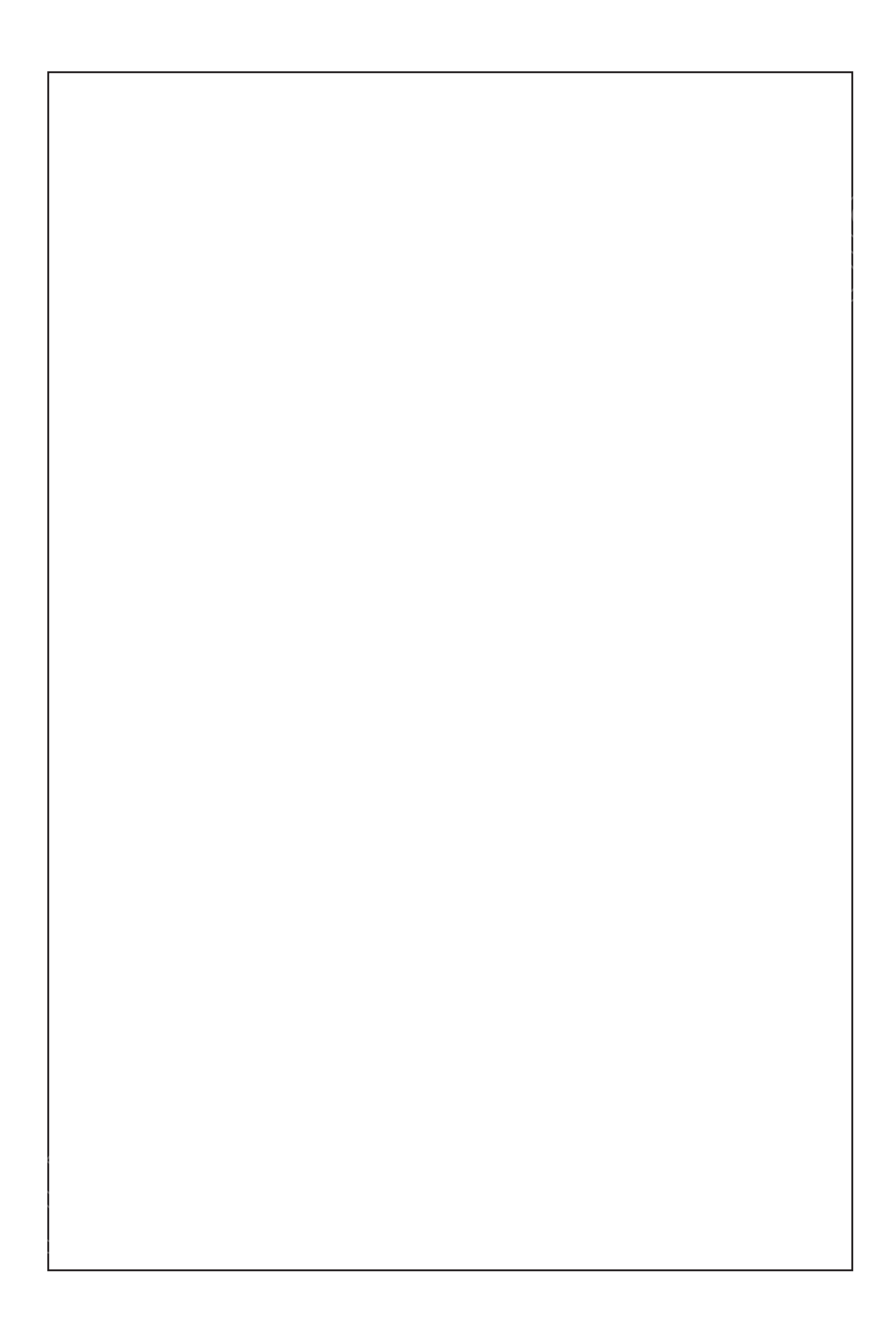
قطب الأئمة أطفيش:

العلم والعمل لصالح الجماعة والوطن



الجزائر -2011-





المجلس الأعلى للغة العربية

قطب الأئمة أطفيش:

العلم والعمل لصالح الجماعة والوطن



الجزائر -2011-

• كتاب: قطب الأئمة أطفيش:
العلم والعمل لصالح الجماعة والوطن
• إعداد:
• قياس الصفحة: 15.5/23
•عدد الصفحات:

الإيداع القانوني: 2011-2192
ردمــك: ISBN 978-9947-821-60-2

المجلس الأعلى للغة العربية
شارع فرونكلين روزفلت - الجزائر
ص.ب 575 الجزائر _ ديدوش مراد
الهاتف: 25/ 021.23.07.24
الفاكس: 021.23.07.07

فهرس الكتاب

الجلسة الافتتاحية

قطب الأئمة أطفيش:
العلم والعمل لصالح الجماعة والوطن

للدكتور محمد العربي ولد خليفة رئيس المجلس

نخصّص هذه السطور لأحد أعلام الجزائر قطب الأئمة اُمحمد بن يوسف أطفيش[1] تقديرا وعرفانا لرجل موسوعي وهب حياته كاملة للعلم والتعليم والتقرب من الله سبحانه وتعالى بالتقوى والاستقامة وخدمة الجماعة، والعمل بلا كلل ولا ملل على إحياء علوم الدين والدعوة المبكرة في الجزائر لإصلاح حال المسلمين ودعوتهم للنهوض بعد قرون من الجمود والغفلة والفتن.

أحبّ العلامة أطفيش العربيّة وأقبل عليها في صباه وأتقنها نظما ونثرا ونبغ في فنونها وعلومها، فقد أشار الكثير من كتّاب سيرته إلى أنّه أتمّ حفظ القرآن الكريم في الثامنة من عمره وتطوّع للتعليم في منزله الشخصي وهو في سن الخامسة عشرة بعد أن حوّله إلى مدرسة.

هناك الكثير من الدلائل التي تشير إلى موهبة الرجل وهو في ريعان شبابه فقد نظّم وهو في السادسة عشرة من العمر قصيدة من خمسة آلاف بيت لازالت مخطوطة، وأيا كان العدد، فإنّه يساوي عشرات الدواوين التي نشرت في السنوات الأخيرة ممّا يسمى الشعر الحرّ أو المنثور، وبعضها لا يتجاوز بضعة سطور في الورقة، وقد لا تزيد على كلمة واحدة وعلامة اُستفهام في السطر أو صوت من حروف مثل آه-يا-أواه

1- إسم العلامة أطفيش مركب من كلمتين: الأولى «أطّف» أي خذ في الامازيغية و «إيش» ويماثلها «إتش» في القبائلية وكلاهما بمعنى كُلْ أو استوعب.

إلخ، ولسنا ضدّ الإبتكار والتجديد غير أن بعض ما ينشر أقرب إلى الاستنساخ والتقليد.

وللقطب أطفيش مؤلفات أخرى كثيرة يقول البعض إنّها تتجاوز المائة ويصل تعدادها عند البعض الآخر إلى ثلاثمائة في علوم العربية وفي الفقه وأصوله والتفسير والتجويد والحديث والسيرة النبوية الشريفة والفلسفة والفلك والحساب، فضلا عن رسائله إلى العلماء من معاصريه للإجابة على بعض المسائل الفقهية في المذهب الإباضي وقضايا الساعة.

حصل الشيخ على هذه المعرفة الموسوعية من بيئته المحليّة في واحة ميزاب، ونهل من مكتباتها الزاخرة بعلوم عصره كما كانت عليه في العالم الإسلامي في أوائل القرن الرابع عشر هجري أي الثامن عشر وبداية التاسع عشر، وقد دار معظمها حول علوم القرآن الكريم والعربيّة والسنّة النبوية الشريفة، بل أسس خلال أسفاره القليلة مكتبة خاصّة مازالت شاهدة على عنايته بالعلم والتوثيق، فالعلم في رأيه هو السبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ولتحقيق تلك السعادة ينبغي إصلاح المجتمع وتجديد الدين.

وهذا هو المنهج الذي أستأنفته جمعية العلماء المسلمين، ودأبت عليه، والملاحظ أن الشيخ البشير الإبراهيمي قريب في نشأته وعصاميته من القطب أطفيش، فقد تربى كلّ منهما في بيئة في أقسى درجات الفقر، ونبغ في تحصيل المعرفة وتميّز بتحصيله الواسع في علوم الدين وبلاغة اللّغة العربية وخبايا بيانها داخل الوطن، واستحق كلاهما التقدير ومرتبة المرجع في مشرق ومغرب العالم العربي والإسلامي ونعرف

أن العلامة أطفيش توفي سنة 1914 أي قبل حوالي عقدين من تأسيس الإمام عبد الحميد بن باديس لجمعية العلماء سنة 1931.

حظي العلامة محمد بن يوسف باحترام واسع في واحة ميزاب وفي الجزائر والعالم العربي والإسلامي ما بين شرق إفريقيا وشواطئ بحر العرب في عمان، وألقى دروسا في المدينة المنورة أثناء رحلته الحجازية الأولى، وكان موضوع دروسه كتاب السنوسية في عقائد المالكية وهناك أعدّ كتابه إيضاح المنطق في بلاد المشرق، واُلتقى بعدد من علماء المالكية والشافعيّة والحنفيّة من العرب والأتراك والإيرانيين يذكرهم بأسمائهم وبعض مؤلفاتهم في كتابه الآنف الذكر.

إنّ العلامة الموسوعي أطفيش وهو من أئمة الفقه الأباضي في المغرب والمشرق العربي، ومن كبار المجتهدين والمتضلّع في أصول العقيدة من القرآن والسنّة قد ناهض التعصّب للرأي والمذهب ودعى لتقبل وجهة نظر المخالف، فقد كتب في كشف الكُرب «والحق يقبل من كل من جاء به وردّ على الأزارقة والصفرية وهو يورد في نصوصه أقوال المذاهب الإسلاميّة ويحرص على الأمانة العلميّة ويفضلها على ما يعتبره مفسدة أي إنكار رأي الآخر.

يجمع الذين كتبوا عن قطب الأئمة ودرسوا تراثه من تلاميذه ومريديه أنه كان رحمه الله متواضعا قريبا جدّا من عامّة الناس، متفرّغا تماما لطلب العلم والتعليم أينما حلّ واُرتحل، شديد الورع، فهو يرى أنّ من قواعد الإيمان في الإسلام العلم والعمل والنيّة والورع، وقد اُلتزم بذلك في سيرته وفي نشاطاته العلميّة والاجتماعيّة فهو روحاني ولكنّه غير متصوّف وليس من أهل الباطن، فهو ينشد القرب من الله سبحانه

وتعالى بالتهجّد والتقوى والاستقامة وفقيه مجتهد متضلّع في الأصول ومتمكّن من حلّ النوازل والمسائل التي تطرأ حسب حاجات الناس وتغير المجتمع، ونحيي في هذا اللّقاء جامعة الأمير التي خصّت القطب بمجموعة من الدراسات القيّمة بمناسبة تخرّج دفعتها -23- سنة 2010.

اُنتهج القطب طريق الدعوة والتربية لإصلاح المجتمع، فلا جدوى من العلم في رأيه إذا لم يقترن بالعمل والتوعية وتقويم الناشئة وإعداد أجيال المستقبل، وقد وجّه اُنتقادات لاذعة لأساليب التربية الشائعة في عصره ونصح الأولياء والمربين بتشجيع المواهب والقدوة الحسنة ونسج علاقة من الودّ والاحترام بين المعلّمين والتلاميذ، وهو ما اُلتزم به هو نفسه خلال عمره المديد الذي تجاوز التسعين عاما.

كان عمر العلامة أطفيش حوالي 11 سنة عندما بدأ العدوان الكولونيالي على الجزائر سنة 1832 الذي أحكم قبضته الإجرامية على شمال الوطن، بعد حولى نصف قرن من المقاومة المستميتة، وبدأ بعد ذلك حملته على جنوبه وتوجهت جحافله إلى وادي ميزاب سنة 1882 وقد تصدّى للمعتدين بالمقاومة المسلّحة واُرتأى أنّ الجهاد ضد العدوان يسبق كل واجب آخر، وكان رحمه الله يردد حتى وفاته إن الأسلام يعلو ولا يعلى عليه وقد طبق ذلك بنفسه عندما قدم إليه الجنرال الفرنسي الذي أحضره القايد ليزوره في بيته المتواضع فصعد إلى مكان عال ليكون الجنرال أسفل منه، فلا شيء في نظره يعلو على الإسلام ورموزه.

غير أنّه غيّر أسلوب المقاومة بسبب الطبيعة الصحراوية للمنطقة وعزلتها النسبيّة وصعوبة الإمداد بالسّلاح والذخيرة وحرب الكرّ والفرّ أو ما يعرف بحرب العصابات وحرب الفدائيين في المدن.

لذلك فضّل الشيخ سبيل التوعيّة والإعداد وإبقاء شعلة المقاومة الوطنيّة في العقول والقلوب، وقد اُعترض على الإفتاء بالهجرة خارج البلاد لأنه اُعتبر ذلك تمكينا للاٌحتلال ودعما غير مباشر لسطوته في بلاد الإسلام.

إنّ دعوة قطب الأئمة لتأجيل المقاومة المسلحة لا يعني إلغاءها، بل التحضير لها بالتوعية والتربية ومقاطعة العدو، وهذا هو الموقف السائد في كل أرجاء العالم الإسلامي في أواخر القرن 19 وبداية العشرين، ومنه الجزائر، فقد اُعتبر جمال الدين الأفغاني ومحمد عبدو والإمام اٌبن باديس وبعدهم مالك بن نبي أنّ الطريق إلى التحرير بكل معانيه يبدأ بمعالجة أسباب ضعف الأمة وتطاول الفرنجة عليها وهي التخلّف والتناحر والاستبداد وما طرأ على الإسلام وحضارته من تجميد للعقل والاجتهاد دفع به إلى ثلاجة التاريخ والنظر إلى مبادئه السامية وتراثه العظيم بعيون الموتى في تعبير الفيلسوف حيدر بامات.

كما أن إرجاء المقاومة المسلحة هو في الحقيقة الموقف الذي ساد بين أغلب شرائح النخبة في شمال الجزائر، بعدما تعرض له الشعب من دمار وقمع وتشريد بعد اُنتفاضة المقراني سنة 1871 والأوراس سنة 1915.

وقد أثمرت جهود أولئك القادة من أبناء القطب بعد حين، وبعضهم كان من الصفوة في جمعية العلماء أو في طليعة المناضلين في حزب الشعب، ثمّ الاٌنتصار ولاحت في الأفق القريب بوادر صحوة الوطنية الجزائرية في اُنتفاضة ماي 1945 التي ولدت من رحمها ثورة التحرير بعد أقل من عقد من مذابح الشمال القسنطيني الأليمة.

هذه قطرات من فيض العلامة اُمحمد بن يوسف أطفيش الذي تعتز لغتنا العربية الجامعة وثقافتنا الوطنية بمآثره وتراثه، وقد تحدثت في الاحتفاء بألفية العاطف سنة 1996 عن جانب قليل من تراث وادي ميزاب الحضاري والعلاقة بين البيئة والعمران وثقافة المجتمع، وهو كل متماسك ينبغي المحافظة عليه فأشكال التنوع في حواضر الجزائر وأريافها، وفي شمال البلاد وجنوبها تمثّل ثروة للجزائر الوطن الواحد للجميع من أبنائه الذين تجمعهم تجربة تاريخية تمتدّ إلى عشرات القرون أسفرت عن مخزون من القيم المشتركة في الذاكرة الجماعية والمتجدّدة عبر الأجيال.

سوف يساهم في إضاءة مسار العلامة أطفيش أمناء على تراثه من عائلته ومن ولايات غرداية وتلمسان ووهران والعاصمة وسيدي بلعباس وتيزي وزو والأغواط، آملين أن يكون قطب الأئمة قدوة لشبابنا في الإخلاص والاجتهاد والجمع بين العلم والعمل الصالح الذي يسمى في عصرنا المواطنة الفاعلة.

قطب الأئمة العالم الماهر ومكتبته المعلم الزاخر
الحفيد. محمد بن محمد بن امحمد اطفيش

قيم مكتبة القطب. بني يزقن

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:
فيا إخوة الإيمان وحراس العقيدة.. من علماء ودكاترة وأصحاب المعالي من أرباب الوظيف وأدباء ممتازون.

تحيتي الخالصة من الأعماق لمنظمي هذه التظاهرة الثقافية والعلمية، مع شكري لهم على الالتفاتة الطيبة والصادقة بتسمية الإمام القطب الشيخ أطفيش امحمد بن يوسف -رحمه الله- تاجا وعنوانا لها.

ولا غرو.. فقد وهبه الله تعالى منذ نعومة أظفاره نبوغا وتألقا، فاستظهر كتاب الله في التاسعة من عمره، وجلس مدرِّسا في الخامسة عشر، ووضَع أُولى لبنات تآليفه في السادسة عشر، ليواصل الدرب في معترك الحياة بكل حزم، محاربا للجهل ومجاهدا للاستعمار، بسلاح العلم وكلمة الحق، التي تحتفظ بها مراسلاته للسلطات الاستعمارية.

حقا، لقد كان معهد الشيخ أطفيش، الذي دام إلى آخر أيام حياته، مقصدا لطالبي العلم، من داخل الوطن وخارجه، فتخرَّج فيه العديد من الأعلام المتميّزين من تلامذته، الذين ارتووا من نبعه الصافي وتمثلوا إرادة شيخهم، وتجلّت فيهم شخصيته، التي شهد لها بعلو الهمّة و المكانة

علماء عصره، من مختلف بقاع العالم الإسلامي، إذ لقَّبوه بالقطب، وراسلوه بعديد قصائد المدح والإشادة، و قلّدته العديد من الجهات أوسمة الاستحقاق، حتى الأكاديمية الفرنسية، رغم أن المستعمر كان ساعيا إلى محاصرته وإخفات صوته.. إن هذا التكريم العالمي لهو خير دليل على فكر الشيخ العالمي، وجمعه بين العمل الميداني والإنتاج الفكري، وسعيه للنهوض بالأمة الإسلامية، وحرصه على وحدتها، وتخليصها من براثن الاستعمار، فلقد كان -على سبيل المثال- بفكره ومدَدِه، وراء تلميذه الشيخ سليمان الباروني الليبي، الثائر في وجه الاستعمار الإيطالي.

والمطَّلِع على ما تركه الشيخ من تآليف كثيرة في مختلف فنون العلم يلمَس غزارة فكره وموسوعيتَه العلمية، فلقد خلّف ما يربو على 135 عملا مختلفة الأحجام منها:
حوالي 70 عملا في العلوم الدينية، وحوالي 20 في العلوم اللغوية، و15 في العلوم الإنسانية والطبيعية، و لقد بقي منها -الآن- في خزانته الخاصة بمكتبته العامرة، حوالي 97 مخطوطا، والعديد من قصائده ومراسلاته.

هذا التراث الزاخر جدير بالدراسة والاهتمام، وهو حصيلة حبه للعلم وولعه بالقراءة ونشاط قلمه، ففي مكتبته –مكتبة القطب حاليا - حوالي 1200 عنوان مخطوط من تآليف غيره موزَّعة على مختلف مجالات العلوم الدينية واللغوية والتجريدية وغيرها.. اهتم بجمعها من داخل الوطن وخارجه، كما اهتم بمطبوع عصره، فتجد في مكتبته العشرات من المطبوعات العتيقة التي بها أثر قلمه. وقد أولى اهتماما بالغا لطباعة مؤلفاته، وتعاون من أجله مع الطابعين في الوطن وخارجه، سعيا منه لنشر ما حباه الله من علم، ويمكن أن نُسجّل حوالي 40 عملا له طُبع في حياته .

لقد ظلّت مكتبته بعد وفاته قبلة لطالبي العلم والباحثين، ولا تزال تُقدِّم خدماتها، وتفتح أبوابها للوافدين.

وبهذه المناسبة السعيدة، في هذا المحفل اللغوي الكريم، نود أن نورد هنا اشتهار الشيخ اطفيش بغرامه باللغة العربية، مثلما نقل عنه تلامذته ومعاصروه، وهو ما نلمسه في تراثه، حيث أنه نظم «مغني اللبيب» لابن هشام، في حوالي 2000 بيت وهو في السادسة عشر من عمره، وكثيرا ما تحتوي مؤلفاته غير اللغوية في طياتها مباحث ونكت لغوية، إضافة إلى اشتمال مؤلفاته اللغوية على كافة فنون اللغة، وقد اجتهدت المكتبة أن تضع بين أيديكم معرضا فيه نبذة عن حياة القطب، ونماذج من أعماله اللغوية، وبعضا من المخطوطات اللغوية العتيقة بمكتبته، من تأليف غيره.

الإخوة الكرام.. إن من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم، والقطب خير مثال لذلك.. مكرمة من الله ونعمة منه، وبلغة القافية سادتي الأعزاء، في منبر جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، بمدينة الجسور قسنطينة، لدفعتها سنة 2010/2009 من طلبتها وطالباتها الناجحين، -والملقبة أيضا باسم القطب- قلت في بعضها:

فبالعلماء ثقافة شعب لقهردخيل طغى وسلب
بشرذمة للعدو استطاعت بغفلتنا لبلوغ الأرب
من الاغتصاب بما لا يطاق وقتل فظيع وسطو ونهب
بعون الإله وبالاتحاد لسوف يرد لنا ما اغتصب
ولو بالإله اعتصمنا جميعا لما ابتز قدس من أيدي العرب

إخوة الإيمان من أهل الحق والاستقامة والإنصاف، فبذكر الصالحين تتنزل الرحمات، وللتأسي وأخذ العبرة بما قيل ويقال وسيبقى في عالم العلم والعلماء، أُذكِّر مشيدا بتكريم القاضي الأول في البلاد –مشكورا- لشخصية القطب، إذ وافق في لقاء حافل بجامعة غرداية، وأعطى الإشارة لتحمل هذه الأخيرة اسم الشيخ اطفيش المحتفى به اليوم، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله . وفي بعض ما قلته بلغة القافية أيضا:

فأرخى العنان لفكر سليم	**ليمنح حقا لمن قد سُلب**
فكانت هدى وبعون الإله	**لجامعة و لمن تنتسب**
وفي محفل قالها علنا	**بذكر اسمه في مجال الخطب**
بأن طفيش أهل لها	**و قطب العلوم لها يُنتخب**
فللعلم تعزى ثقافة شعب	**بالعلم تفرج كل الكرب**
فشكرا جزيلا بوتفليقة شكرا	**وزادك ربي بما قد وهب**

راجيا أن تجد هذه التذكرة لدى المسؤولين والمنصفين والمعنيين آذانا صاغية للامتثال والتنفيذ، تشريفا للعلم، وإجلالا لمكانة العلماء، وفي هذا إخوة الكرام يقول أحد الملهمين من شعرائنا:

مازال في قومنا من لا يلذ له	**إعطاء حق لأهل الفضل والشيم**
فحبذا لو رأينا اليوم لافتة	**تعلو بجامعة قطبية العلم**
وحبذا لو وجدنا فتية غيرا	**على الأصالة تواقين للقمم**
أبناء جامعة فضلى مثالية	**تكون قدوة دور العلم في الأمم**
وآنذاك يُسر القطب يعجبه	**رواد جامعة الأخلاق كالحرم**

شاكرا لكم ختاما على حسن الإصغاء وبالغ الاهتمام والحمد لله رب العالمين.

أطفيش محمد بن يوسف

1236هـ / 1820م - 1332هـ / 1914 م

سيرة ومسار

د. محمد عيسى وموسى جامعي

قَالَ الرَّئِيسُ: مِنْ حَقِّ الأَجْيَالِ عَلَيْنَا التَّبْلِيغُ عَنْ طَوْدٍ طَوَاهُ الزَّمَنُ، شَيْخٌ مِنْ أَعْلاَمِ الجَزَائِرِ، نَذْكُرُ خِصَالَهُ، نَنْفُضُ عَنْهُ غُبَارَ النِّسْيَانِ، نَسْتَلْهِمُ سِيرَتَهُ فِي المَاضِي بِمَا يُفِيدُ حَاضِرِنَا وَمُسْتَقْبَلِنَا .

أَقُولُ: مُلَبِّيًا وَلَكِنِّي مُخِلٌّ، لاَ أَفِي المَقَامَ حَقَّهُ، وَلاَ الشَّيْخَ مُسْتَحَقَّهُ، صَفْحَةٌ مُشْرِقَةٌ مِنْ مَاضِينَا القَرِيبِ، نَفْتَحُهَا تُضِيءُ مُسْتَقْبَلَ أَجْيَالِنَا

المَوْلِدُ : عِشْرُونَ وَثَمَانُمِائَةٍ وَأَلْفٍ

الوَالِدُ : يُوسُفْ

الأُمُّ : مَامَّة سَتِّي

الحِضْنُ : أُسْرَةُ عِلْمٍ وَعُلَمَاءٍ

يَعْرِفُهَا القَاصِي وَالدَّانِي

أَطَّفْ : « أمسك عليك» إيَّ : « أقبل ولا تخف» ، أَشْ: « كلوا من الطيبات»

تِلْكَ دَلاَلاَتُ المَاضِي، أَصْبَحَتْ اليَوْمَ اخْتِصَارًا : اَطْفَيَّشْ يُوسُفُ ،

لَمْ يَنْعَمْ ابْنُكَ بِحِضْنِكَ طَوِيلاً

تَرَكْتَهُ يَتِيمًا فِي الرَّابِعَةِ

لَكِنَّهْ وَجَدَ فِي أُمِّهِ الحُظْوَةَ ،

أَفَاضَتْ عَلَيْهِ حَنَانًا وَتَعْلِيمًا وَتَرْبِيَّةً ،

خَفَّفَتْ مِنْ مُصِيبَةِ الوَلَدِ فِي وَالِدِهِ ،
أَصْبَحَتْ الأُمُّ مَدْرَسَتَهُ ،
عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ ،
يَسَّرَ لَهُ حِفْظَهُ عَنْ ظَهْرِ الغَيْبِ وَمَا أَتَمَّ الثَّامِنَةَ ،
حِفْظٌ دَلَّ عَلَى نُبُوغٍ قَبْلَ الأَوَانِ ،
الكِتَابُ رَفِيقُ دَرْبِهِ وَمَصْدَرُ إِلْهَامِهِ ،
أَحَبَّ القِرَاءَةَ ،
قَدَّرَ الكِتَابَ حَقَّ قَدْرِهِ ، أَنْزَلَهُ المَقَامَ الأَسْمَى ،
مُسْتَخْلَصُ حَيَاتِهِ : قِرَاءَةٌ وَكِتَابَةٌ وَتَعْلِيمٌ
أَخَذَ الشَّيْخُ العِلمَ عَنْ أَخِيهِ الأَكْبَرِ إِبْرَاهِيمَ ،
أَصْبَحَ مُسَاعِدًا لَهُ فِي التَّدْرِيسِ حِينَ أَتَمَّ الخَامِسَةَ عَشْرَةَ ،
لَمَّا بَلَغَ العِشْرِينَ أَسَّسَ مَعْهَدًا ، مُعْلِنًا عَنْ مَشْرُوعٍ تَرْبَوِيٍّ تَصَدَّرَهُ لِلتَّدْرِيسِ،
تَأَمَّلْ مَعِي ظَاهِرَةَ النُّبوغ : حِفْظُ القُرْآنِ عَنْ ظَهْرِ الغَيْبِ فِي الثَّامِنَةِ ، مُدَرِّسٌ مُسَاعِدٌ فِي الخَامِسَةَ عَشَرَ ، مُؤَسِّسُ مَعْهَدٍ فِي العِشْرِينَ ، وَمَا غَادَرَ فِي حَيَاتِهِ قَرْيَتَهُ طَلَبًا لِلْعِلْمِ ،
أَتَدْرُونَ مَا السِّرُّ؟ القَرْيَةُ نَقِيَّةٌ ، فِي هَذَا التَّارِيخ ، لَمْ يُلَوِّثْهَا المُسْتَدْمِرُ ، وَلَمْ تُدَنِّسْ بَعْدُ قَدَمَاهُ القَرْيَةَ ، تُرْبَتُهَا خِصْبَةٌ ، لَمْ يُصِبْهَا العُقْمُ ، أَنْجَبَتْ فِي هَذِهِ البُقْعَةِ الطَّاهِرَةِ قُطْبَ الأَئِمَّةِ ،
لَمْ يَكُنْ العُقْمُ فِينَا ، إِنَّهُ مُسَلَّطٌ عَلَيْنَا ، وَافِدٌ إِلَيْنَا مِنْ وَرَاءِ البَحْرِ ، مِنْ هُنَاكَ مِنْ الشَّمَالِ مِنْ بَلَدِ الجِنِّ وَالجِنِّ فَقَطْ .
جَمَعَ الشَّيْخُ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ زَوْجَةٍ : وَاحِدَةٌ تُدْعَى نُوحْ عَائِشَةَ بِنْتُ عُمَرَ، عَالِمَةٌ فَقِيهَةٌ جَلَسَتْ لِلإِفْتَاءِ ، دَرَّسَتْ كِتَابَ النِّيلِ فِي الفِقْهِ

كَانَ أَبُوهَا عَالِمًا،
أَوْرَثَهَا مَكْتَبَةً ثَرِيَّةً تَرَكَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ ، قَدَّمَتْهَا لِزَوْجِهَا هَدِيَّةً ، اللهُ أَعْلَمُ إِنْ كَانَ الشَّيْخُ قَدْ تَزَوَّجَهَا لِمَكْتَبَتِهَا
المَكْتَبَةُ لِطُلاَّبٍ أَتَوْا مِنْ كُلِّ فَجٍّ
احْتَضَنَتْهُمْ مَجَالِسُهُ
صَنَّفَهُمْ طَبَقَاتٍ
المَنْهَجُ : أَدَبٌ وَدِينٌ وَأَخْلاَقٌ وَلُغَةٌ وَتَرْبِيَّةٌ وَبَلاَغَةٌ
إِنْ عَزَّ كِتَابٌ فِي حَلَقَاتِهِ ، أَلَّفَهُ لِطُلاَّبِهِ
سَجَّلَتْ الوَثَائِقُ تَلاَمِيذَهُ وَلَكِنَّهُمْ أَكْثَرُ عَدَدًا مِمَّا أَحْصَتْ
إِنَّهُ حَصَادُ سَبْعِينَ عَامًا. مِنْ جَوَاهِرِهِ : أَبُو إِسْحَاقَ، وَأَبُو اليَقْظَانَ ، وَالبَارُونِي ، وَالثَّمِينِي
قَالَ الشَّيْخُ : إِنْ سَأَلْتَ عَنْ نَشَاطِي فِي يَوْمِي فَإِلَيْكَ بَرْنَامَجِي:
بَيْنِي وَبَيْنَ عِمَارَةِ المَسْجِدِ عَهْدٌ أَنْ أُحَافِظَ عَلَى مَوَاقِيتِهِ ، لاَ تَفُوتُنِي فِي اليَوْمِ صَلاَةٌ ، أَسْتَجِيبُ كُلَّمَا نَادَى المُنَادِي: حَيَّ عَلَى الصَّلاَةِ
إِذَا تَبَيَّنَ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الفَجْرِ مُؤْذِنًا بِدَايَةَ يَوْمِي، أَتَصَدَّرُ بَعْدَ الصَّلاَةِ حَلْقَةً لِلْعَامَّةِ، يَسْتَمِعُونَ إِلَى مَا تَيَسَّرَ، وَعْظًا وَتَوْجِيهًا وَإِرْشَادًا ، إِلَى مَطْلَعِ الشَّمْسِ .
أَنْصَرِفُ فِي الصَّبَاحِ لِلتَّدْرِيسِ ، مُتَفَرِّغًا لِطُلاَّبِي فِي مَعْهَدِي
أَجْلِسُ بَعْدَ العَصْرِ إِلَى المَغْرِبِ فِي مَكْتَبِي لِشُؤُونِ النَّاسِ ،مُفْتِيًا وَمُسْتَمِعًا لِلْمَشَاغِلِ، لِحَلِّ المَشَاكِلِ، وَفَضِّ النِّزَاعَاتِ ، وَوَأْدِهَا فِي المَهْدِ
أَمَّا بَعْدَ المَغْرِبِ وَالعِشَاءِ فَإِنَّهُ لِي وَلِدُرُوسِي لِلْيَوْمِ التَّالِي
خَاتِمَةُ المَطَافِ بَعْدَ العِشَاءِ ،
يَسْتَهْوِينِي السَّهَرُ إِذَا سَكَنَ اللَّيْلُ، وَآوَى النَّاسُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ،

أَدَعُ النَّوْمَ ، أَقْضِي ثُلُثَيْ اللَّيْلِ أُسَامِرُ العُلُومَ ،
أَنْصَرِفُ لِلتَّأْلِيفِ وَالكِتَابَةِ،عَلَى ضَوْءِ مِصْبَاحٍ يُضِيءُ زَيْتُهُ ظُلُمَاتِ لَيْلِي،
أَتَبَيَّنُ بِنُورِهِ مَا فِي السُّطُورِ، لاَ يسَعُ الحَصْرُ مُحْتَوَى مُؤَلَّفَاتِي: الآدَابُ، الأَخْلاَقُ، البَلاَغَةُ، التَّارِيخُ ، التَّفْسِيرُ، التَّوْحِيدُ، الحَدِيثُ، الخَطُّ العَرَبِي، السِّيَر، السِّيرَةُ ، العَرُوضُ، عِلْمُ الكَلاَمِ ، الفِقْهُ ، الفَلْسَفَةُ ، الفَلَكُ ، الُّلغَةُ
يَنْتَابُنِي فِي الثُّلُثِ الأَخِيرِ مِنْ اللَّيْلِ، مَا يُصِيبُ السَّاهِرَ مِنْ نَصَبٍ ، أَنْصَرِفُ لِفِرَاشِي ، أَخْلُدُ لِنَوْمِي ، وَقَدْ أَتْمَمْتُ بَرْنَامَجِي ، ذَلِكَ دَأْبِي فِي سِتَّةِ أَيَّام
أَمَّا السَّابِعُ فَلِلْخُرُوجِ إِلَى الحَدِيقَةِ كُلَّ جُمَعَةٍ وَقَدْ طَوَيْتُ أَوْرَاقِي وَأَعْرَضْتُ عَنْهَا، أَسْتَبْدِلُهَا بِجَنَّتِي ،أَقْطِفُ ثِمَارَهَا ، فِيهَا مَا يَسُرُّ النَّاظِرَ: مِيَاهٌ وَأَزْهَارٌ وَأَعْنَابٌ وَنَخْلٌ وَزَرْعٌ وَرُمَّانٌ .
إِنْ سَأَلُوكَ عَنْ بَعْضِ صِفَاتِهِ ، فَقُلْ :
بَحْرُ العُلُوم
صَارِمٌ ، حُرٌّ ، مُتَرَبِّصٌ بِالمُسْتَدْمِرِ، يُضْمِرُ عَدَاوَةً شَدِيدَةً قَائِمَةً بِالمِرْصَادِ كُلَّمَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ إِهَانَةَ الإِسْلاَمِ وَالمُسْلِمِينَ
وَقَفَ شَامِخًا، تَصَدَّى بِحَزْمٍ وَكَتَبَ، رَافِضًا هَدْمَ الجَامِعِ الكَبِيرِ بِالعَاصِمَةِ
احْتَجَّ رَافِضًا المَظَالِمَ كَمَنْعِ النَّاسِ مِنْ السَّفَرِ أَشْهُرَ الحَجِّ لِيَشْهَدُوا مَنَاسِكَهُمْ وَيُؤَدُّوا فَرِيضَتَهُمْ
أَعْلَنَ الحَرْبَ عَلَى البِدَعِ ، يَجْنَحُ بِطَبْعِهِ لِلْحَقِّ ، يَقْذِفُ بِهِ البَاطِلَ ، يَزْهَقُهُ، لاَ يَسْكُتُ عَنْهُ .
يَحُثُّ عَلَى الاجْتِهَادِ وَالتَّفْكِيرِ وَإِعْمَالِ العَقْلِ

مُنْفَتِحٌ عَلَى العَالَم الإِسْلاَمِي

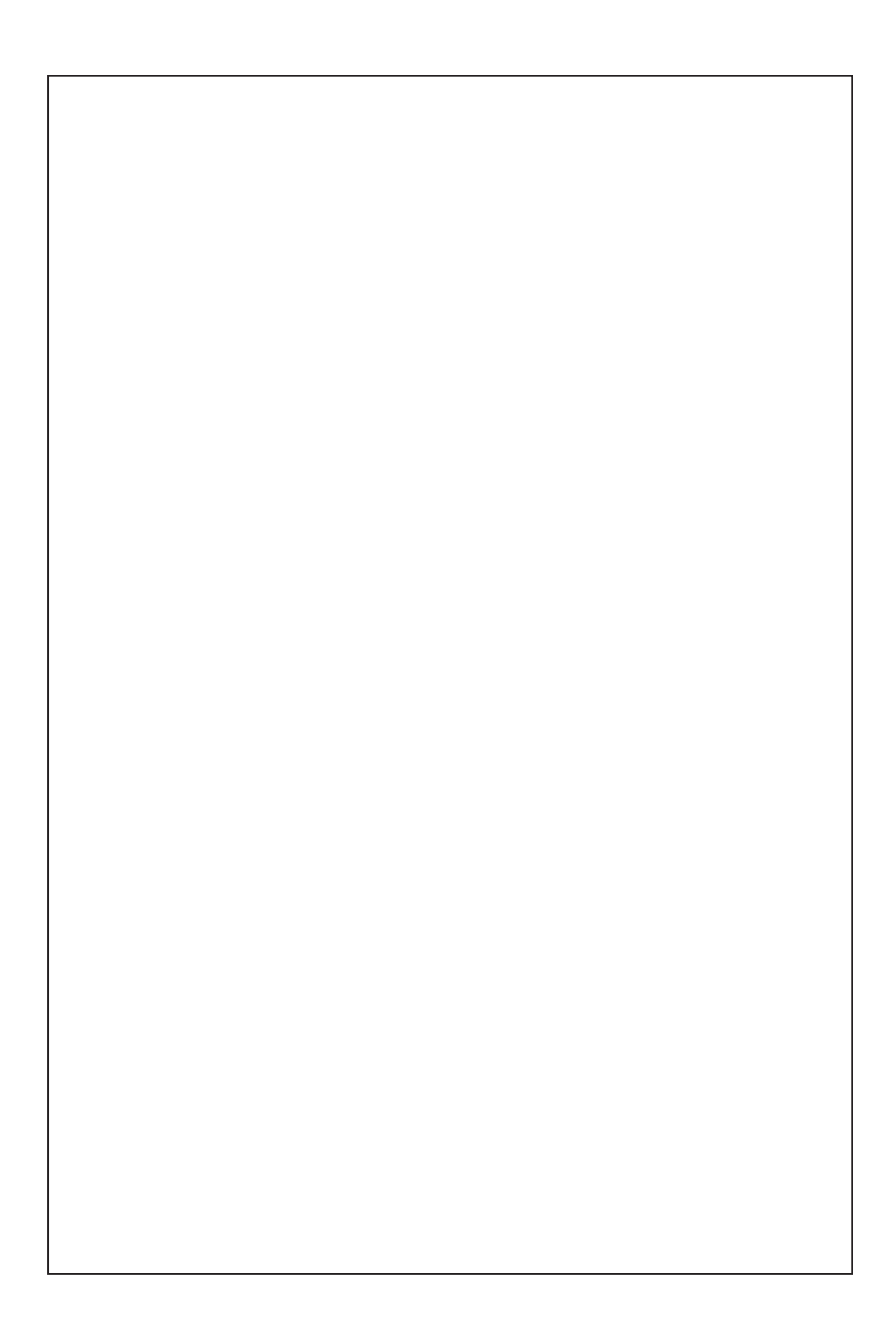
كُلَّمَا جَدَّ أَمْرٌ رَاسَلَ العُلَمَاءَ وَحَاوَرَهُمْ ،عَقَدَ المَوَدَّةَ مَعَهُمْ ، خَاطَبَ مُحمَّد عَبْدُه وَرَشِيد رِضَا ، فِي رَسَائِلَ عَدِيدَةٍ .

بَارَكَ النَّهْضَةَ الإِسْلاَمِيَّةَ وَآزَرَهَا

عَبَّرَ عَنْ آلامِهِ لِمَا أَصَابَ المُسْلِمِينَ مِنْ ضَعْفٍ وَوَهَنٍ وَاسْتِكَانَة

خِتَامًا :

إِنَّ هَذَا لَغَيْضٌ مِنْ فَيْضٍ فِي كَلِمَاتٍ مَعْدُودَاتٍ لاَ تَفِي الشَّيْخَ حَقَّهُ وَلاَ تُقَدِّرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ وَحَسْبِي أَجْرُ المُخِلِّ .... والسلام عليكم .



كلمة الأستاذ عمر داودي
ومضات في حياة القطب اطفيش

بســم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين.

سعادة الوزير، سيادة رئيس المجلس الأعلى للغة العربية والسادة الأعضاء.

أيها الدكاترة والأساتذة الأجلاء.

أيها الحضور الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

لا أسجل على هته السطور الوقائع التاريخية للشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى المشهور بقطب الأئمة، فالمعلومات التي تتحدث عن هذا مسجلة في الوثيقة الموزعة.

لا أسجلها لأن القصد بعد التعريف هو إبراز العظمة في جلاء ورسم الفكرة النيرة على لوحة بارزة رائعة.

* القطب أيها الإخوة كان من الطراز البشري الرفيع، أستاذ ومجتهد في فنون الشريعة الإسلامية، رمز للتحدي والجرأة والصمود، جرى وراء مجتمعه يبحث له عن أسباب الحياة الكريمة.

* في أيام هذا الرجل كان الوضع يتسم بالتقليد والركود، يحتاج إلى مطالعَ أكثر دهاء، فجاء الرجل في أوانه فجدّد الأسلوب وكسّر القيودَ وصحّح المفاهيم فمشى بأقرانه وأصحابه ممشوق القامة، مرفوع الهامة، لا يكترث بالنفوس اليائسة، والعزائم الخائرة.

* رجل كان مشواره في البداية صعب المرتقى، دربه محفوفا بالأشواك والحواجز، مرَّ على امتحانات عسيرة، تمكن من اجتيازها بكل جدارة واستحقاق فأصبح كل ذلك رصيدا من التجربة، وحافزا دفعه لشق طريقه في عزة وإباء.

* رجل كان منهجه واضحا في نبذ التعصب، والأخذ بأقوال المخالفين وتفتحه على المذاهب الإسلامية، موقف يستحق التبجيل والتعظيم، إذ كان لوحة إشهارية مجانية لثقافة الحوار.

* رجل على الرغم من انعزال مسقط رأسه في أقاصي الجنوب، بعيدا عن مراكز المدنية والعمران حينذاك، لم يمنعه هذا أن يلاحق مجريات الأحداث التي كانت تمر عليها الأوطان الإسلامية، كما كان يأسى متألما لما تتعرّض له من حروب دامية، وضروب الفتك والإبادة على يد المستعمر.

* رجل ضايقه هذا المستعمر، أغلق عليه منافذ الحركة والاتصال، فأشهر في وجهه القلم والقرطاس، إذ كان يؤمن أنّ خلاص الأمة لا يكون إلاّ بمحاربة الجهل، وبالتربية والتعليم.

الجهل لا تحيا عليه جماعة   كيف الحياة على يد عزريلا

والعلم إن لم تكتنفه شمائل   تعليه كان مطية الإخفاق

* تخرّج على يده علماء أصبحوا بعده نموذجا من الطهارة والدراية، كانوا السّبب في تحريك النفوس، ونشر الوعي الاجتماعي والثقافي والسياسي عبر مختلف المناطق، وترك تراثا من التأليف أصبح بعده محل اهتمام الدارسين والباحثين.

* هته ومضات في حياة القطب لعل حضرات المشايخ هنا سوف يتعرضون لها بالتفصيل والتوضيح.

* أيها الإخوة، ما أقوله أخيرا. إنّ رحيل العظماء واختفائهم أمر محتوم ولكن رحيل العظمة وانطفاء الفكرة النيرة أمر مؤلم و خطب جلل واليوم أيها السادة ونحن نعيش الذكرى.
* هل بحثنا عن البذرة التي غرسها هؤلاء العظماء في صدورهم، حتى أثمرت لهم هته الأصالة وهذا الصبر والتحدّي.
* هل تحولنا نحن إلى أفنان لتلك الشجرة التي تفيأ ظلالها المتعبون، وقطف ثمارها الجائعون المتعطّشون.
* وهل في الذكرى أمل يزرع في شفاهنا طيّب الكلم، ويشعّ من عيون علماء الإسلام نظرات الودّ والحب والوفاء لمن اختلفوا معهم في الرأي والانتماء والمذهب، وقبول الرأي الآخر.

فإلى أن يتحقّق هذا الرجاء نقول لمجلسنا الموقّر: إذ أتاح لنا فرصة اللقاء لاستنشاق هذا العطر الزّكي، لاستنشاق النسائم الشذية لعظيم من عظماء الجزائر.
* هي نسمات عند هبوبها، تنعش الفكر، وتفجر الأمل في النفوس.
* هي نسمات من نور توطد الثقة بين الأجداد والأحفاد.

فعلى رجالاتنا أن يكونوا عظماء، وعلينا نحن أن نكون أوفياء للعظماء.

(رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا) صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة الأستاذ عمار طالبي

كلمة الأستاذ الدكتور عمار طالبي في محفل الشيخ أطفيش

السيدات الفضليات السادة الأفاضل

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

وبعد

يسعدني في هذه المناسبة أن أتكلم عن واحد من علماء الجزائر الذين تركوا بصماتهم في المجتمع من حيث قدرتهم على التميز في مجالات العلم والمعرفة، ويتعلق الأمر بالشيخ العلامة الصدر إمام الأئمة، القطب محمد بن إبراهيم أطفيش، وكما تعلمون فإن كلمة أطفيش تعني خذ الكرم، ومعنى هذا أننا أمام شخصية يدل اسمها على منح الكرم في مجالات العلوم بصفة عامة وعلوم الدين على وجه الخصوص.

فقد تميز هذا القطب بسعة العلم والتحلي بالأخلاق الإسلامية، والسلوك القويم، ولعل من مميزاته أنه :

1 - كان مفسرا للقرآن الكريم ، ولكي يكون كذلك ينبغي أن يكون مطلعا على التفاسير التي سبقته، وأن يكون متضلعا في اللغة العربية وعلومها وأسرارها، وفي أسلوب القرآن، من تفاسيره هيمان الزاد إلى دار المعاد، داعي الأمل ليوم العمل، وتيسير التفسير.

2 - وكان فقيها بمعنى الكلمة ومعنى ذلك أنه كان مطلعا على مختلف المذاهب الفقهية ، دارسا لها وناقدا، وكذلك وجدناه متفتحا عليها غير متعصب لمذهبه، فعندما يتناول قضية فقهية لا يتعصب لموقفه أو مذهبه، بل يورد مختلف آراء المذاهب في ذلك من مالكية وشافعية وحنبلية، فهو لم يكن منغلقا على مذهبه ولا متعصبا لآرائه.

3 - كان متحكما في اللغة العربية وآدابها، فقد خلف لنا قصائد شعرية رائعة، وألف في النحو والصرف والعروض وله كتاب في هذا أسماه: إيضاح الدليل في علم الخليل، والكافي في التصريف، وحاشية على الأجرومية، والشواهد للقزويني، وشرح لامية الأفعال لابن مالك، وله في البلاغة ربيع البديع في علم البديع، وبيان البيان في علم البيان وشرح السلم المرونق في شرح المنطق لعبد الرحمن الأخضري، بالإضافة إلى ذلك كتب في الفلك والطب والحساب، وهذه الطريقة كان معمولا بها عند العلماء من جيله وممن سبقوه بحيث كانوا يؤلفون في مختلف العلوم لكون ثقافتهم كان يغلب عليها الطابع الموسوعي.

فالقطب أطفيش كان عصاميا فقد تلقى تعليمه وعلومه على أيدي مشايخ عصره في الجنوب الجزائري، وعلى الرغم من الظروف التي أصابت الجزائر في عصره إلا أنه استطاع أن يفرض وجوده ويساهم بعلمه في بناء حضارة الجزائروثقافتها، التي هي جزء من الحضارة البشرية أو الإنسانية.

ولعل من آثاره : أبو إسحاق إبراهيم أطفيش الذي تأثر بعلوم القطب وبثقافته وبسلوكه، فإذا كان القطب استوطن الجنوب الجزائري فإن الشيخ إبراهيم ترحل في الأوطان وانتقل إلى تونس حيث تتلمذ على مشايخ الزيتونة وفي مقدمتهم الشيخ بن عاشور، وهناك عرف معنى النضال والحركة الوطنية من خلال نجم شمال إفريقيا الذي كان يهدف إلى تحرير تونس والجزائر والمغرب من براثن الاستعمار، ثم ارتحل إلى مصر وهناك تبحر في مختلف العلوم وأنشأ مجلة المنهاج وأهدى نسخة من أول عدد منها إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تناول محتواها في الشهاب، وكان هذا العلامة قد انتدب لتحقيق المخطوطات

في دار الكتب المصرية، وقد حقق كتابا مهما وهو كتاب القرطبي الجامع لأحكام القرآن، ثم المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذي ألفه محمد فؤاد عبد الباقي، وهو كتاب يسر على الباحث عن موضع آية القرآنية من خلال اللفظة.

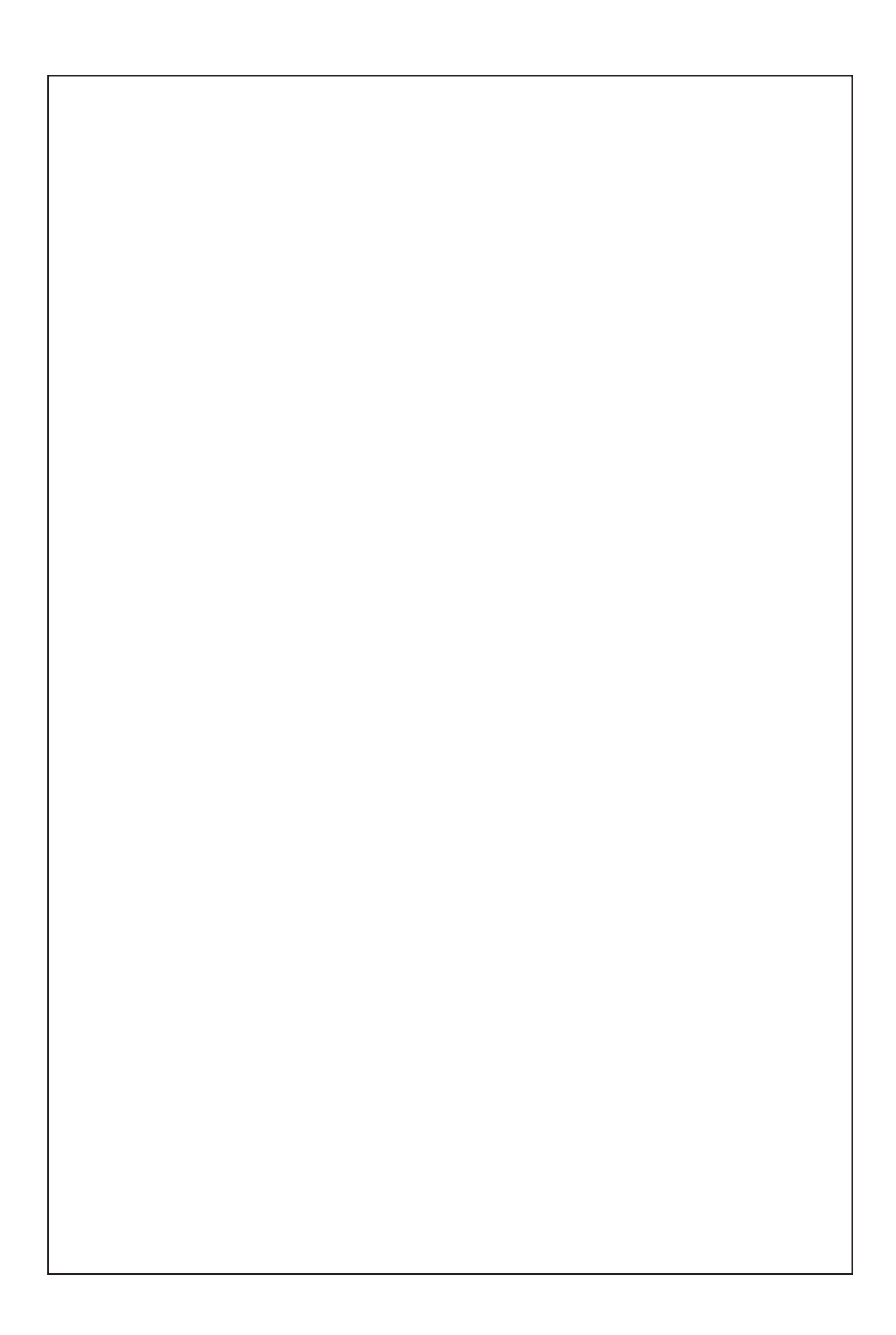
عندما نستحضر سير وأعمال القطب أطفيش إنما نهدف إلى تذكير الخلف بما تركه السلف من سلوك قويم لكونهم كانوا متمسكين بالكتاب والسنة ومن يتبعهما لا يضل ولا يشقى، والدعوة إلى اتباع منهج الشيخ أطفيش والشيخ بيوض والشيخ عبد الحميد بن باديس، لأنهم كانوا قمة في التسامح ونبذ الفرقة والتعصب، وأما باقي الاجتهادات فكانوا ينظرون إليها على أنها غنى وليست تفرقة، فينبغي للاجتهادات أن تكون مواكبة للعصر أو الأزمنة وليست للتفرقة أو بث الشقاق والنزاع بين المسلمين مهما كانت مذاهبهم.

لقد بلغ الشيخ أطفيش القمة بجده واجتهاده، وحرصه على الوحدة الوطنية، فقد كانت له مواقف مشرفة في الجنوب الجزائري ضد المحتل، وكان مربيا عالما خلوقا ولذلك احترمه الناس وقدسوه، خاصة وأنه ترك لنا حوالي 300 كتاب بمختلف الأحجام كلها في العلوم الدينية واللغوية والأدبية وباقي العلوم، التي زادته قيمة ليس في عصره فقط، بل وعلى مر الأزمنة وعليه أدعو شبابنا إلى الإطلاع على آثار هذا القطب التي ما يزال الكثير مما دونه صالحا لزماننا لما تحمله من نظرات ثاقبة لقضايا الأمة في دينها ودنياها، فقد كان للطقب تأثير كبير في تقريب المذاهب الفقهية، بالإضافة إلى تأثيره الاجتماعي في سكان منطقة الجنوب، وهو منهج التعامل الذي ينبغي أن يسود في المجتمع الجزائري حفاظا على وحدة الأمة في دينها ولغتها وترابها.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

محاضرات وبحوث حول

أعمال قطب الأئمة محمد بن يوسف أطفيش



منهج التفسير عند القطب أطفيش
بقلم الأستاذ الدكتور التواتي بن التواتي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، الحمد لله الذي أنزل الأحكام لإمضاء علمِه القديم, وأجزل الإنعام لشاكر فضله العميم, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له البر الرحيم, وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث بالدين القويم, المنعوت بالخلق العظيم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أفضل الصلاة والتسليم **وَبَعْدُ :**

أيها العلماء الأجلاء والأستاذة الأفاضل، أيها الحضور الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: اسمحوا لي أن أقدم لكم عناصر المداخلة حتى أُمَكِّنَكم من متابعتِها، فأقول-سائلا الله تعالى التوفيق-: لمّا كان هذا اللقاء خاصة بذكر مآثر الشيخ الإمام القطب محمد بن يوسف اطفيش، فكان موضوع مداخلتي **«الإمام أطفيش ومنهجه الاستدلالي»** مع التركيز على الجانب اللغوي وضعت لمدخلتي خطة قدر لها أن تكون وفق النقاط التالية:

1- التعريف بالشيخ الإمام.
2- البيئة التي ربي فيه وأول مدرسة تعلّم فيها، ونشأته.
3- آثاره وهي عديدة.
4- مسائل لغوية.
5- رأيه في كيفية تلاوة قرآن الكريم:
6- منهج الاستدلال عند الشيخ اطفيَّش:

أ- اعتماده المنهج النقلي :

ب- التأويل وعدم الاكتفاء بالظاهر أي الاستدلال بالعقل والتأويل.

ج- التحليل البلاغي والنحوي:

- فتوى فقهية: طعام أهل الكتب - شروط تولي القضاء:

- مواقفه النبيلة الخالدة.

- دعوته حفظ حقوق المسلم.

والحديث عن سيرة حياة الشيخ العلامة القطب محمد بن إبراهيم اطفيش –قدس الله سره-يؤول بنا إلى ذكر المؤلفات التي تناولته بالدرس، وأسهبت في سرد أخباره وسلوكاته ومواقفه، مثل:

* «معجم أعلام الجزائر» لعادل نويهض.

* و«نهضة الجزائر الحديثة» لمحمد علي دبوز.

* و«معجم المؤلفين» لرضا كحالة.

* و«قطب الأئمة العلامة محمد بن يوسف أطفيَّش» لبكير بن سعيد أعوشت.

* و«الشيخ محمد بن يوسف اطفيَّش ومذهبه في تفسير القرآن» ليحيى صالح بوتردين.

* و«آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيَّش العقدية» لمصطفى بن الناصر وينتن، وغيرها من الكتب التي تفيد القارئ وتجعله يحيط بجوانب كثيرة من حياة هذا العلامة الفذ، الذي كان يعي بشاعة الاستعمار، وكان يجدّ بكلّ ما أوتي من قوّة وبأس للمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية التي حاول الاستعمار الفرنسي طمسها.

1- الإمام محمد بن يوسف اطفيش (1236–1332 الموافق1914م):

معنى لفظ «أطفيش» قيل: إن أحد أسلافه لقبه به مناداته صديقا له يدعوه إلى الطعام، فلفظ «اطفيش» لفظ أمزيغي مركب تركيبا مزجيا من ثلاث كلمات:

الأولى: «أطف»بفتح الهمزة وتشديد الطاء المفتوحة وسكون الفاء، ومعناها في بعض لغات الأمازيغ «أمسك»

الثانية: «أيَّا» بفتح الهمزة وشديد الياء ومعناها: «أقبل، تعال».

الثالثة: «أَشْ» ومعناها «كل». ومجموع الجملة: «أطف، أيا، أش» ومعناها: «أمسك، تعال، كل» .

ولد في مدينة بني يزجن بوادي ميزاب أخذ العلم عن أخيه إبراهيم أطفيش وظهر نبوغه في العلم مبكراً - واشتهر بقطب الأئمة لغزارة علمه ومؤلفاته، واشتهر بالإصلاح والتجديد، وكان إماماً في علوم شتى أي: إمام عصره في العلم، تفرغ لتدريس أخر عمره وأخذ عنه: أبو إسحاق اطفيش، وإبراهيم أبو اليقظان. ومؤلفاته تربو عن ثلاثمائة مؤلف في شتى العلوم.

البيئة التي نشأ فيها: وأحب هنا أن أقف عند امرأة عظيمة لها دور ومشاركة في العلم بل لها فضل على المذهب المالكي والإباضي معا. وهذه المرأة هي (ماما ستّي) هذه الأم الكريمة من الأمهات اللاتي بذلن مجهوداً مضنياً في سبيل العلم الصحيح وتأصيل المعرفة الإسلامية العلمية، فمن هذه الأمة القدوة؟ إنها والدة قطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، واسمها ماما ستّي وهي ابنة الحاج سعيد بن عدون، ورثت من أسرتها الذكاء والعلم والفضل، فكان جدها وعمها وأخوها من العلماء الأفذاذ الذين نبغوا في عصرهم، اتصفت ماما ستي بالورع

والتمسك بالدين، ونشأت محبة للعلم والعلماء، تعرف فضل العلماء ومكانتهم وقدرهم، وأن العلم أنفس شيء في الوجود، تزوجت من السيد الصالح الحاج يوسف، وكان ذا أثر بليغ فيها، فقد رسخ فيها ما ورثته من أسرتها من حب العلم والدين والحماس للنهضة الحديثة وقوّاه، ولقد رزق الله هذا الزوج نعمة الذهاب إلى حج بيت الله الحرام، وبعد طوافه نام فرأى رسول الله(صلى اله عليه وسلم) في منامه يدنو منه باسماً متهللاً، ويكتب شيئاً في ظهره فاستفاق الحاج يوسف، وقلبه يغمره الانشراح، فلما رجع إلى وطنه استقبلته زوجته ماما ستي في حبها وحنانها وأشواقها فحدثها بالرؤيا، فاستبشرت، ثم حملت بعد مدة قصيرة بالولد السعيد، وبعد ولادته كان كما تمنيانه غلاماً جميلاً قوي البنية تبدو على نظراته وسيماء وجهه آيات الذكاء والنبوغ وعلامات الصلاح والنجاح، وأسمياه محمداً تيمناً وتبركاً بالرسول(صلى اله عليه وسلم)، وتمنيا من الله أن يكون ولدهما في مصاف العلماء.

وكان لا يرى الطفل محمد أباه بعد رجوعه من العمل أو المسجد إلا بين كتبه يقرؤها، فنشأ الطفل الصغير محباً للكتب تواقاً للمعرفة، وما يكاد يبلغ محمد الخامسة من عمره حتى يرى والده محمولاً على الأعناق إلى المقبرة، فارتاع وسفح الدمع الغزير، ولكن أمه ماما ستي أخذت تحنو عليه وتبالغ في الحنو وتكفكف دمعه، وتعوضه برعايتها وحسن تربيتها وتوجيهها ما فقده من حنان أبيه ورعايته.

وكانت الأم ترقب تصرفات ولدها، فترى حبه للعلم منذ نعومة أظافره لدرجة أنه لا يكاد يجد ورقة مكتوبة في الشارع أو في الدار، إلا ويأخذها ويراها أعز ممتلكاته، وكان في ألعابه يقلد أصوات القراءة

متلذذاً بها، فأيقنت الأم نجاحه لا يكون إلا في العلم وأن الله قد حقق آمالها وآمال أبيه فوهبها هذا الولد الذكي، وأورثه الشغف بالعلم والقراءة منذ صباه، وآلت أن تصارع الدهر والحاجة وتترك ابنها يتعلم حتى ينبغ.

كانت ماما ستي حصيفة العقل، قوية الشخصية، عالمة نشيطة، تثبت في وجه الحياة المكشرة العابسة، فقد كان زوجها المتوفى مع حبه للعلم وأهله، تاجراً إلا أنه لم يتفرغ للتجارة وبالتالي لم يحقق ثراءً يذكر، فعندما توفي لم يترك لابنه وزوجته سوى دار يسكنانها، وثلاث نخلات، ومال يسير سرعان نفد، ولكنها بحسن تدبيرها اعتمدت على منسجها، وبراعتها في النسج، فعالت نفسها وابنها ولولاها لاتجه ابنها اتجاها ماديا يودي بنبوغه كما أودى الفقر والجهل بنبوغ كثير من اليتامى وأبناء الأمهات الجاهلات، وقد عهدت بولدها إلى أحد المؤدبين فحفظ القرآن، وختمه وأتقن حفظه وهو ابن ثمان سنوات، وقتها انتشت الوالدة باستظهار ولدها للقرآن الكريم، وكان ذلك اليوم أعظم عرس لها في الحياة، وقد أولمت له، وامتلأت دارها بالمهنئات، وأسرع إليها أقاربها يباركون للطفل ويهنئونها، وأسرع الطفل بعد ذلك إلى دور العلم يزاحم بالركب زملاءه في حقل العلم، وأظهر ميلاً قوياً لحضور مجالس العلماء حتى إنه حين وصل العشرين من عمره كان يعد من أكابر العلماء، فقام بدور رائد في إحداث نهضة علمية في بلده وتخرج على يديه كثير من طلبة العلم، كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر وتصدى للبدع في عصره، ثم لقب بقطب الأئمة عن جدارة، فحقق به وصف الشيخ الخليلي حين يقول: **(كان رحمه الله أمة في فرد وفرداً في أمة فقد جمع بين العلم والعمل)**، فهنيئاً لماما ستي التي كانت هي السبب

بعد توفيق الله عز وجل في اتجاه القطب إلى العلم، فقد دلت ابنها على طريق الفوز والنجاة ورتبة الشرف في الدارين: الدنيا والآخرة، ولها من الأجر-إن شاء الله-بعدد ما قدم الشيخ من حسنات وأعمال صالحة.[2]

آثار الشيخ: من تصانيفه التي ربت عن 300 كتاب منها:

-تيسير التفسير وهنا أحدثكم عما قال لي لما فتح لي قلبه كتابا:

أما بعد،

فإنّه لمّا تقاصرت الهمم عن أن هيْم بـ «هميان الزاد إلى دار المعاد»، الذي ألّفته في صغر السن، وتكاسلوا عن تفسيري «داعي العمل ليوم الأمل» أنشطت همّتي على تفسير يغتبط ولا يملّ. وهو هذا التفسير الموسوم يسير التفسير، وهذا الأخير من المصادر التي اعتمدتها في تفسيري الموسوم بـ «الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين».

أما التصنيف الذي صاحبت فيه الشيخ القطب-قدس الله سره- زمانا غير يسير فهو كتابه «شرح النيل وشفاء العليل» هذا المصنف، الذي كان الشيخ فاتحا قلبه لي كتابا كلما عدت إليه، فدلّ على أنّ الشيخ، عالم فقه وأصول وعالم تفسير ولا يتأتى له ذلك إلاّ إذا كان بحرا لا تكدره الدلاء في علوم اللغة.

فقد قرأت هذا الكتاب أكثر من عشرين مرّة، أي: الكتاب في جملته، أما عن النصوص فقد أقرأها مرات كثيرة متأملا متدبرا مقارنا، ولعلكم تتساءلون لما كلّ هذه العناية، فقد وجدت الشيخ-رحمه الله تعالى- بلغ درجة الاجتهاد، فهو بحر زاخر في العلوم فهو عالم فقه، عالم نحو ولغة، وعالم تفسير، عالم أصول.

-2 السيرة الزكية للمرأة الإباضية لبدرية الشخصية. 1/81

ومن مصنفاته اللغوية:

* نظم المغني وهو عبارة عن أرجوزة في نحو خمسة آلاف بيت: أذكر هنا أنّ الشيخ قام بنظم المغني اللبيب في قصيدة رائعة، حسب ما قيل لي إذ لم يسعفني الحظ الإطلاع عليها، ويستهلها-رحمه الله تعالى-:

مغني اللبيـــب جنة أبـواهـــا ثَمانيـــة

ألا تراهـــا وهي لا يسمع فيـــها لاغية

* تلخيص المعاني من ربقة جهل المثاني في البلاغة.
* بيان البيان في علم البيان.
* ربيع البديع في علم البديع.
* إيضاح الدليل إلى علم الخليل في علم العروض.

ولازلت ألحّ عند أصدقائي وإخواني من العلماء الإباضية بموافاتي بهذه المخطوطات قصد قراءتها ما دمت أعدّ من فقهاء المذهبين الأخوين: المالكي والإباضي، وكتابي في الفقه المقارن «دراسة تقابلية بين المذهب المالكي والإباضي» خير دليل على ذلك إذ أصبح مرجعا لدى لجنة الفتوى في الفقه الإباضي، وهذا ما يدلّ على سعة الصدر والتسامح لدى أهل الفقه؛ لأنّ كلاّ منا من مشكاة النبوة يقتبس ويلتمس.

ومما يزيدنا يقينا بتضلع الشيخ القطب-قدس الله سره-في علم النحو كيفية تحليله في تفسيره للمسائل النحوية، ولعلّ ما نورده هاهنا يعطينا صورة عن مكانته في علم النحو: من خلال تفسيريه تيسير التفسير و«هميان الزاد إلى دار المعاد»، وتيسير التفسير.

1- وفي هميان الزاد:

- قوله تعالى: (عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) وجه الاستدلال بهذه الآية أن

الأسماء كلها إما أن يراد بها نفس الأسماء أو صفات المسميات ومنافعها، وعلى كلا التقديرين المسميات موجودة في ذلك الوقت، للإشارة إليها في قوله : {هؤلاء}.

والمراد بأسماء الألفاظ الدالة على مسميات سواء كانت أسماء نحوية، وهي ما قابل الأفعال والحروف، أو كانت أفعالا، أو كانت حروفا، وإطلاق الاسم على ذلك كله، وعلى كل ما يدل على الشيء ويدفعه إلى الذهن، ولو بلا تلفظ. وهو ما ذهب إليه القرطجني في كتابه.

واشتهر لفظ الاسم عرفاً في كل لفظ دل على مسمى، في مقابل الحرف والفعل وقل في الحرف والفعل، ثم خص في النحو بمقابل الفعل والحرف.

فإن الله-تعالى- علم آدم الأسماء ومعانيها، والأفعال ومعانيها، والحروف ومعانيها، ووجه تعميم ذلك كله بلفظ الاسم أن اللفظ يرفع المعنى إلى الذهن، ويكون عليه علامة فقام علامة على معناه، وبه يرتفع معناه إلى الذهن.

وكذا (إن وما) أشبههما من الأفعال والحروف والمراد في الآية: المعنى الذي ذكرت أنه أصل اللغة، أو المعنى الثانى العرفي، وهو يستلزم الأول؛ لأن العلم بالألفاظ من حيث الدلالة متوقف على العلم بالمعاني، وقيل علمه الألفاظ فقط-وهو ضعيف-لخلوه من عِظَم الفائدة. واستدل مكي بن أبي طالب القيسي بالآية على الاسم هو المسمى، ولا دليل في ذلك، في كون الاسم هو المسمى، بل الحق أن الاسم فيها هو اللفظ ولا ننكر إطلاق الاسم على اللفظ في سائر الكلام.

2- في تيسير التفسير:

قوله تعالى: (عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ألقاها في قلبه مرة، لا بتعليم ملك كما قيل {كُلَّهَا} من جميع اللغات، وهى الحروف، والأفعال، والأسماء، وواضع اللغة الله؛ فالمراد بالأسماء الألفاظ الدوال، على المعانى ، فشملت الحرف والفعل إقراءً وتركيباً، حقيقة ومجازا، ودخلت أسماء الله كلها، بل قيل: أراد أيضاً ما يدل بلا لفظ كالنصب ، والإشارة بالجارحة، وحال الشيء ، والمراد الأنواع كالإنسان ، والفرس والجبل ، والنخلة.

وذكر الأسماء مرادا بها الدوال، ورد الضمير إليها مرادا به المدلول على الاستخدام، وضمير الذكور العقلاء تغليب على الإناث وغير العقلاء { عَلَى الملائكة } القائلين أتجعل فيها { فَقَالَ أَنبِئُونِى بِأَسْمَاءِ } بألفاظ {هَؤُلاَءِ } الأنواع المعروضة، أحضر كل نوع، فقال: ما اسم هذا ، جسما أو عرضا، مثل أن يلهمهم في قلوبهم الفرح ما اسمه، والنفل ما اسمه، كما يقول لهم، ما اسم هذا مشيراً للحجر، وقد عرفوا بعض الأسماء والأفعال والحروف بلغة من اللغات، كما هو نص الآية، وإنما خص آدم بجمعه ما لم يعلموا إلى ما علموا، أو ذلك تعجيز لهم، لا تكليف بما لا يطاق { إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } في دعوى أنكم أحق بالخلافة ، والاقتصار عليكم عما يفسد ويسفك، وأنكم أعلم، وقد قالوا لن يخلق الله تعالى خلقا أعلم منا ولا أكرم.

{قَالُوا سُبْحَنَكَ} عن أن نكون في قولنا أتجعل الآية معترضين {لاَعِلْمَ لَنَا} بتلك المسميات وغيرها {إِلاَّ مَا } أي إلا علم ما { عَلَّمْتَنَا } إياه، أو لا معلوم لنا إلا ما عَلَّمْتَنَاهُ، هذا اعتراف بالعجز، وشكر على إظهار الحكمة في الخليفة لهم { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ } بكل شيء {الْحَكِيمُ } في جميع ما فعل وما قال، وما يقول، وما يفعل، لا يكون منه سفه، أو لا يخرج

الأمر عما أراد، يقال أراد فلان إحكام شيء، أي إتقانه فأتقنه، أي لم يخرج عما أراد.

وقدم العلم على الحكمة؛ لأن المقام له ولقوله: وعلم، وقوله: لا علم، ولأن الحكمة تنشأ عن علم وأثر له، ولا حكمة بلا علم؛ لأن العلم لا يكون إلا صفة ذات، والحكمة تكون صفة ذات، بمعنى أنه أهل لأن لا يكون منه إلا الصواب وإلا الإتقان، وتكون فلا بمعنى إتقان الأمر والإتيان به صوابا.

وإذا تأملنا قوله في التفسيرين نجد أنّ ما قاله في «تيسير التفسير» تكملة لما قاله في «هميان الزاد»، وأنّه لم يخرج عن منهج المفسرين، في توظيف اللغة والنحو، وأنّ ما ورد في تفسيريه كان أكثر عمقا وفائدة، وأقرب إلى ما يدعو إليه البحث اللغوي النحوي الحديث وذهب إليه اللسانيون في زماننا.

وقوله تعالى: (إلاَّ تنْصُروهُ) إلا هي: إن الشرطية ولا النافية، لكن أبدلت النون لاما وأدغمت في لام لا، ولذلك حذفت النون في تنصروه، وابن مالك على جلالته في النحو والتصريف كغيرهما من الحديث والتفسير، والفقه واللغة، والعروض، ذكر (إلا) هذه في شرح التسهيل من أقسام إلا، وإنما ذلك منه على جهة الغفلة، أو زلة القلم، وجواب إن محذوف تقديره فسينصره الله وقوله تعالى: (فَقَد نَصرهُ اللهُ إذْ أخْرجَه الَّذينَ كفَرُوا ثاني اثْنينِ) كالدليل عليه القائم مقامه، وذلك أن نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد يتضمن أنه ينصره، وقد كان معه آلاف رجل، وهذا باعتبار شأن الإنسان في النظر إلى الوسائط، وإلا فالقلة والكثرة عند الله سبحانه سواء، أو الآية مشيرة إلى أن وجودكم وعدمه

سواء، ألا ترون أنه نصره إذ لم تكونوا معه، ولم يكن معه إلا واحد، وأجاز جار الله كون قوله تعالى: (فَقَد نَصرهُ اللهُ) جوابا على أن المعنى فقد أوجب الله له النصر المطلق في ذلك الوقت الذي كان فيه ثاني اثنين، فنصره فيه ، وينصره في غيره انتهى بإيضاح.

مسألة لغوية أخرى: الله اسم مشتق من السمو وهو الارتفاع عند البصريين، فالله جل وعلا لم يزل مسمى وموصوفا قبل وجود المخلوقات وبعد وجودها وبعد فنائها لا تأثير لهم في أسمائه وصفاته، وذلك معتقدنا ومعتقد الأشعرية، أو مشتق من السمة وهي العلامة عند الكوفيين، قالت الكفار والمعتزلة: كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، وهذا خطأ فاحش، ولا يخفى أن الاسم إذا أريد به اللفظ غير المسمى، وإذا أريد به المعنى فهو غير المسمى، وهذا في قولك اسم بالهمزة والسين والميم في سائر الأسماء كزيد وعمرو، وإذا أطلق لفظ عمرو ولفظ زيد على الحروف الملفوظة بها كقولك عمرو وزيد ثلاثيا، أو مبتدأ أو خبر أو فاعل أو نحو ذلك فمجاز من تسمية الدال باسم المدلول أو على المسمى، فحقيقة عكس قولك اسم وأصل الله آلاه؛ أي عال حذفت همزته وعرض عنها أل، وليس حذفها قياسا لأنها متحرك، وبدليل وجود التعويض وإدغام الدال في لام الله، ولو كان قياسا لما وجب التعويض والإدغام لأن المحذوف قياسا في حكم الثابت.

وهو الاسم الأعظم إذ لا يشاركه فيه أحد وتسند إليه الصفات مثل: الله حافظا، الله مغيث، الله قدير، الله ، ودود، الله حي، الله عليم، الله مريد، الله متكلم، الله سميع، الله بصير.

ولذلك قيل: الله اسم تبنى عليه الصفات فهو وضعا واستكمالا لا غلبة

فيه ولا اشتقاقا، وقيل: اسم لمن يستحق العبادة إلا هو، وهو قول القائلين بالأقوال السابقة من الاشتقاق لا قولان أصله في السريانية.[3]

وقد ذهب الإمام القطب ـ رحمه الله ـ كما نقل عنه إلى ترجيح «تيهرت» بالياء بدلا من «تاهرت» بالألف حيث قال-رحمه الله تعالى-: وتيهرت بكسر التاء وإسكان الياء بعدها إسكانا ميتا، وبفتحها وإسكان الياء بعدها حيا والفتح أول، وبفتح الهاء وبعدها راء مهملة ساكنة والتاء مجرورة في السطر لا على صورة هاء؛ لأنها تاء تأنيث في لغة البربر ويقال: تاهرت بالألف وهو ضعيف.[4]

رأيه في كيفية تلاوة القرآن الكريم: عن أبي عُبَيْدَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى اله عليه وسلم): «إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَرَتِّلْهُ تَرْتِيلاً وَلاَ تَغَنَّوْا بِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ الْمَلاَئِكَةُ لِذِكْرِهِ». مسند الربيع بن حبيب.

رأيه في قوله: «فرتِّله ترتيلاً»: أي: اقرأه على تؤدة وتبيين حروف بحيث يتمكن السامع من سماعها وفهمها، وترتيل القراءة: الترسُّل فيها والتبيين بغير مجاوزة للحدِّ. وقيل: الترتيل رعاية مخارج الحروف وحفظ الوقوف.

وقيل: هو خفض الصوت والتحزين بالقراءة، وفي حديث حفصة عند المصنِّف وغيره أنَّهrكان يقرأ السورة فيرتِّلها حتَّى تكون أطول من أطول منها.

وقال قتادة: سألت أنس بن مالك عن قراءة النبيءrفقال: كان يمدُّ

3- الجامع الصغير للقطب أطفيش. 1/18 - 21
4- الرد على العقبي. محمد أطفيش. ص: 70

مدًّا، والأمر بالترتيل للاستحباب عند أكثر العلماء، وفائدته تدبُّر القارئ وتفهُّم معانيه.

وفصَّل الإمام مالك فقال: من الناس من إذا هذَّ كان أخفَّ عليه، وإذا رتَّل أخطأ، ومن الناس من لا يحسن، قال: والناس في هذا على قدر درجاتهم، وما يخفُّ عليهم وكلٌّ واسع. وقد روي عن جماعة من السلف أنَّهم كانوا يختمون القرآن في ركعة وهذا لا يتأتَّى إلاَّ بالهذِّ.

قوله(صلى اله عليه وسلم): «ولا تغنُّوا بِهِ»: أي: لا تمدُّوا الصوت بالقراءة مدًّا يشبه الغناء، وَهُوَ الإفراط في الترسُّل فيشمل الترجيع والتضريب، والترجيع عبارة عن ترديد الصوت في الحلق كقراءة أصحاب الألحان، والتضريب: عبارة عن مدِّ الصوت وتحسينه.

والحاصل أنَّه (صلى اله عليه وسلم) أمر بالترتيل ونهى عن التغنِّي، وعلَّل بقوله(صلى اله عليه وسلم): «إنَّ الله يحبُّ أن تسمع الملائكة لذكره»، وهذا يفيد أنَّ الملائكة تستمع للترتيل دون التغنِّي، فإنَّهم ينفرون عنه، وذلك يقتضي المنع، فإنَّ حضورهم مطلوب، وعلى المنع أكثر العلماء، وخالف أبو حنيفة والشافعي واحتجُّوا بحديث فيه: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم»، وآخر فيه: «من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منَّا». إنَّ تزيين الصوت لا ينحصر في التغنِّي بل يكون في الترتيل أيضًا، وأمَّا قولهr:«من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منَّا»، فمعناه أنَّ من لم يستغن به عن غيره من كتب اليهود والنصارى وأضرابهم يقال: تغنَّيت وتغانيت واستغنيت، وقيل: أراد من لم يجهر بالقراءة فليس منَّا، وقد جاء مفسَّرًا في حديث آخر: «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبيٍّ يتغنَّى بالقرآن يجهر بِه». قيل: إنَّ قوله: «يجهر بِهِ» تفسير لقوله: «يتغنَّى بِهِ».

قال ابن الأعرابيِّ: كانت العرب تتغنَّى بالركبان إذا ركبت، وإذا جلست في الأفنية وعلى أكثر أحوالها، فلمَّا نزل القرآن أحبَّ النبيء(صلى اله عليه وسلم) أن تكون هجِّيراهم بالقرآن مكان التغنِّي بالركبان، ومعناه: اجعلوا مكانَ غنائكم تلاوة القرآن، وَأَوَّل من قرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة، فورثه عنه عبيد الله بن عمر، ولذلك يقال: قراءة العمري، وأخذ عنه ذلك سعيد بن العلاف، وسمع سعيد بن المسيب عمر بن عبد العزيز يؤمُّ الناس فضرَّب في قراءته، فأرسل إليه سعيد: أصلحك الله، إنَّ الأئمَّة لا تقرأ هكذا! فترك عمر التضريب بعد ذلك.

وقرأ رجلٌ في المسجد النبويِّ فضرَّب، فأنكر ذلك القاسم بن محمَّد وقال: يقول الله عزَّ وجلَّ: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنم بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيم حَمِيدٍ)فصلت/42 وقال مالك: إِنَّمَا هو غناء يتغنَّون بِهِ ليأخذوا عليه الدراهم.[5]

منهج الاستدلال عند الشيخ اطفيَّش:

اعتماده المنهج النقلي: ونقصد به هنا الاستدلال بالقرآن والسنَّة: ونورد هنا آية من القرآن الكريم هي حلّ خلاف في فهم دلالتها بين القوم، لقد تناقلت المصادر الإباضية نصوصا عن الإمام جابر بن زيد يرفعها إلى رسول الله(صلى اله عليه وسلم) وتتمثل في ما يلي: روي عن جابر بن زيد- رحمه الله- أن رجلا قال: يا أبا الشعثاء، أرأيت قول الله تعالى: (إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ) الآية فقال له جابر: أو أنبأك الله لمن يشاء أن يغفر؟ قال: وأين أنبأني يا أبا الشعثاء، قال تعالى: (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)النساء/31.

5- شرح الجامع الصحيح لنور الدين السالمي، 4/483

وذكر جابر أن رسول الله (صلى اله عليه وسلم) قال: «هلك المصرون» ثلاثا فقال رجل: يا رسول الله فأين قوله تعالى: (إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ) فقال رسول اللهr:«أفيكم أحد يقرأ سورة طه؟ فقال أبي بن كعب: أنا يا رسول الله فقال: اقرأ (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) طه/82

فقال رسول الله(صلى اله عليه وسلم): «لهؤلاء وقعت المشيئة ثلاثا»، وكان جابر يذكر أن النبي(صلى اله عليه وسلم) يقول: «من أطمع في الجنة من آيسه الله منها جمع الله بينهما في النار».

هذه نصوص نقلية لا نجد لها أثر عند غير الإباضية يتناقلها الإباضية عن إمامهم جابر بن زيد مسندة إلى رسول الله (صلى اله عليه وسلم) تتظافر في ما بينها فتفسر قوله تعالى: (يَغْفِر لِمَنْ يَشَاءُ) تفسيرا واضحا لا تترك المشيئة مطلقة بل تربطها بضرورة التوبة، وعلة ذلك إقرار حكمة الله تعالى إذ ليس من الحكمة أن يسوى بين التائب والمصر.

وَهُنَا أَذْكُرُ مَا يَكُونُ دَلِيلًا لِجَوَازِ الْحُكْمِ بِالْأَمَارَةِ أَوْ مُنَاسِبًا مِنْ الْقُرْآنِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ الْأَثَرِ؛ لِأَنَّهُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ هُوَ مُقَلِّدٌ ، ؛ لِأَنَّ أَحَادِيثَ الْحُكْمِ بِالْبَيِّنَةِ وَالْيَمِينِ وَالْإِقْرَارِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا مِنْ الْأَثَرِ رَاسِخَةٌ فِي الْقُلُوبِ لِصِحَّتِهَا وَشُهْرَتِهَا ، فَكَانَتْ الْقُلُوبُ تَأْبَى عَنْ الِاجْتِزَاءِ بِالْأَمَارَةِ الَّتِي تُذْكَرُ فِي الدِّمَاءِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ السِّيمَا حَالٌ تَظْهَرُ عَلَى الشَّخْصِ حَتَّى أَنْ لَوْ رَأَيْنَا مَيِّتًا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِ زُنَّارٌ أَوْ هُوَ غَيْرُ مَخْتُونٍ وَهُوَ كَبِيرٌ لَا نَدْفِنُهُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُقَدَّمُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حُكْمِ الدَّارِ ، وَكَذَا مِمَّا يُشْبِهُهُ فِي قَوْلِ جَمَاعَةٍ ، بَلْ نُسِبَ لِلْأَكْثَرِ ، وَإِنْ وُجِدَ بِزُنَّارٍ وَهُوَ مَخْتُونٌ فَقِيلَ : لَا يُصَلَّى عَلَيْهِ ، ؛ لِأَنَّ

النَّصَارَى قَدْ يَخْتَتِنُونَ ، وَقِيلَ : يُصَلَّى عَلَيْهِ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى : { وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَم كَذِبٍ } ، وَلَمَّا أَتَوْا بِقَمِيصِهِ إلَى يَعْقُوبَ فَلَمْ يَرَ فِيهِ خَرْقًا وَلَا أَثَرَ نَابٍ اسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى كَذِبِهِمْ وَقَالَ : مَتَى كَانَ الذِّئْبُ حَلِيمًا يَأْكُلُ يُوسُفَ وَلَا يَخْرِقُ قَمِيصَهُ ، أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا الدَّمَ عَلَامَةً فَقَرَنَ اللهُ هَذِهِ الْعَلَامَةَ بِعَلَامَةٍ تُكَذِّبُهَا وَهِيَ سَلَامَةُ الْقَمِيصِ مِنْ التَّمْزِيقِ ، قِيلَ : أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَدَلَّ عَلَى كَذِبِهِمْ بِصِحَّةِ الْقَمِيصِ ، وَقَالَ تَعَالَى : {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ } إلَى قَوْلِهِ : {إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ } ، وَكَانَ بَعْضُ قَوْمِنَا يَرَى الْحُكْمَ بِالْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ فِيمَا لَا تَحْضُرُهُ الْبَيِّنَةُ فَإِنْ قِيلَ: إنَّ تِلْكَ الشَّرِيعَةَ لَا تَلْزَمُنَا مَعَ أَنَّهُ أَيْضًا كَلَامُ غَيْرِ اللهِ حَكَاهُ اللهُ، قُلْت: إنَّ كُلَّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْنَا إنَّمَا يُنْزِلُهُ لِفَائِدَةٍ فِيهِ وَمَنْفَعَةٍ لَنَا، وَالْأَصْلُ الِاقْتِدَاءُ بِهِ حَتَّى يَصْرِفَهُ دَلِيلٌ .

قَال الله تَعَالَى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهْ } فَآيَةُ يُوسُفَ (صلى اله عليه وسلم) مُقْتَدًى بِهَا مَعْمُولٌ عَلَيْهَا، سَوَاءٌ كَانَ الشَّاهِدُ الْمَذْكُورُ فِيهَا رَجُلًا عَاقِلًا وَزِيرًا يَسْتَشِيرُهُ فِي أُمُورِ الْعَزِيزِ أَوْ طِفْلًا، فَانْظُرْ تَفْسِيرَنَا: «هِمْيَانُ الزَّادِ» لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ طِفْلًا فَالْحُجَّةُ قَائِمَةٌ مِنْهُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى أَرْشَدْنَا عَلَى لِسَانِهِ إلَى التَّفَطُّنِ وَالتَّيَقُّظِ إلَى الْأَمَارَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الَّتِي نَعْلَمُ بِهَا صِدْقَ الْمُحِقِّ، وَبُطْلَانَ الْمُبْطِلِ؛ وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ فَوْرَ التَّنُّورِ عَلَامَةً لِنُوحٍ (صلى اله عليه وسلم) عَلَى حُلُولِ الْغَرَقِ بِقَوْمِهِ، وَجَعَلَ فَقْدَ الْحُوتِ عَلَامَةً لِمُوسَى (صلى اله عليه وسلم) عَلَى لِقَاءِ الْخَضِرِ (صلى اله عليه وسلم)، وَجَعَلَ مَنْعَ زَكَرِيَّاءَ الْكَلَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إلَّا رَمْزًا عَلَامَةً لَهُ عَلَى هِبَةِ الْوَلَدِ، وَوَرَدَ فِي السُّنَّةِ مَوَاضِعُ مِنْ ذَلِكَ مِنْهَا مَا رُوِيَ { أَنَّهُ (صلى اله عليه وسلم) حَكَمَ بِوُجُوبِ اللَّوْثِ فِي الْقَسَامَةِ }، وَقَدْ بَيَّنْته فِي هِمْيَانُ الزَّادِ « وَهُوَ مِنْ كَلَامِ قَوْمِنَا.

وجاء في «هميان الزاد»: قال مالك وأحمد: فإن لم يكن ثم لوث فالقول قول لما هي عليه؛ لأن الأصل براءة ذمته من القتل، وهل يحلف يميناً واحدة كما فى سائر الدعاوى، والثانى يحلف خمسين يميناً تغليظاً لأمر القتل، وعند أبى حنيفة ألا حكم للوث ولا يبدأ بيمين المدعى، بل إذا وجد قتيل فى محلة يختار الإمام خمسين رجلا من صلحاء أهلها فيحلفهم أنهم ما قتلوه ولا يعرفون له قاتلا، فإن حلفوا وإلا أخذوا الدية من سكانها، والدليل على أن البداءة بيمين المدعى عند وجود اللوث، ما روى عن سهل بن أبى حثمة.

ونثبت قصة حُوَيِّصَةُ وَمُحَيِّصَةَ التي أشار إليه الشيخ أطفيش: عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، قَالا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بن سَعِيدٍ، أَخْبَرَنِي بَشِيرُ بن يَسَارٍ، أَنَّهُ: سَمِعَ سَهْلَ بن أَبِي حَثْمَةَ يَقُولُ: وَجَدَ عَبْدُ اللَّهِ بن سَهْلٍ قَتِيلا فِي فَقِيرٍ أَوْ قَلِيبٍ مِنْ فُقُرٍ، أَوْ قُلُبِ خَيْبَرَ، فَأَتَى النَّبِيَّ (صلى اله عليه وسلم) أَخُوهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن سَهْلٍ، وَعَمَّاهُ حُوَيِّصَةُ، وَمُحَيِّصَةُ، ابْنَا مَسْعُودٍ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى اله عليه وسلم): «الْكُبْرَ الْكُبْرَ»، فَتَكَلَّمَ مُحَيِّصَةُ، فَذَكَرَ مَقْتَلَ عَبْدِ اللَّهِ بن سَهْلٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا وَجَدْنَا عَبْدَ اللَّهِ بن سَهْلٍ قَتِيلا، وَإِنَّ الْيَهُودَ أَهْلُ كُفْرٍ وغَدْرٍ، وَهُمُ الَّذِينَ قَتَلُوهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى اله عليه وسلم): «فَتَحْلِفُونَ خَمْسِينَ يَمِينًا، وَتَسْتَحِقُّونَ صَاحِبَكُمْ أَوْ دَمَ صَاحِبِكُمْ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَحْلِفُ عَلَى مَا لَمْ نَحْضُرْ وَلَمْ نَشْهَدْ؟ قَالَ: «فَتَبْرَأُ إِلَيْكُمْ يَهُودُ بِخَمْسِينَ يَمِينًا»، قَالُوا: كَيْفَ نَقْبَلُ أَيْمَانَ قَوْمٍ مُشْرِكِينَ؟ فَوَدِيَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى اله عليه وسلم) مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ سَهْلٌ: فَلَقَدْ رَكَضَتْنِي بَكْرَةٌ مِنْهَا.أَخْرَجَهُ مُحَمَّدٌ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ مَنْصُورٍ ، عَنْ بِشْرِ بْنِ عُمَرَ ، كِلاهُمَا عَنْ مَالِكٍ.

ومعنى اللوث: اللَّوْثُ بِأَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا سَمَاعًا فَاشِيًا أَنَّ فُلَانًا قَتَلَ فُلَانًا فَشَهَادَةُ السَّمَاعِ لَوْثٌ.

وعرفه آخرون: بأنه العداوة الظاهرة بين المقتول والمدعى عليه، لنحو ما كان بين الأنصار ويهود خيبر، وما يكون بين القبائل والأحياء وأهل القرى الذين بينهم الدماء، وما بين البغاة وأهل العدل، وما بين الشرطة واللصوص، وكل من بينه وبين المقتول ضغن يغلب على الظن أنه قتله، فإن لم تكن عداوة ظاهرة بين المتهم والمقتول ولكن غلب على الظن صدق المدعي كتفرق جماعة عن قتيل أو في زحام أو شهد نساء وصبيان وفساق أو عدل فليس لوثاً. وإن ادعى شخص القتل من غير وجود عداوة، فلا بد من تعيين المدعى عليه. وإذا رفعت الدعوى على عدد غير معين لم تسمع الدعوى، كما قال الشافعية..

قَالَ مَالِك: الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ الْأَئِمَّة قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَنَّ الْمُدَّعِينَ يَبْدَءُونَ فِي الْقَسَامَة، وَلِأَنَّ جَنَبَة الْمُدَّعِي صَارَتْ قَوِيَّة بِاللَّوْثِ.

قال في شرح النيل: وَجَوَّزَ لِلْمُدَّعِينَ أَنْ يَحْلِفُوا خَمْسِينَ يَمِينًا وَيُسْتَحَقُّ دَمُ الْقَتِيلِ فِي حَدِيثِ حُوَيِّصَةُ وَمُحَيِّصَةَ ، وَاللَّوْثُ دَلِيلٌ عَلَى الْقَتْلِ ، وَلَا نَشْتَرِطُ اللَّوْثَ مَعْشَرَ الْإِبَاضِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي قِصَّةِ حُوَيِّصَةُ وَمُحَيِّصَةَ إلَّا أَنْ قَالُوا: إنَّ الْحَدِيثَ فِيهِ ذِكْرُ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُ قُتِلَ فِي بَلَدِهِمْ، وَلَيْسَ فِيهِ إلَّا الْيَهُودُ وَاسْتَظْهَرَ الْمَازِرِيُّ أَنَّ الْقَرَائِنَ تَقُومُ مَقَامَ الشَّاهِدِ فَيَكُونُ قَدْ قَامَ مِنْ الْقَرَائِنِ مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ وَجَهِلُوا عَيْنَ الْقَاتِلِ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَبْعُدُ إثْبَاتُهُ.

التأويل وعدم الاكتفاء بالظاهر أي الاستدلال بالعقل والتأويل:

ومما تحتج به المرجئة ولا نعلم لهم في كتاب الله حجة أوثق في أنفسهم

منها قول الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُأَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فقالوا: إن الكبائر التي هي دون الشرك فإن الله يغفرها بلا توبة. قال لهم: أخبرونا عن هذه الآية أتحملونها على ظاهرها أو تحتها معنى؟ فإن قالوا: ليس تحتها معنى وحملوها على ظاهرها فإنما قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) فهو إذن لا يغفر الشرك لمن تاب، وإن كان تحت الآية معنى غير ظاهرها فينبغي أن يكون إنما يغفر لمن تاب من الكبائر، ويغفر الصغائر لمن اجتنب الكبائر؛ لأن ذلك كله دون الشرك، ولو حمل القرآن على ظاهره لتناقض، ألا ترى أنه قال في هذا الموضع لا يغفر الشرك، فلو حمل القرآن على ظاهره لم يغفر الشرك به لمن تاب منه.

وقال في موضع آخر (إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) فدخل في الجميع الشرك وغيره من الذنوب فلو حملت الآية على ظاهرها لكان الشرك مغفورا بلا توبة؛ لأنه قال: (يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا).

ونلمس من هذه التأويلات أنها لم تنتهج نهج الجدل العقلي في تحميل النصوص مالا تحتمل وإنما سلكت مسلكا مقارنا حصل منه تعزيز للقول بإنفاذ الوعيد في أهل الكبائر.

وواضح أنها نصوص متكاملة تأخذ من بعضها البعض لتصل إلى نفس النتيجة والمدار في كل ذلك أنه كما يخرج المشركون والمنافقون وأهل الكتاب من عموم الآية ينبغي أن يخرج أهل الكبائر المصرون وتبقى المشيئة مرتبطة بأهل الصغائر والمتأمل مليا يتبين أن هذه التخريجات ليست إلا صياغة كلامية لما نقله جابر بن زيد عن رسول

الله (صلى اله عليه وسلم) وسيبقى في هذا المحيط ما عبر عنه بالخصوص والعموم.[6]

التحليل البلاغي والنحوي: ويورد الشيخ اطفيش كلام الزمخشري في تفسيرين حيث يقول:» فإن قلت: قد ثبت أن الله عز وجل يغفر الشرك لمن تاب منه، وأنه لا يغفر ما دون الشرك إلا بالتوبة فما وجه قوله تعالى: (إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ) قلت: الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعا موجهين إلى قوله تعالى- لمن يشاء- كأنه قيل إن الله لا يغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك على أن المراد بالأول من لم يتب وبالثاني من تاب ونظيره قولك: إن الأمير لا يبذل الدينار ويبذل القنطار لمن يشاء، تريد لا يبذل الدينار لمن لا يستأهله ويبذل القنطار لمن يستأهله» .

وقد زاد محمد اطفيش القضية تحليلا في ما بعد: فالإباضية حينئذ استفادوا هذا الدليل من المعتزلة وتبنوه، ومهما يكن من أمر فإن هذا التخريج البلاغي ليس من التعسف في شيء كما ذهب إلى ذلك علي بن محمد الجرجاني في حاشيته على الكشاف حيث يختم انتقاده بقوله: «وما هذا إلا من جعل القرآن تبعا للرأي نعوذ بالله من ذلك» ما دامت اللغة العربية تتحمل ذلك، والزمخشري لا يشق له غبار في هذا الباب وهو من أئمة اللغة قبل كل شيء، فلا ضير إن أخذنا برأيه البلاغي النحوي.

والعزف على وتر البلاغة والإعراب فهذا طبيعي في فهم النصوص ففي قوله تعالى: (وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) غافر/ حيث يقول الزمخشري وينقل

6 - البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية لفرحات الجعبيري. 2/18.

عنه محمد اطفيش:» المطاع مجاز في المشفع؛ لأن حقيقة الطاعة نحو حقيقة الأمر في أنها لا تكون إلا لمن فوقك، فإن قلت: ما معنى قوله تعالى: (وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)؟ قلت: يحتمل أن يتناول نفي الشفاعة والطاعة معا وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول: ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وأن عندك كتابا إلا إنك لا تبيعه ونفيها جميعا وألا كتاب عندك ولا كونه مبيعا ونحو ما قالته العرب:»ولا ترى الضب بها ينجحر» يريد نفي الضبّ وانجحاره». والحقيقة أن القضية البلاغية هنا تعلقت بنفي الشفيع أو إثباته ولم تتعلق بالمشفوع له حيث رجع الأمر إلى التخصيص والتعميم.[7]

فتوى فقهية: طعام أهل الكتب: وموضوع طعام أهل الكتاب، فيه مباحث طويلة بين علماء الأمة وفقهائها، وعندما يتحدَّث الفقهاء عن طعام أهل الكتاب فهم يقصدون الذبائح بالدرجة الأولى، لا يختلفون في أنَّ طعام أهل الكتاب حلال للمسلمين عندما يكون أهل الكتاب تحت الذمة، أي: تحت الحكم الإسلامي، خاضعين لرقابته، ولا يختلف الإبَاضِية عن غيرهم من المسلمين في هذا الحكم للنص القرآني الكريم:
« الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(5)» المائدة/.

ولا يوجد أحد من علماء الإبَاضِية يخالف النص، ويقول بتحريم أهل الكتاب هكذا على الإطلاق -كما ادعى ابن حزم- ولكن منهم من

7 - البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية لفرحات الجعبيري. 2/18.

يشترط لحلية ذبائح أهل الكتاب أن يكونوا تحت الذمَّة أي: تحت إشراف الدولة المسلمة ورقابتها. فإذا كانوا كذلك حل طعامهم ونكاح الحرائر من نسائهم أمَّا إذا خرجوا عن الذمَّة، بأن لم يكن بينهم وبين المسلمين صلة ولا علاقة أو كانوا محاربين لله ورسوله، أو كانوا مؤيدين لمن يحارب الله ورسوله، مساعدين له، فإنَّه لا يحل طعامهم أي: ذبائحهم، ولا نكاح الحرائر من نسائهم كما هو الحال في وقتنا الحاضر لمن لم يكن تحت الحكم الإسلامي، ومن علماء الإبَاضِية من يعمل بعموم الآية فيجيز ذلك على جميع الأحوال.

ولا شكَّ أنَّ المسألة مسألة فرعيَّة اجتهاديَّة تحدَّث عنها علماء الإبَاضِية وغير الإبَاضِية بإسهاب وتطويل واختلفت فيها آراؤهم ولا يوجد أحد من علماء الإبَاضِية لا في القديم ولا في الحديث يحرم طعام أهل الكتاب إذا كانوا تحت الذمَّة أو تحت رقابة الأمة المسلمة في أي عهد من العهود.

ويفتى بتحريم ذبائح أهل الكتاب في الوقت الحاضر؛ لأنَّهم ليسوا تحت الذمَّة، وقد أعلن ذلك بفتاوى عدَّة مرَّات، ومما قاله من أفتى بذلك: إنَّ المسلم لا يمكن أن يرفض الميتة؛ لأنَّها جاءته عن يد مسلم ثُمَّ يتقبلها من يد مشرك بدعوى أنَّه من أهل الكتاب فذبائح أهل الكتاب عنده في هذه الحالة في حكم الميتة، وهذا المفتي مالكي المذهب متمسِّك بمذهبه إلى حدّ التعصب مع احترامه للمذاهب الأخرى وأئمَّتها.

شروط تولي القضاء: وهناك مسألة هامة وهي الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى منصب القضاء:

قال الشيخ أطفيش: قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَهُوَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَنْدَلُسِ وَعِيَاضٌ

مِنْ عُلَمَاءِ الْجَزَائِرِ وَالْمَازِرِيُّ مِنْ عُلَمَاءِ تُونُسَ: إنَّ الْعِلْمَ مِنْ الشُّرُوطِ الْوَاجِبَةِ وَلَا يَنْعَقِدُ الْقَضَاءُ لِلْجَاهِلِ مُطْلَقًا وَلَا لِمَنْ لَمْ يَبْلُغْ الاِجْتِهَادَ إنْ وُجِدَ مَنْ بَلَغَهُ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ يَنْعَقِدُ لِمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ مَعَ وُجُودِ بَالِغِهِ إنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ وَنَبَاهَةٍ وَفَهْمٍ بِمَا يَتَوَلَّى أَمْرَهُ وَزَعَمَ قَوْمٌ مِنْ الْمَالِكِيَّةِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْقَضَاءُ إلَّا لِلْمُجْتَهِدِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَلَا يَلْزَمُ الْقَاضِي الْمُقَلِّدَ الاِقْتِصَارُ عَلَى قَوْلِ مُقَلِّدِهِ بَلْ إنْ كَانَ لَهُ طَرَفُ تَرْجِيحٍ فَلْيُرَجِّحْ وَإِلَّا لَمْ يَلْزَمْهُ وَقِيلَ لَزِمَهُ وَمِمَّنْ قَالَ بِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ الْقَضَاءُ إلَّا لِلْمُجْتَهِدِ مُطْلَقًا الشَّافِعِيُّ وَعَبْدُ الْوَهَّابِ الْمَالِكِيُّ وَمِنْ شُرُوطِ الْكَمَالِ الْفِقْهُ، جَمَعَ الْفِقْهَ وَالْحَدِيثَ كَمَا قَالَ الْعَاصِمِيُّ لِيَتَهَيَّأَ لَهُ النَّظَرُ فِي النَّوَازِلِ.

وَالْبَحْثُ عَنْ الدَّلَائِلِ وَالتَّرْجِيحُ عَنْ وُقُوعِ الْخِلَافِ وَالاِخْتِيَارِ عِنْدَ تَعَارُضِ الْأَقْوَالِ، وَمِنْ شُرُوطِ الْكَمَالِ كَوْنُهُ غَنِيًّا لَا دَيْنَ عَلَيْهِ بَلَدِيًّا مَعْرُوفَ النَّسَبِ غَيْرَ مَحْدُودٍ حَلِيمًا مُسْتَشِيرًا لَا يُبَالِي لَوْمَةَ لَائِمٍ سَلِيمًا مِنْ بِطَانَةِ السُّوءِ غَيْرَ زَائِدٍ فِي الدَّهَاءِ لِأَنَّ الْفَقِيرَ وَمَنْ عَلَيْهِ الدَّيْنُ قَدْ يَتَذَلَّلَانِ لِلْغَنِيِّ وَمَنْ لَهُ الدَّيْنُ وَيَتَهَوَّنُ بِهِمَا وَيَحْتَاجَانِ إلَى غَيْرِهِمَا وَالْبَلَدِيُّ يَعْرِفُ الشُّهُودَ وَالنَّاسَ الْمَقْبُولِينَ وَقَدْ يُرَجَّحُ غَيْرُ الْبَلَدِيِّ لِيُسَوِّيَ بَيْنَهُمْ وَلَا يَرْكَنُ وَلِئَلَّا تُوجَدَ الْمُنَافَسَةُ وَلَكِنْ قَدْ تُوجَدُ بِهِ الْمُنَافَسَةُ فَيَقُولُونَ كَيْفَ يَتَوَلَّى عَلَيْنَا مَنْ لَيْسَ مِنَّا وَلَكِنْ يَنْظُرُ الْإِمَامُ أَوْ نَحْوُهُ مَنْ يَصْلُحُ.

مواقفه النبيلة الخالدة: وهنا تحضرني واقعة رائعة تعطينا صورة عن الشيخ أطفيش-قدس الله سره- ومدى تمسكه بدينه فقد وقف موقفا مخالفا لمن عقد الصلح مع الاستعمار، وقيل: له إن الاستعمار دخل الأغواط، وهو على مقربة منّا، وإذا دخل الأغواط فقد دخل غرداية، فبقي متمسكا برأيه-رحمه الله تعالى-، وهنا وقعت حكاية طريفة تبيّن لنا شخصية الشيخ أطفيش الإسلامية، وعقيدته المتينة التي تؤكل من

الأطراف: حدث أن زاره أحد الحكام الفرنسيين في بيته فأمر بإحضار كرسي لهذا الضيف، وجلس هو بأعلى الدرج، فلما جاء هذا الحاكم أن يخلع نعله، له لا تفعل وتستطيع أن تمشي بنعليك، فلما سئل عن ذلك بعد انصراف الضيف، أجاب-رحمه الله تعالى-:

أما جلوسي بأعلى درج فذلك؛ لأني أحمل القرآن الكريم في صدري والقرآن كلام الله لا ينبغي أن أجلس في مستوى هذا الكافر، أما تركه يمشي على الفراش بحذائه فإن حذاءه أطهر من جسده.

وقيل: لما أراد الحاكم الفرنسي أن يضع نيشا على صدره قال: ضعه في أسفل برنوسي، وهي واقعة اشترك فيها عالم إباضي مع عالم مالكي، إذ أراد أحد القادة العسكريين الفرنسيين أن يضع نيشا على صدر شيخ الزاوية العثمانية، (والد عبد القادر العثماني) فقال له: ضعه في أسفل برنوسي، وذلك لأني أحمل القرآن الكريم على صدري.

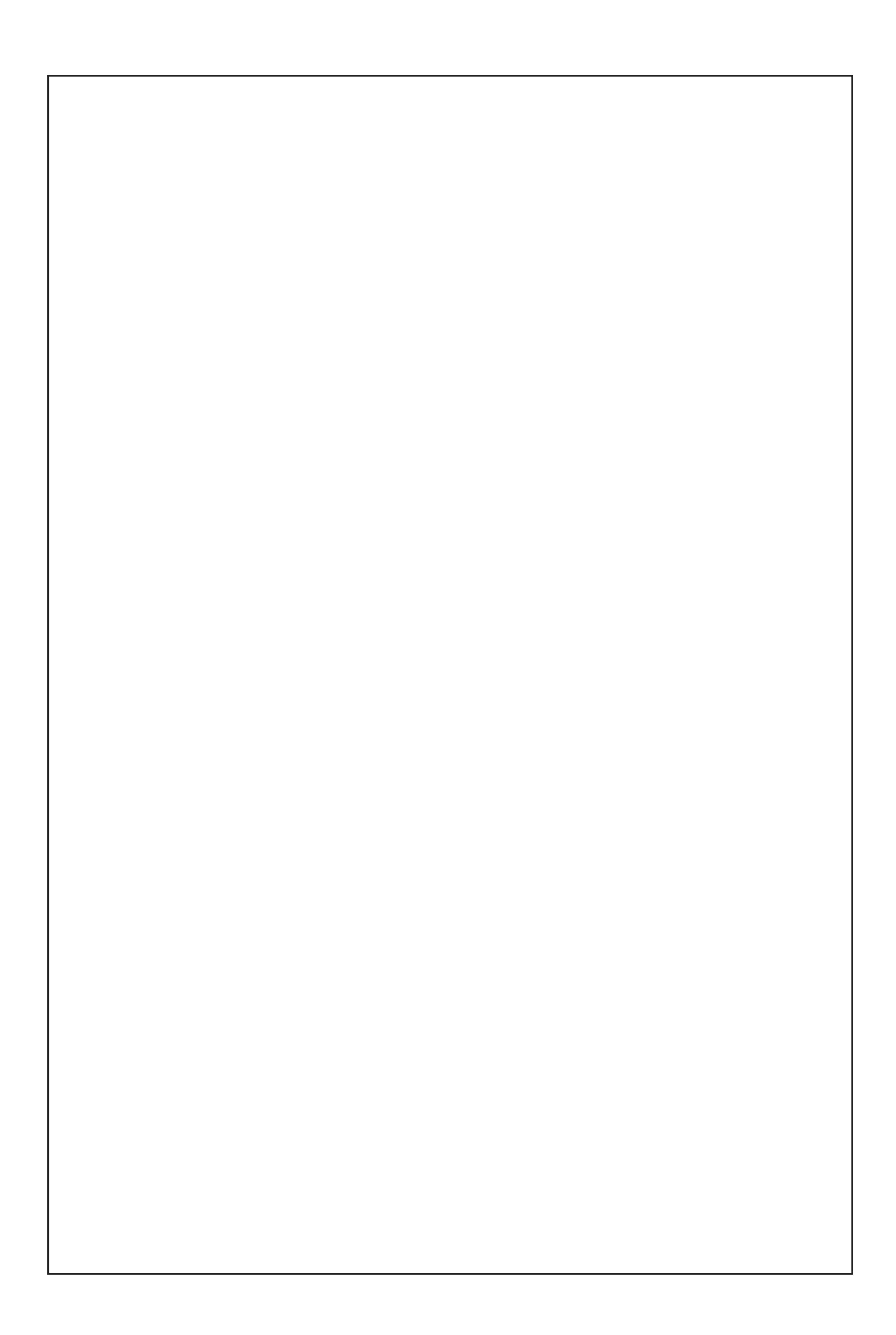
دعوته حفظ حقوق المسلم: قال:الشيخ الإمام أطفيش: ومن حقوق المسلمين الإصلاح بينهم وهو أفضل الصدقات، وألا يقبل فيهم ما يسمع من النمام والحساد، ولا يسيء الظن بهم، ولا يحل النظر لمسلم بعين الاستصغار، ولا الدنيوي بعين التعظيم، وليس حقاً لهم كف الأذى عنهم فقط بل كفه ونفعهم، فأهل القبور قد كفوا أذاهم، وإنما شرح الله أخوة الإسلام ليستفيد بعضهم من بعض، ومن ذب عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار.

وحق المسلم أوجب من حق الأب غير المسلم، والمسلمون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً، ولا خير فيمن لا منفعة للمسلمين فيه، وإن لله عباداً خصهم الله بنعمه لمنافع خلقه، يقرها فيهم ما بذلوها، وإن ضيعوها

حولها إلى غيرهم، وإن لله وجوها خلقهم لحوائج خلقه يرغبون في الحمد، وأن الله يحب مكارم الأخلاق، وأن أفضل الناس ثواباً غداً أنفعهم للناس اليوم، وإذا أراد الله بعبد خيراً استعلمه في قضاء حوائج الناس، وهذا لعامة الناس، فكيف فيمن فعل الخير في المسلم، والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر، ولا يغير المسلم ولا يضره ضراً ما، ولا يغشه ولا يخذله...

وأخيرا: أحب أن أختم إن كلامنا هذا من الفضول الأدبي المقبول، على أن ما جاء به وتركه لنا الشيخ الإمام القطب علم العلماء وكهف الفقهاء محمد بن يوسف اطفيش من علم غزير أودعه في ما يقرب عن 300 مجلد تكفينا عن مؤونة الوثبة القلمية إذ قلم الشيخ كان طوع بنانه (رضي الله عنه) وبارك لنا في حياته بما ترك من علم غزير، ورحمه الله تعالى مع العلماء العاملين والأئمة المخلصين أمثال مالك بن أنس والمازري والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ إبراهيم بيوض، والشيخ المرحوم عبد الرحمن بكلي.

رحمهم الله تعالى جميعا آمين يا رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



البحث العقدي
منهجه وخصائصه عند الشيخ اطفيش

د. مصطفى بن الناصر وينتن
المركز الجامعي - غرداية

تقديم:

الحديث عن الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في الإباضية وعلماء الجزائر حديث عن عالم كرس حياته للبحث في العلم الشرعي والعقدي خصوصا، وأنتج فيه مؤلفات متعددة بين ذاتي وشرح وحاشية وجواب ورد، يضاف إلى هذا حضور المسائل العقدية في كل مؤلفاته تقريبا، وهو ما جعل البحث في فكره العقدي لا يقتصر فيه على مؤلف واحد، بل يستدعي عند إرادة الحصول على معلومة كافية وصحيحة عن موقفه العقدي ورأيه استقصاء هذه المؤلفات قدر المستطاع.

من هذه المنطلقات تحاول هذه المداخلة أن تبحث الإنتاج الفكري العقدي للشيخ اطفيش، ودراسة منهجه وخصائصه من خلال آثاره العديدة التي تركها في المجال، وهذا لغرض الوقوف على تجربة الشيخ في الموضوع تجربة تعددت ميزاتها.

وندرس هذا الموضوع من خلال الآتي:

أولا - آثار الشيخ اطفيش في البحث العقدي.

ثانيا - منهجه في البحث العقدي والاستدلال.

ثالثا - خصائص البحث العقدي.

أولا ـ آثار الشيخ اطفيش في البحث العقدي:

يعتبر البحث العقدي من أهم المجالات التي انشغل بها الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، إذ أنتج فيه عديد المؤلفات ولا نبالغ إذا اعتبرنا أن هذا المجال من البحث كان حاضرا في جل مؤلفاته وأعماله العلمية، فظهر في كتبه في العقيدة وعلم الكلام وفي كتبه اللغوية وفي تفاسيره، وفي سائر العلوم الشرعية التي كتب فيها.

فنجد البحث العقدي حاضرا بمسائله وقضاياه في معظم ما كَتَبَ، سواء ما كان مباشرا في الموضوع أم غير مباشر، فلا يخلو أحد كتبه أو مراسلاته من مسألة عقديّة، فنجدها في مؤلفاته في اللغة، والبلاغة والتجويد، وهكذا سائر أعماله.

فقد كان للعقيدة ومسائلها النصيب الأوفر من جهوده العلمية، لذا أصبح من الضروري الوقوف على منهجه في الموضوع، وتبيان مواقفه وخصائصه التي تميز بها وهو يبحث قضايا العقيدة الإسلامية، وتظهر أهمية هذا البحث من حيث كون البحث العقدي من أبرز المجالات البحثية في الفكر الإسلامي لما لها من صلة وثيقة بصياغة الشخصية الإسلامية، ومن جانب آخر فإن العصر الذي وجد في الشيخ والظروف التي عاشها في ظل الاستعمار الفرنسي جعلته يواكب الأحداث ويتعامل معها وفق مرجعيته الدينية والعقدية، إضافة إلى الأوضاع الاجتماعية والثقافية التي عاشها المجتمع الجزائري التي استدعت استنهاض الهمم وإصلاح الأوضاع وفق التراث الفكري الذي ينتمي إليه المجتمع، وهو الذي انتدب نفسه لهذه المهمة وأبلى فيها بلاء حسنا.

أسباب الاهتمام بالبحث العقدي:

هذه الغزارة في التأليف وفي الاهتمام بالعقيدة، تدلّنا بوضوح على المكانة التي أولاها الشيخ اطفيَّش للعقيدة الإسلاميّة، خاصّة وأنه جاء في ظروف كان الناس فيها في حاجة ملّحة إلى من ينير لهم السبيل، ويأخذ بأيديهم، ويميّز بين الحقّ وما داخله من الخرافات والتقاليد البعيدة عن روح الإيمان الخالص؛ فهذا أهمّ سبب ودافع لدى الشيخ للاهتمام بالبحث العقديّ، إضافة إلى ما يخصّ المذهب الإباضيّ وحاجة أهله -في عصر الشيخ - إلى من يؤلّف ويدرس المسائل العقديّة وفق الأوضاع الجديدة، فاستجاب إلى هذه الحاجة بالتأليف فيما يَخُصُّ العقيدة مباشرة؛ أو في غيرها من الميادين؛ وظهر ذلك خاصّة في بداية عهده بالتأليف؛ كما يدلّ على هذا تفسيره «هميان الزاد إلى دار المعاد» الذي ألفه في بداية عهده بالتأليف، وغيره من المؤلفات. وليس الشيخ اطفيَّش وحيدا بين الإباضيّة في هذا المجال فأكثر آثارهم إنمّا كانت في العقيدة والفقه، كما أنّ المذهب من أساسه مذهب عقديّ قبل كلّ شيء، لذلك اهتمّ أصحابه بهذا الجانب وكثرت أعمالهم فيه.

والذي يهمّنا من أعماله ـ وقبل الحديث عن منهجه ـ ما كان خاصّا بالعقيدة أو غالبا فيه، لذا نتتبع قائمة مؤلّفاته حسب نوع التأليف.

ا - المؤلفات الذاتية

1 - الحُجَّة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد: وهو نموذج للمتون التي تؤلّف موجزة حتّى يحفظها التلاميذ والعامّة، تقتصر على أصول العقيدة تكاد تخلو من الاستدلال، وهو متن يشبه كتاب الشيخ عامر

الشمّاخي[8] المسمّى «متن الديانات» إلاّ أنّ الشيخ اطفيَّش عوّض بعبارة: «ندين بـ...» المتردّدة في «متن الديانات» عبارة «لا إلاه إلا الله الحمد لله الذي...» فهو يردّدها كلّ مرّة ليذكر بعدها الصفة من صفات الله تعالى.

والـمتن كلّـه في التـوحيد، وما يجب تنزيه الله تعالى عنه، وتسليم الأمر إليه؛ من ذلك قوله:
«لا إله إلا الله الحمد لله الذي تنزَّه عن حلول المعاني والآفات. لاإله إِلاَّ الله الحمد لله الذي لا يزداد ولا ينقص ولا يتغيّر..»[9].

2- شامل الأصل والفرع: جمع فيه الشيخ بين مسائل العقيدة والفقه وأصوله، على طريقة من سبقوه من الإباضيّة، ومن أهمّ المسائل الواردة في الكتاب[10]: قيام الحجة، ومفهوم الإيمان، والإيمان بالملائكة، والولاية والبراءة.

3 - «الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»: وهو مؤلف تـتـبّـع الشيخ فيه أسماء الله تعالى الحسنى بالشرح والتفسير، وأشار في ثنايا الكتاب إلى مباحث الصفات ومصدرها، وذاتـيّـتـها وغير ذلك، واهتم بالجانب العملي والتنبيه على أثر هذه الأسماء على السلوك، والارتباط بها، وكيف يستطيع المسلم أن يتخلق بمعاني الأسماء الحسنى.

ب - المختصرات

1- الذهب الخالص: اختصر فيه الشيخ ما جاء في كتاب «قواعد الإسلام»

8- عامر بن علي الشماخي: من علماء القرن الثامن توفي سنة 792ه /1390م، اشتغل بالتدريس له مؤلفات منها الإيضاح: انظر: جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، نشر الجمعية، غرداية سنة 1420ه/1999م، ترجمة رقم، 529.

9- أطفيش، الحجة في البيان المحجة: طبع قديم.د.م. دت: 38

10 - أطفيش، شامل الأصل والفرع: 80-1/02.

للجيطاليّ[11]، وحاشيته لأبي عبد الله محمد بن أبي ستة[12]، واتّبع ترتيب الأصل نفسه، فكانت الأبواب الأولى حول العقيدة، وقد شغلت جانبا مهمّا من الكتاب[13] وبأسلوب مركّز مختصر جدّا، شمل أغلب فصول العقيدة، مع توسّع في موضوع الولاية والبراءة، ولكنّه ترك بحث الإمامة، ولم يذكرها إلاّ عرضا.

و«الذهب الخالص» من أهمّ المصادر عن فكر الشيخ لأنّه كتبه في صغره ثمّ زاد عليه ونقّحه لما تقدّم به العمر[14].

2- جامع الوضع والحاشية: وهو شبيه بكتاب «الذهب الخالص» في منهجه وترتيب مسائله، ولكنّه أكثر اختصارا واقتضابا[15]، أصله «كتاب الوضع» لأبي زكرياء يحي بن الخير الجَنَّاوَنِيِّ[16] وحاشيته لأبي ستة.

ج - التفسير والشروح

1- التفاسير: وهي ثلاثة: «هميان الزاد» و«داعي العمل ليوم الأمل» و«تيسير التفسير»؛ والتفسير من أهمِّ مظانِّ الآراء العقديّة لأَنَّ القرآن الكريم مصدر العقيدة الإسلاميّة، ومنه استمداد أدلتها، فلا يعدو التفسير أن يكون موضّحا لهذا الدليل وموجّها له [17]. وقد اتَّخَذَ الشيخ اطفيَّش التفسير وسيلة لبيان العقيدة، لكنَّ تفاسيره تختلف في ذلك، فأهمّها تفسيره

11- إسماعيل بن موسى الجيطالي: من علماء نفوسة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري. له مؤلفات منها: «قواعد الإسلام» «قناطر الخيرات». انظر: معجم أعلام الإباضية. ترجمة رقم 110.

12- أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي ستة: من علماء القرن الحادي عشر(1088-1022ه / 1679-1614م) اشتهر بلقب المحشّي لكثرة حواشيه على الكتب أشرف على التدريس بجربة وتولى القضاء. انظر: معجم أعلام الإباضية. ترجمة رقم 841.

13- أطفيش. الذهب الخالص: 80-1.

14- أطفيش. كشف الكرب:1/06.

15- أطفيش. جامع الوضع والحاشية: 70-1.

16- أبو زكرياء يحي بن الخير الجناوي: من علماء نفوسة(ليبيا) في القرن الخامس الهجري/ 11م: له عدة مؤلفات. انظر: معجم أعلام الإباضية. ترجمة رقم 993.

17- يحي بوتردين: الشيخ أطفيش ومذهبه في التفسير: 288.

الأوّل «الهميان» الذي بسط فيه كثيرا من آرائه، ودافع عنها، واستطرد كثيرا مثلما استطرد في مسائل العلوم الأخرى المتصلة بالتفسير.

وكذا في تفسيره الثاني «داعي العمل ليوم الأمل»، إلا أن الذي وصل إلينا منه جزء يسير لم يتعد تفسير الجزء الأخير من الربع الرابع من القرآن الكريم، ومع ذلك نجد فيه اهتماما بالبحث العقدي أيضا.

وفي التفسير الثالث «التيسير» وهو آخر تفاسيره يعود الشيخ إلى البحث العقدي بنفَس جديد وباستفاضة لكن تميزت بعمق المباحث والاستفادة من سابق أعماله وظهر جليا على هذا التفسير تقدم البحث عند الشيخ، فكان إذا وصل إلى آية فيها إشارة إلى مسألة من الاعتقاد توقّف عندها، واستفاض أحيانا في توضيحها والاستشهاد بما يماثلها من النصوص.

2- شرح عقيدة التوحيد: متن الكتاب وأصله لأبي حفص عمرو بن جُمَيْع[18]، وهو الذي نقله من البربريّة إلى العربيّة وليس بمتن طويل، لكن الشيخ اطفيَّش توسّع كثيرا في شرحه، واستطرد في الاستشهاد بالقرآن والسنّة، وغيرهما من كتب التاريخ، ولم يعد كتابا خاصّا بالعقيدة بل وردت فيه فصول في مسائل فقهية؛ لأَنَّ المتن يُلقّن للمبتدئ حتّى يعرف أمر دينه، ويعرف ما يجب عليه علما وعملا، فتضمّن لذلك مسائل فقهيّة إلى جانب الأصول العقديّة.

3- شرح كتاب أصول الدين: وأصل الكتاب «أصول الدين» للشيخ تيبغورين[19]، يتكون من جزئين الأول في أصول الدين وهي الأصول

18- أبو حفص عمرو بن جميع: من علماء القرن السابع الهجري/13م بالمغرب، انظر معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 686.

19- تيبغورين بن عيسى الملشوطي: من علماء الإباضية بالمغرب(ملشوطة) في النصف الأول من القرن 6هـ/12م ينسب إليه كتاب الجهالات، انظر: معجم أعلام الإباضية، ترجمة رقم 221.

العشرة عند الإباضية، ثم الجزء الثاني وفيه مسائل كلامية متفرعة عن الأصول العشرة، وقد شرح فيه الشيخ اطفيش أصول الاختلاف الكلاميّة، واتَّبع فيه منهجا كلاميًّا مبنيًّا على الاحتجاج وردّ الاعتراضات والاستدلال على الآراء.

4- **شرح الدعائم المختصر:** كتاب الدعائم مجموع منظومات في العقيدة والفقه، للشاعر العماني أحمد بن النضر[20]، وقد تضمن قصائد في التوحيد، وقيام الحجّة، والاستطاعة، وقضية خلق القرآن[21]. وقد اهتم الشيخ اطفيَّش في هذا الكتاب بالجانب الكلامي واللغويّ خاصّة؛ ونفى نسبة قصيدة الردّ على من يقول بخلق القرآن إلى ابن النضر معتمدا على نقد أسلوبها، ومضمونها الذي لا يتّفق مع عقيدة ابن النضر[22].

5 - **شرح لامية ابن النضر:** وتسمَّى أيضا بقصيدة الولاية والبراءة، إلاّ أنّ الشيخ اطفيَّش شرحها شرحا تاريخيّا أكثر منه عقديّا، ووقف طويلا في بعض القضايا خاصّة في الإمامة وشروطها.

6 - **فتح الله:** شرح شرح مختصر العدل والإنصاف: وهو مؤلّف في أصول الفقه وردت فيه فصول لقضايا عقديّة خاصّة في الوحي والرسل وأفعال العباد، شرحها الشيخ مثل غيرها من القضايا الورادة في الكتاب، وأصله كتاب شرح مختصر العدل والإنصاف أصله للشيخ أحمد بن سعيد الشماخي الذي اختصر كتاب العدل والإنصاف وشرحه.

7 - **شرح كتاب النيل وشفاء العليل:** وهو كتاب فقه، وردت أثناءه

20- أحمد بن النضر بن سليمان: عالم عماني شاعر عاش في القرن الخامس الهجري. انظر: ابن النضر: ديوان الدعائم، المطبعة العمومية، دمشق، 1966م: 9-4.

21- أطفيش، شرح الدعائم المختصر: 1/1 - 258.

22-أطفيش، شرح الدعائم: 1/225، 229 ، 232

مسائل عقديّة، خاصّةً منها: الإمامةُ، والأمر والنهي[23]، لأنـّها وإن كانت من أصول الدين لكن تطبيقاتها ترجع إلى الفقه، وكذلك كتاب الأفعال المنجية من المهلكة في آخر شرح النيل قد حوى مسائل فقه القلوب والاعتقاد والأخلاق وهو آخر كتاب فيه.

د - الحواشي

1 - حاشية الموجز: وهو كتاب في علم الكلام، تضمن مسائل العقيدة، لكن لم نطلع سوى على حاشية الجزء الثاني منه، لأنّ حاشية الجزء الأَوَّل لم يبق منها سوى بضع ورقات.

2 - حاشية القناطر: والموجود منها يصل إلى بعض من حاشية قنطرة الصلاة، وهي مهمّة من حيث احتـواؤها على آراء الشيخ اطفيَّش في موضوع الإيمان خاصّة.

هـ - التـقريرات

1 - تقريرات على حاشية الديانات للسَّدْوِيكْشِي[24] وتـتمـتّـها للمصعبي[25]: وهي من إملاء الشيخ وكتابة تلميذه أبي اليقطان إبراهيم، وقد تدخّل التلميذ بتـوضيحات أثناء ذلك ممّا جعل معرفة كلام الشيخ وتمييزه من توضيحات أبي اليقظان أمرا صعبا، وهذه التـقريرات جاءت كلّها في العقيدة تبعا للمتن.

و - الردود

1- البرهان الجليّ في الردّ على الجربيّ: وموضوع هذا الردّ جواز

23- أطفيش. شرح النيل: 14/ 265 - 804.

24- أبو عبد الله محمد بن سعيد السدويكشي: نسبة إلى سدويكش بجربة. ترأس فيها مجلس العزابة. ابتدأ تأليف حاشية الديانات ولم يتمّها. توفي بعد: 1068ه / 1658م. معجم أعلام الإباضية. ترجمة رقم 586.

25- يوسف بن محمد المصعبي أصله من مليكة بوادي ميزاب أقام بجربة مع والده له أعمال في الجانب الإجتماعي والسياسي والعلمي. وتوفي سنة 1188ه/1774م. انظر معجم أعلام الإباضية. ترجمة رقم 1096.

رؤية الجنّ، والاستدلال على ذلك، وعلى أنّ رؤية الجنّ ممكنة تخيّلا أو حقيقة، وهو ردّ على من أخذ برأي الإمام الشافعيّ في منع رؤية الجنّ.

2 - عدم الرؤية وإدحاض مذهب أهل الفرية: وهذه الرسالة من أوائل مؤلّفاته[26]، وتظهر فيها نزعة الجدل حادّة، وهي خاصّة بالردّ على من خالفه في إنكار رؤية الله تعالى.

3 - إزالة الاعتراض عن محقّي آل إباض: وهذا الردّ أخفّ ردوده في الأسلوب، تغلب عليه صبغة التعريف بالمذهب الإباضيّ، وشرح مبادئه وأصوله.

4- الردّ على العقبي: وهو في معظمه سرد تاريخيّ أكثر ممّا هو بحث عقديّ، وفيه يثبت الشيخ اطفيَّش وجود الإباضيّة مجتمعا ومذهبا ويدافع عنهم، ويردّ ما اتّهمهم به العقبي[27]، ونسبه إليهم من الشبه والأباطيل.

5 - الردّ على الصفريّة والأزارقة: ركّز الشيخ في هذا الردّ على إنكار ما يعرف عن الأزارقة من الحكم بشرك العاصي لمجرّد عصيانه، ووجوب الهجرة بعد الفتح، ذاكرا الأدلّة على ذلك.

6 - جواب أهل زوارة: وهو جواب على رسالة من أهل زوارة[28] طلبوا فيها من الشيخ أن يراسلهم ولا يقطع صلته بهم كما يتّصل بغيرهم، وأن يردّ على بعض الأقوال المنسوبة خطأ إلى الإباضيّة عقيدة أو فقها، فأجابهم إلى ذلك.

هذه هي الآثار التي تناول فيها الشيخ اطفيَّش مباحث العقيدة، وبسط في ثناياها آراءه؛ ومنهج التأليف فيها متقارب متشابه، فهو في الغالب لا يقدّم للكتاب بل يدخل في الموضوع مباشرة، ولا يذكر منهج التأليف إلاّ

26- أطفيش. عدم الرؤية وإدحاض م=هب أهل الفرية: (خ) ضمن مجموع رسائل مكتبة القطب (أ.ز 6): 99-89.
27- حسب هذا الرد. يظهر أن «العقبي» رجل من عامّة الناس ولم يكن علما مشهورا.
28- زوارة: مدينة ساحلية في الشمال الغربي من ليبيا.

قليلا جدّا، وإذا كان لهذا من سبب، فهو في نظرنا راجع إلى كون الشيخ يؤلّف كتبه ليقرّرها على تلاميذه، خاصّة الشروح منها والحواشي، فلم يكن له متّسع ومجال للتنقيح إلاّ قليلا، كما كانت تغلب على مؤلفاته نزعة الاهتمام باللغة والبلاغة إلى حدّ الإفراط أحيانا، كما هو الحال في كتابه «شرح الدعائم المختصر».

وليس في هذا التراث العقديّ من المؤلفات الذاتيّة سوى كتابين هما: «الحجة في بيان المحجة»، و«شامل الأصل والفرع»؛ لذا لا نوافق من قال: إنّ الشيخ اطفيَّش لم يؤلّف كتابا مستقلا في العقيدة[29] لأنّ الواقع خلاف هذا، ولكن أيضا لم يكن جهده كلّه في المؤلفات الذاتيّة في العقيدة[30]؛ لأنّ أغلب ما وجدناه كانت مؤلفات تابعة لمتون سابقة إمّا شروح أو حواش، وكانت نزعة الشرح والتكرار طاغية على تراثه، فنقص التجديد لديه من حيث المنهج، وترتيب المسائل والموضوعات؛ ولا يعني هذا الانتقاص من أهميّة هذا التراث وهذا الجهد، لأنّ له ميزات أخر في جوانب متعدّدة؛ ولمجيء الشيخ متأخرا في الزمن تمكّن من الاطلاع على آراء من سبقه من الإباضيّة وغيرهم، فكان له فضل جمع هذه الآراء، والمقارنة بينها ونقدها، وبناء آراء جديدة ابتعدت عن مجرّد التقليد والتكرار، وكل ذلك في منهج عرض واستدلال.

ثانيا ـ منهج الشيخ اطفيش في البحث العقدي والاستدلال

1- منهج عرض المسائل وخصائصه

أوّل ما يعترض سبيلنا في ترتيب مسائل العقيدة عند الشيخ اطفيَّش هو عدم التمكّن من نسبة منهج خاصّ بالشيخ في الموضوع؛ لأنّ ما

29- أعوشت بكير: قطب الأئمة: 130.

30- الجعبيري: البعد الحضاري: 1/187

أنتجه من المؤلفات غالبه كان تبعا لمؤلفين سابقين، فهو يشرح أو يضع الحواشي أو يختصر على منهجهم وطريقتهم في الترتيب، وقد وجدنا له مؤلَفَيْن في العقيدة ذاتيّين خاصّين به، لكن لم نجد فيهما كلّ مباحث الاعتقاد مستوفاة، لهذا نعرّف بمنهجه وطريقته في كلّ نوع من التأليف كما يلي:

ا ـ منهجه في متن: «الحجّة في بيان المحجّة»: فهو متن خاصّ بالتـوحيد فقط، تعرّض فيه الشيخ إلى إقرار وحدانية الله تعالى وألوهيته وسرد صفاته الواجبة في حقّه، والمستحيلة عنه، وجسد فيه شمولية كلمة الشهادة واعتبار الواجب الأول هو التوحيد، وأنه ينتظم كل الاعتقاد، وكل أجزاء الإيمان مرجعها إلى توحيد الله تعالى، مثل القضاء والقدر، الذي ربطه مباشرة بصفات الله تعالى، لبيان قدرة الله تعالى، ووجوب الاستسلام لأمره وقضائه؛ وجاء المتن مختصرا جدّا خاليا من الاستدلال، لأنه حافظ فيه على خصائص المتون في الاختصار والاقتصار على الضروري، وعلى تلقين المكلف ما يجب عليه، من غير إثقال عليه، ولا تشويش على ذهنه، فالمتون عادة توجه إلى المبتدئين الذين يتلقون المهمات ومبادئ العلم.

ب ـ منهجه في «شامل الأصل والفرع»: وهذا الكتاب لم يكن خاصّا بالعقيدة، ولا شاملا جامعا لكلّ مسائلها، فقد جمع فيه الشيخ بين العقيدة وقضايا أصول الفقه؛ إضافة إلى بعض الآداب والأخلاق، كما أنـّها لم تكن مرتّبة خاصّة في الجزء الأول منه الذي جمع فيه بين ما سبق؛ ونجد من مسائل العقيدة في الكتاب الأوّل: الإيمان والإسلام واليقين والكفر، ثمّ الإيمان بالملائكة والجنّ والخاطر، وفي الكتاب الثاني منه نجد ثلاثة أبواب من العقيدة هي: باب في الولاية والبراءة والوقوف، ثمّ باب الذنوب والتوبة منها، ثمّ باب في البعث والدنيا والآخرة.

والواقع أن الشيخ في هذا الكتاب يريد أن يجسد التكامل بين الشريعة والعقيدة، ويقضي على الفصل الموروث بينهما، فكان الكتاب جامعا لأحكام الاعتقاد والسلوك والأحكام الفقهية العملية التعبدية والعلاقات بين الناس، وإن لم يكتمل فإنه يتيح تصور أهميته من خلال الموجود منه.

ج ـ منهجه في باقي المؤلّفات: أمّا في المؤلفات الأخرى فقد كان الشيخ يتّبع من سبقه، ونجد في شروحه وحواشيه على هذه المؤلّفات طريقتين:

فالطريقة الأولى: هي تخصيص بعض المؤلّفات بالعقيدة، وفي الغالب تتّبع منهجا واحدا، تتدرّج فيه من مسائل التوحيد والصفات كرؤية الله تعالى وخلق القرآن، ثمّ مسائل الأسماء والأحكام، وأخيرا مصير الإنسان، وغالبا ما تقتصر هذه المؤلفات على مسألة مصير صاحب الكبيرة، لما فيها من الخلاف، فكان الشيخ يتناول ذلك بالشرح والتوضيح والتعليق، ونلاحظ أنّ هذا المنهج الكلاميّ يغفل أحيانا بعض الجوانب مثل الإيمان بالنبوة والإيمان بالملائكة، كما أنـّه يهتمّ بالردود والاعتراضات.

وأمَّا الطريقة الثانية: فهي طريقة الكتب التي تجمع بين العقيدة والفقه، وأهمّ كتب الشيخ اطفيَّش في ذلك كتابا: الذهب الخالص، وجامع الوضع والحاشية، فهما يبتدئان بقسم أوّل في العقيدة، ثمّ قسم ثان في الفقه، ويختتمان بالآداب والأخلاق، أمّا جانب العقيدة فهو مرتب عَلَى المنهج التالي، أَوَّلاً: مسائل التوحيد والإيمان بالله تعالى، وما يتعلق بالغيب، وفيه الصفات، والإيمان بالملائكة وبالجنة والنار والبعث والحساب، وما يتعلق بهما من أمور القيامة، ثُمَّ مسائل النبوة وعدد الأنبياء، فالإيمان

وأقسامه والكفر وأنواعه، مع بيان حكم المؤمن والمنافق والكافر ومصير كلّ واحد منهم، وأخيرا الولاية والبراءة والوقوف.

وهكذا يمكن القول: إن الشيخ اطفيَّش لم يجدّد في ترتيب مسائل العقيدة بل كان على منهج من سبقه.

2 - منهج الاستدلال عند الشيخ اطفيَّش

يمكننا الوقوف على منهج الاستدلال عند الشيخ اطفيَّش بتتبّع كيفيَّة تعامله مع مصادره في العقيدة خاصّة منها المصدران الأساسيّان: القرآن والسنة؛ ثمّ العقل؛ وبذلك نقف على مدى اعتماد الشيخ على هذه المصادر.

ا – الاستدلال بالقرآن والسنَّة:

يشير الشيخ اطفيش إلى المصدر الأول للعقيدة الإسلاميَّة، النصِّ القرآنيِّ والحديث النبويِّ الشريف، ثُمَّ بعدهما أقوال العلماء من السلف التي لا تخالف الكتاب والسنَّة، وهذا ما قال الشيخ اطفيَّش فيه: «واعلم أنَّ الحقَّ هو القرآن والسنّة، وما لم يخالفهما من الآثار، فمن قام بذلك فهو الجماعة والسواد الأعظم ولو كان واحدا؛ لأَنَّهُ نائب النبيء(صلى الله عليه وسلم) والصحابة والتابعين الذين اهتدوا وكلّ مهتد، ومن خالف ذلك فهو مبتدع ضالٌّ ولو كان جمهورا»[31].

فقد أكّد على أوَّليَّة الاعتماد على المصدر النقليِّ، وتقديمه على غيره، واستدلَّ على ذلك حين فسّر قوله تعالى: «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فيَ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» [الملك:10]، وقال:«والآية تدلُّ على أنَّ علم الديانة لا يدرك بغير التعلّم فلا بدَّ من إرشاد مرشد أَوَّلاً،

31- أطفيش. الهميان: 2/452.

فيسمع السامع ويفهم بعقله ما سمع»[32]. وثبت الشيخ على هذا الرأي ودافع عنه كثيرا في أعماله[33]؛ وهو أمر منطقيٌّ: فالكتاب والسنّة هما أساسا العقيدة والشريعة، فبهما يصحُّ الاعتقاد، ويحصل الإجماع.

واعتبار العقيدة أهمَّ ما جاء به الإسلام يفرض وضع مقاييس لقبول النصِّ المثبت لها، لأَنَّ من أسسها تضافر النصوص على إثباتها وأن تكون هذه النصوص واضحة في تقريرها، وأن يجمع المسلمون عليها[34] وقد تمثَّل هذا الاعتبار في اشتراط ما يجعل الدليل النقليّ قويّا في إثبات العقائد حين أخذه على ظاهره. ودلّت أعمال الشيخ اطفيَّش كمن سبقه على وجوب تقييد الدليل النقليِّ الذي يؤخذ على ظاهره دون إدخال احتمالات وترجيحات عليه؛ فهو يذكر ضابطين تكون بهما الأدلّة قطعية لا ظنّ فيها، وهما[35]:

الأَوَّل: وضوح الدليل: أو ما اصطلح على تسميته بالنص المحكم، وعرّفه الشيخ بقوله: «ما علّق حكمه بظاهره، وإن شئت فقل: ما تأويله تنزيله، فهو عند سماعه ولا يحتمل وجهين»[36]. فالمحكم لا يحتمل معانيَ مختلفة، ولهذا يصبح هو الأصل ويعتمد عليه في فهم ما غمض معناه، وبه يفسّر، وهو المقياس في معرفة ما لم يكن محكما وهذا سواء في أدلّة الكتاب أو السنّة[37].

والثاني: تواتر النصِّ: حتّى يكون قطعيَّ الثبوت، ممكن الاستدلال به،

32- أطفيش. داعي العمل: ظ:242.

33- أطفيش. جامع الوضع والحاشية ط قديمة 1306هـ .د.م: 66. 088 الذهب الخالص: 30. شرح أصول تيبغورين:333.

34- محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة: ط14 دار الشروق. بيروت 1987م: 9. 10.

35- أطفيش. الهميان: 6ق 1/313.

36- أطفيش. شامل الأصل والفرع: 1/48.

37- أطفيش. الهميان: 4/13.

لأنَّه يتعلّق بالعقيدة: كالإيمان بالله تعالى وتوحيده، ولا ريب أنّ القرآن الكريم يتّصف بهذه الميزة: فهو منقول بالتواتر الذي لا يضاهيه تواتر في نقل نصٍّ؛ وهو من أوجه إعجازه والله تعالى يقول عنه: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحِجر: 9].

وعندما نتمعّن في اشتراط هذا الضابط نجد الجدل واقعا في تطبيقه على نصوص الحديث؛ هل يكفي أن يكون الحديث صحيحا ولو غير متواتر حتى يحتجّ به؟

فقد اختلف في حديث الآحاد مثلا؛ إذ قال البعض بصحّة الاحتجاج به إذا كان صحيحا دون النظر إلى تواتره، وقال البعض الآخر بعدم الاحتجاج به، وجاء موقف الإباضيّة موافقا لمن اعتبر الآحاد في العقيدة ظنيَّ الدلالة لا يفيد يقينا ولا يثبت به الاعتقاد؛ وهذا ما وضّحه الشيخ السالميّ[38] في قوله: «إنّ مسائل الاعتقاد مبنية على اليقين، فنهينا عن اتباع الظنِّ فيها، ومسائل العمل غير مبنيّة على اليقين فقط؛ بل تكون تارة بالدليل القاطع وأخرى الظنيِّ [...] وخبر الآحاد لا يثمر اليقين وَإِنَّمَا يثمر الظنّ، فلا يجوز ترك ما يثمر العلم لأجل ما يثمر الظنّ»[39].

وإذا نظرنا إلى ما كتبه الشيخ اطفيَّش في هذه المسألة نجده لم يفصِّل القول فيها، واكتفى بالإشارة إلى ظنِّيَّة الآحاد قائلا: «والآحاد مظنونة»[40]. ولم يول مسألة الاحتجاج بحديث الآحاد أَهَمِّيَّة بالغة من

38- عبد الله بن حميد السالمي: من أعلام الإباضية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، الميلاديين، من عمان، عاصر الشيخ أطفيش وكانت بينهما مراسلات متعدّدة، وعاش ضريرا. له مؤلفات منها: "مشارق أنوار العقول" و "شرح طلعة الشمس" و "معارج الآمال"، توفي سنة 1332 هـ/1914م. انظر: السالمي: معارج الآمال على مدارج الكمال: تحقيق محمد محمود إسماعيل: مطابع سجل العرب عمان 1403 هـ/1983م: المجلّد الأوّل: المقدمة.

39- السالمي: شرح طلعة الشمس: المطبعة الشرقية، عمان 1401هـ/1981م: 2/19، 18، انظر في الإحتجاج بالآحاد: د.سهير رشاد: خبر الآحاد في السنة وأثره في الفقه الإسلامي: دار الشروق، بيروت، دت:23.

40- أطفيش، الذهب:309.

حيث المنهج؛ رغم أَنَّهُ كتب فى مصطلح الحديث وَلَكِنَّهُ كان يشير إلى ضعف الدليل لهذا الوصف فيه أثناء مناقشة المسائل العقديّة.

ولكنَّ منهج الشيخ اطفيَّش في تعامله مع الحديث النبويِّ لم يقتصر على دراسة السند وحده، بل اهْتَمَّ بدراسة متنه ومضمونه أكثر، فكان يرى أنَّ صحَّة الحديث أو ضعفه لا يتوقَّفان على صحَّة سنده وضعفه فقط، بل هناك ضابط آخر يدلُّنا على أنّ النصَّ من الوحي أوليس منه، وهذا الضابط هو المحكم من القرآن الكريم؛ لأَنَّ المفروض ألاَّ يتناقض ما يأتي حديثا مع ما في القرآن الكريم، فما كان موافقا للقرآن الكريم كان صحيحا وصالحا لأن يستدلَّ به إضافة إلى كونه صحيح السند.

أَمَّا إذا جاء الحديث مخالفا في ظاهره لما في محكم القرآن الكريم فإنّ الشيخ اطفيَّش يسلك معه المسلك التالي: إِمَّا أن يؤوّله بما يوافق القرآن الكريم إن كان يحتمل التأويل، وَإِمَّا أن يحكم بضعفه أو وضعه إذا كان لا يحتمل تأويلا بما يوافق القرآن أو كان صريح المناقضة له، ويعتبره نصّا غير صحيح ولا يصلح دليلا في العقيدة، وأغلب ما يظهر هذا المنهج في القضايا الخلافيَّة[41]، ولقد لخَّص الشيخ هذا المنهج في قوله: «والحديث الموافق للقرآن مقبول وكذا المجمع عليه، ويردّ ما خالفه لأَنَّهُ مكذوب فيه عنه (صلى الله عليه وسلّم) وبعض الأحاديث بعد صحّتها تحتمل التأويل»[42].

فهو كما نلاحظ لم يفرّق بين أنواع الحديث، فكلّها على درجة واحدة ما دام المرجع هو القرآن الكريم، ونتج عن هذا أَنَّ بعض الأحاديث مع

41- أطفيش. الجنة في وصف الجنّة: ط3 مطبعة أمون. مصر. نشر وزارة التراث. عمان: 1405هـ/1985م: 75. شامل الأصل والفرع: 1/15. يحي بوتردين: الشيخ أطفيش ومذهبه في التفسير: 281.
42- أطفيش. شامل الأصل والفرع:1/09.

صحتها سندا عند المحدثين ينزّلها منزلة المتشابه، أي يوجب تأويلها بما يوافق محكم القرآن.

وقد كان الشيخ اطفيش أحد أعلام مدرسة التأويل بانتمائه إلى المذهب الإباضي، وبما سلكه من طرق في تفسير النص والمصدر الشرعي أثناء استدلاله على الأصول الإيمانية، وتفسيره القرآن الكريم؛ ويمكن أن نتعرف على منهجه في الموضوع من خلال بحث وتحليل بعض أعماله التي تناول فيها النص القرآني خاصة بالتأويل.

وتأتي صعوبة تناول موضوع التأويل مما أحيط به من أفعال وردود أفعال، حجبت الوصول إلى منطقة الوسط، والوقوف على التعامل السليم مع القضية، فنُسب إلى منهج التأويل بهذا السبب البعد عن الحقيقة أو تجاهلها ومصادمتها، فأضحى كأنه منهج بعيد عن روح النص القرآني، بل يأتي ضده.

هذه المواقف التي ما زالت تسوغ إعادة البحث وتستدعي التقصي من خلال الدراسة إن كان المؤلون جميعا ينتهون إلى نتائج متماثلة، وبالتالي إن كانوا جميعا يجانبون الصواب، ويبعدون بالنص عن المقصود الشرعي منه.

فمن الجانب المنهجي، كثيرا ما بقي مثل هذا البحث في موقع الدفاع والمرافعة ورد التهم، والذي يفترض فيه أن التأويل يقدم حلولا ومخرجا للفكر الإسلامي مما يعاني منه، ويخرجه من ربقة الإبقاء على أفكار بعيدة عن الانشغال الحقيقي بمهمات قضايا الأمة.

ولعل الدراسات المتأنية تمكن من هذا عندما تبتعد عن التحيز وتستسلم للحقيقة العلمية.

وفي هذا الإطار نحاول دراسة جهد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش وموقفه في الموضوع، فنرى كيف تعامل الشيخ اطفيش مع النص الذي تناوله بالشرح، وما مدى اتباعه لتأويل النص، وهل يصدق عليه فعلا ما ينسب إلى أمثاله من المؤولين.

أولا تجدر الإشارة إلى أنه مع هذه النزعة في اشتراط التواتر والقطعية في الثبوت والدلالة في الاستدلال العقدي، فإن المفترض ألا يكون للأحاديث نصيب في البحث العقدي عند الشيخ ومن يرى رأيه، باعتبار أن المقطوع بتواتره نصا والقطعي دلالة ينحصر في بعض آي القرآن الكريم، وقليل من الحديث الشريف، ولكن الواقع غير ذلك، فقد أكثر الشيخ اطفيش من إيراد الأحاديث حتى زادت على المائتين في أحد كتبه وهو «شرح كتاب أصول الدين»، ومثلها في كتابه شرح «عقيدة التوحيد»، وغيرهما[43]، على ما في هذه الأحاديث من اختلاف في الدرجة، وعدم استيفائها شرط التواتر؛ فهو لم يترك الاستدلال من الحديث، ولكن لم يكن اعتماده عليه إلاَّ من قبيل الاستئناس، وليس من حيث التأصيل والإثبات.

فقد كانت طريقته في التعامل مع الحديث تقتضي أن مستنده في إثبات الأصل العقدي لا يستفاد إلاَّ من الدليل القرآني الظاهر المعنى القطعي الدلالة، ومن السنة المتواترة.

والاستناد إلى الحديث في البحث العقدي عند الشيخ اطفيش يتجلى في صورتين:

43- أطفيش، شرح كتاب أصول الدين، تحقيق مصطفى وينتن، ضمن أطروحة دكتوراه في قسم العقيدة ومقارنة الأديان، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2006م، ج2، ص 290-285، شرح عقيدة التوحيد، تحقيق مصطفى وينتن، نشر جمعية التراث، القرارة غرداية، 1422هـ/2001، ص 683-673.

الأولى: يكون تبعا للنص القرآني مفسرا وشارحا، ومفصلا، ومقيدا، وهذا أغلب الاستدلال في بحثه العقدي، وأكثره، مثل التوحيد والأسماء الحسنى، ومبحث الإيمان، والقضاء والقدر، ....

الثانية: أن يكون مصدرا مقررا لأحد مبادئ العقيدة عند عدم وجود النص القرآني المباشر في الموضوع، وأغلب ما كان هذا في أمور الغيب مثل: تقريرالحياة في البرزخ، ومادية الميزان، والحساب، والصراط ....[44]

وهذا يدل على أن مرتبة العقل في البحث العقدي لدى الشيخ تأتي بعد النقل، فلم يكن يأتني تأتيا لا يتخذ النص على ظاهره، ولا تاركا له، بل إن دليل السمع أولى في الاستدلال، لأن العقل لا ينشئ المبدأ العقدي من عنده وبخاصة في التفاصيل العقدية، والتعبدية، فالعقل يكفي في مجرد إدراك وجود الله، لكن لا يزيد فوق ذلك إلى إدراك صفاته تعالى، ومراده في التكاليف، فلا يعتد بالعقل في هذا إذا لم يسنده دليل السمع[45]، وما بحثه في إثبات وجوب الإمامة دليل على استناده إلى السمع، إذ رد القول إنها وجبت عقلا لا سمعا، وبين أنها وجبت نقلا قبل العقل، مستدلا في هذا بفعل الرسول (صلى الله عليه وسلم)[46].

وإن كان هذا المنحى لم يجعل الشيخ مفوضا بالمعنى الذي يصطلح عليه لدى من يقفون عند حدود النص، فإذا فوض كان هذا عند نهاية البحث في الموضوع بما يفيد أن العقل البشري لا يمكنه أن يلج مجالا

44- مصطفى وينتن، آراء الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش العقدية، ص 184-173، 420-410.

45- ينظر لمزيد تفصيل عن موقف الشيخ في الموضوع: أطفيش، شرح الدعائم (شرح بعض منظومات ابن النظر العماني المسماة الدعائم) : طبعة قديمة، الجزائر، 1325هـ ج1 ص 107، 132، جامع الوضع والحاشية، طبعة قديمة 1306هـ. دمص 08، 66، وينتن، آراء الشيخ أطفيش العقدية، ص 90-89.

46- ينظر : أطفيش، شرح أصول الدين، ص 617.

معينا من العلم الإلهي؛ ومن هذا القبيل بحثه مسألة فعل العبد ونسبة قدرته فيه مع قدرة الله تعالى وإرادته، ولما حاول فك هذا الإشكال بين نسبة الفعل إلى الله تعالى وبين نسبته إلى العبد، وبين أن يخلق الله تعالى فعل عبده ويأمره به ويحاسبه عليه وهو الذي قضى بوجوده؛ فقد انتهى فيه إلى القول إن البحث لن يفضي إلى نتيجة، وأن الأسلم والصحيح في الموضوع أن يترك الأمر لله تعالى، وقال:
«قوله: «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ»، ننتهي إلى هذه الآية ونسلّم الأمر، وذلك أنـَّا نعتقد أنـَّا غير مجبرين ولا مطبوعين على أفعالنا وتروكنا؛ لكن أفعالنا وتروكنا مخلوقة لله، وقصدنا إلى الفعل والترك وإرادتنا لهما وإتياننا لهما مخلوقات لله، فما بقي إلاَّ أن نقول: نحن مجبورون إذ لم يبق لنا ما نستقلّ به مع أنَّا نعتقد جزما أنَّا غير مجبرين وغير مطبوعين بدليل المدح والذمّ والأمر والنهي والثواب والعقاب وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأنّ الله لا يظلم الناس؛ فما بقي إلاَّ أن نسلّم أَنَّ الله لا يسئل عمّا يفعل ولو لم ندرك»[47].

وهذا بقدر ما يفيدنا في المعرفة بمنهج الشيخ في التعامل مع النص، ويجعلنا نصل إلى أن نسبته إلى منهج بعينه دون آخر لا تتيح التعرف الدقيق على منهجه في الاستدلال، فإنه لم يكن يتعامل مع كل الدلائل بالمنهج الموحد، ولا مع كل المواضيع والقضايا بطريقة ونسق واحد نمطي، بل كان الموضوع هو الموجه لاختيار المنهج الأصلح له.

وبهذا نسلم بل الواقع يدل على أن الشيخ انتهج التأويل مع النص، ولكن بحدود وضوابط تجعل التأويل منهجا ووسيلة للوصول إلى المراد

47- أطفيش: حاشية القناطر: مخطوط في مكتبة القطب (أ.و:5)، ج2/و. ظ: 04. وانظر: أطفيش: شرح الدعائم. ج1. ص 167. داعي العمل ليوم الأمل: مخطوط. نسخة منه في مكتبة القطب: (أ.ب:2)، و: 194.

من النص، أو الاقتراب منه، وتبعده مما ينسب إليه من مجرد كونه حكما بالأهواء، أو ابتعادا عن النص، وتغييرا له ولمعناه.

ب ـ ضوابط التأويل

المراد من التأويل تقديم تفسير للنص، وباعتبار هذا التفسير عملا بشريا فهو معرض لاختلاف وجهات النظر وبالتالي اختلاف النتائج ، فلم يعد من الممكن الوصول بيسر إلى المقصود من النص، وكذا الاتفاق على معنى واحد، لكن لايترك الأمر على إطلاقه، بل يتحرز من إشكال الغلو في التأويل بضوابط تمنعه وتحصنه، نذكر منها:

1 ـ تحري الوسطية :

يرتبط التأويل أولا بالنص المتوهم منه التشبيه، فاختلاف طبيعة النص والدليل الشرعي تفرض على العالم أن يتخذ موقفا من حيث اعتماد كل نص مهما كانت دلالته، أو اعتبار منهج غير الأخذ بالظاهر وهو التأويل؛ ومع أن الشيخ اطفيش يذهب إلى التأويل باعتباره ضرورة مع النص المتوهم منه تشبيها[48] فإنه لم يجنح إليه على إطلاقه ولم يتسرع فيه ولم يوغل في التأويل، بل كان يتوخى التوسط فيه على المستوى الكمي والكيفي أيضا، وقال بشأنه إنه ينبغي التوسط في الموضوع، فلم يكن يرى أن الظاهر هو الأولى دائما، ولكن لم يكن يرى كذلك أن التأويل هو الحل الوحيد، وقال: «ولا يحسن تأويل الكثير بلا حاجة»[49]، فلا يلجأ إلى التأويل إلاَّ تحت تأثير الحاجة.

48- أطفيش، تيسير التفسير، تحقيق الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1423هـ/2003م، ج15 ص201، وينتن، آرىء الشيخ أطفيش العقدية، ص97-93، حاجي عبد العزيز، تفسير آيات العقيدة استعراض شامل لمذاهب المفسرين في العقيدة، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1424هـ/2003م، ج2 ص 889، 890

49- أطفيش، شرح أصول الدين، ص 537.

وتظهر أهمية هذا الضابط من حيث تحرر العالم من نمطية الانتماء الفكري المذهبي، فلم يعد الشيخ اطفيش مجرد ناقل للأقوال بل كان يصحح التفاسير التي تمت من قبله، ويقف منها موقف الفاحص والممحص.

وكان رأيه وسطا في بعض المواضيع؛ مثل قضية تجسيد بعض مسائل اليوم الآخر وماديتها كالميزان والصراط والأعمال التي بحثها المتكلمون، واختلفوا بين الأخذ بظاهرها والتسليم بالنص على ما ورد، وبين النظر إلى المقصد من النص من حيث الجانب التربوي أو المجازي للتصوير وإبلاغ الغرض من هذه الجزئيات؛ ولم يكن الشيخ يراها أصولا يتوقف عندها كثيرا، وأن المعنيَين الحقيقي التجسيمي والمعنى المجازي التمثيلي في هذه المسائل الغيبية كلاهما يمكن أن يؤدي الغرض، وهو تقويم السلوك البشري، وإثبات علم الله تعالى بكل شيء بالنسبة إلى الوزن، ودقة ورهافة الثبات على الحق بالنسبة إلى الصراط، فلا حرج أن يكون الأمر على المجاز وعلى الحقيقة المتجسدة بالنسبة إلى هذه القضايا الغيبية من اليوم الآخر، لأن كلا التفسيرين يؤدي الغرض.

وبهذا الضابط كان الشيخ أقرب إلى التفويض منه إلى التأويل في بعض المسائل، وأقرب إلى التأويل أو مؤولا تاركا للظاهر في بعضها الآخر؛ وإذا أخذنا نموذجا مما درسناه عن استعمال التأويل، نجد أن الشيخ في استدلاله على نفي الرؤية كان أقرب إلى الأخذ بظواهر النصوص من المثبتين لها[50].

ومثل هذا المنهج سمح له أن يأخذ بالدليل من الحديث مع أنه يرى الحديث الآحاد لا يفيد اليقين، ولكن في مثل هذه المسائل يرى أن التفسير بالظاهر وبالتأويل يتساويان، فلا حرج في الإيمان بالمعنيين معا مادام

50- زينتن. آراء الشيخ أطفيش العقدية، ص 153.

هذا الإيمان يثمر أثرا سلوكيا ولا يتعارض مع توحيد الله تعالى ولا يقدح فيه.

وهذه الوسطية تمكن أيضا من تقريب وجهات النظر وتجاوز الخلاف الذي يؤدي إلى التنافر أو الاختلاف المذموم، ويفيد في الوصول إلى مجال الالتقاء الممكن بين المسلمين.

2 ـ مراعاة التنزيه:

إن تنزيه الله تعالى غاية كل مفسر، ومراعاته واجب لا خلاف فيه بين أهل العلم، فلا يفسر النص المتشابه إلاَّ بما يحقق التنزيه لله تعالى، وظهر هذا واضحا في تأويل الشيخ اطفيش لآيات الصفات[51]؛ وكل ما يتعلق بالأصول العقدية، حيث فسرها بمعاني تحقق تنزيه الله تعالى عن الشبه بالخلق، أو النقص تعالى الله عنه.

لقد كان من أثر هذا تأويل الصفات، واعتبار أنه لا فرق بينها وبين الذات وأن الله تعالى واحد وحدانية مطلقة، يتنزه عن الشبه بالخلق ولا يتصور فيه اختلاف ذات وصفة، وإن الصفات لا تكون إلاَّ أمرا اعتباريا في تصور الإنسان، ولا يمكن أن يجعل تصوراته ومعاييره ووسائله المعرفية قاضية على عالم الغيب الذي استأثر الله تعالى به.

فالواجب الاستسلام لهذا الغيب، استسلاما إلى تفسير النص بما ينسجم والتنزيه، ويتطلب هذا أن يكون التأويل مضبوطا ومقيدا بهذا التنزيه.

فالمطلوب من التأويل الوصول إلى التنزيه، باعتبار أن أخذ النص على ظاهره القريب وبالمعنى التجسيمي المادي قد يؤدي إلى إثارة

51- أطفيش. شرح أصول الدين. ص 324 ومابعدها.

الإشكال في التوحيد، ومن هذا الجانب يرى الشيخ اطفيش أن التأويل ضرورة تفرضها عقيدة التنزيه، وأن عدم التأويل أو الوقوف والقول بترك الكيفية لا يكفي في الجواب على التساؤلات والتشكيكات الواردة على النص بأخذه على ظاهره، فلا يغني؛ ولا فرق عنده بين من يأخذ بالظاهر ومن يقول نأخذ النص على ظاهره بلا تكييف، لما يوهمه هذا التفسير من التشبيه في القولين معا، والقول «بلا كيف» يشعر بوجود التشبيه في الواقع مع اختيار تركه بترك التأويل والتفسير وترك المعنى مبهما، والواجب تقديم إجابة كافية تنسجم مع التنزيه مقصدا شرعيا، وتفسيرا يمكن للعقل فهمه عند الوقوف على النص بما لا يدع مجالا للشك، ولا يثير الارتياب.

وفي هذا المجال يختلف أصحاب المذاهب أيهم أحسن تحقيقا للتوحيد، مع أنهم جميعا يؤمنون به ويدعون إليه، فلم يمنع هذا الشيخَ اطفيش أن يرى نفسه والإباضية وحدهم الذين حققوا التوحيد، بينما جانبه غيرهم ممن يأخذ بالظاهر أو يلتزم السكوت دون تأويل ولا تشبيه[52].

3 ـ الاستناد إلى الآيات المحكمات في التأويل:

المحكم هو الأصل، وبه يفسر النص المتوهم منه التشبيه، ويخرج منه إلى التنزيه، لذا تردد الاستشهاد كثيرا بآية سورة الشورى في قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى:11][53].

فكل آية من المتشابه تفسر على أساس نفي التشبيه بين الله تعالى وبين خلقه، ولو كان اللفظ متفقا في المبنى فينبغي أن يراعى الموضوع والمعني به، ويميز بين وصف الخالق ووصف المخلوق.

52- المصدر نفسه، ص 286،287.

53- المصدر نفسه، ص681، وشرح عقيدة التوحيد، ص 668.

فهذه الآية بالنسبة إلى الشيخ اطفيش والإباضية عموما هي الضابط والمرجع الأساس في أي تأويل، فمضمونها يقتضي أن يكون كل قول ورأي مستند إلى ضرورة المغايرة بين الخالق والمخلوق، ويحقق هذه المغايرة؛ ومن جانب آخر هي التي أتاحت الجنوح إلى التأويل تحقيقا لهذا المعنى المشار إليه.

فأي تأويل للنص أو تفسير ينبغي عند الشيخ أن يتقيد بنفي الشبيه، والتفسير الذي لا يحقق التنزيه أو يوهم التشبيه غير مقبول، وكان هذا أساس القول بنفي الرؤية عنده وعند الإباضية لملاحظة أن هذه الرؤية المنفية هي الرؤية البصرية المعهودة المعروفة لدى البشر بالعين وما تثبته من التشبيه والمثلية بين الله تعالى وبين العباد إذ لا مناص من ذلك.

لذا وجدنا الشيخ عندما يذكر تحديد المقصود من الرؤية عند بعض من يثبتونها على أنها رؤية لا تنقض هذا المبدأ ولا تعني الرؤية البصرية، وجدناه لم يمانع من اعتبارها أو القول إنه لا فرق بينها وبين قول الإباضية بنفيها. وأنه لا مانع من القول برؤية هي مزيد يقين وقال في هذا المعنى: «وأمّا الرؤية بالقلب بمعنى الإيقان به وازدياد اليقين بازدياد الدلائل فكلّنُا يقول به»[54] .

وقال أيضا عن قول الأشاعرة بنفي التكييف: «وإن قلتم نراه بلا كيفيّة، بمعنى: أنـا نعلم وجوده، فتالله ما ذلك إِلاَّ رجوع منكم إلى مذهبنا»[55]؛

54- أطفيش، حاشية القناطير، مخطوط بمكتبة القطب، ج2، و 15، انظر: أطفيش، هميان الزاد إلى دار الميعاد: ط1 المطبعة السلطانية زنجبار 1305 هـ، ج14، ص 490، الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: مطابع سجل العرب نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عمان: 1982م، ج6، ص 285، إزالة الإعتراض، ط2 المطبعة الشرقية ومكتبتها نشر وزارة التراث القومي والثقافة، عمان 1982م، ص003، وينتن، آراء الشيخ أطفيش، ص151.

55- أطفيش، عدم الرؤية وإدحاض مذهب أهل الفرية، مخطوط ضمن مجموع رسائل مكتبة القطب رقم(أ.ز.6)ص 25، وينتن، آراء الشيخ أطفيش، ص 152،153.

وإن كان موقفه من الرؤية القلبية ليس قبولا بها على معنى الإدراك ولكن على معنى اليقين.

4 ـ المحافظة على وحدة المعنى بين الأدلة:

فمصدر الوحي واحد ولا يمكن أن يتناقض مع نفسه وهو المنزه عن الباطل، كما وصفه الله تعالى: «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» [فصلت، 42]؛ وهذا يقتضي أن تكون الآية الواحدة مفسرة للأخرى وهكذا، فالقرآن يفسر بعضه بعضا، ولا يكون الخطأ الناتج عن التفسير سببا في توهم التناقض بين الأدلة، وهذا ما جعل الشيخ اطفيش يذكر للموضوع الواحد والقضية الواحدة ما ورد فيها من نصوص، بجمع الأدلة والآيات التي تأتي في مجال واحد، فإذا أراد تأويل آية استحضر ما يكون في مثل نصها، وفي معناها، ضمانا لهذه الوحدة بين الآيات، وللتفسير الموحد لها فلا يستخدم الدليل الواحد لمعنيين مختلفين، كما لا يستعمل الدليل في الموضوع الواحد بتفسيرين مختلفين، ولا تستعمل الكلمة الواحدة مرة على المجاز وأخرى على الحقيقة وهي في موضوع واحد.

5 ـ مراعاة اللغة العربية في التأويل:

نزل القرآن الكريم بلغة العرب، والله تعالى يخاطب الناس بما يفهمون، فاللغة هي الرافد الأول والوسيلة المثلى لفهم القرآن الكريم بعد الروايات المأثورة. فنجد الشيخ عندما يتعامل مع التأويل يحصره في الدلالة اللغوية ويشير إلى المعاني المختلفة للكلمة في اللغة العربية وينبه إلى المعنى الذي ينبغي أن يفسر به النص منضبطا في ذلك بضابط التنزيه في التعامل مع العقيدة.

فمثلا اليد والقبضة واليمين والأصابع ألفاظ استعملت في معان متقاربة، في مثل قوله تعالى:
«إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» [الفتح:10]، وقوله: **«وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ»** [الزمر: 67]
وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): **«إنّ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»**[56].

فهي تَدُلُّ ـ حسب رأي الشيخ اطفيَّش وبناء على منهجه ـ على الملك والقوّة؛ وينفرد بعضها بمعان أخرى كدلالة اليد على النعمة؛ وهذه المعاني عنده هي المقصود من النصوص، ولا يمكن أَنَّ تدلّ على المعنى التجسيمي التجسيدي الذي يُؤَدِّي إلى نسبة الجوارح إلى الله تعالى.

ويؤيد موقفه بأن ظاهر النص غير ممكن الوقوف عنده، إذ إن هذه الألفاظ نفسها لم تأت مفردة بل جاءت أحيانا بالتثنية وأحيانا بالجمع، فلا يعقل أَن تؤخذ على ظاهرها.

وبمثل هذا التأويل يمكن الخروج من إشكالات واردة بالجمع بين النصوص، مثل أخذ هذه المعاني مع قوله تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [القصص: 88]، فلا يمكن أخذ بعض الآي على الظاهر والآخر بالتأويل خارج الدلالة التجسيدية في هذه الحال، فالموضوع واحد والمجال التوحيد[57].

56- رواه مسلم بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلَّها بين...» انظر صحيح مسلم: تحقيق محَمَّد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث العربي ط2 بيروت 1972م: كتاب القدر باب تصرف الله تعالى في القلوب كيف يشاء رقم: 2654.

57-) اطفيش، شرح الدعائم: ج1، ص 8؛ الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان: طبعة قديمة 1304هـ، ص 67؛ الحجة في بيان المحجة في التوحيد بلا تقليد: طبع قديم. د. م، د.ت، ص 24.

ومثل كلمة «العين»: ـ في تفسير الشيخ ـ تعني الحفظ والعلم، ولا يمكن أن تفيد معنى الجارحة بالضرورة، والله تعالى منزّه عن ذلك، وقد جاءت أيضا مفردة وجمعا مِمَّا يدلّ على أَنَّهُ لا يقصد بها نسبة الجارحة إلى الله تعالى[58] كما في قوله (عزّ وجلّ):

«وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» [طه: 39-38]

وقوله أيضا: «وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا» [هود: 37].

وصفة الجَـنْب تفسر بمعنى الحقّ، فجنب الله حقّه[59]، ومجيئه وإتيانه ونزوله لا تعني الحركة الحقيقيّة لأن الحركة من خصائص المخلوق والأجسام، وتفسر بمعنى يليق بتنزيه الله تعالى، وبما تسعف به اللغة، مثل مجيء أمر الله تعالى، ونزول ملائكته أو رحمته أو آياته[60].

واستواءه على العرش يعني ملكه، والاستيلاء عليه، والانتهاء إليه، ولم يخلق شيئا فوقه، ويعني أيضا الغلبة، أي: خلقه إيّاه وقدرته عليه[61]؛ فلا يعني الاستواء الجلوس حقيقة، لما فيه من معاني النقص والعجز والاحتياج، فالله منزّه عن كلّ ذلك.

6- الاستفادة من المنطق: رغم تفضيل الشيخ اللغة على المنطق، فإنّه قد اشتغل به أيضا، ودرسه وكتب فيه مؤلَّفه «إيضاح المنطق في بلاد المشرق»؛ وكان مجال علمه الشرعيّ يفرض عليه بالضرورة الاهتمام بالمنطق، لكنّه اتَّخَذَ تجاهه موقفا خاصّا، فهو لا يرغب في فتح الباب واسعا للاشتغال بالمنطق، بل يشترط الاطلاع على علوم الشرع والمهارة

58-) المصدر نفسه.

59- اطفيش، الإمكان، ص 67؛ شرح الدعائم، ج 1، ص 8.

60-) المصدر نفسه؛ الحجة في بيان المحجة، ص 26.

61- المصدر نفسه، ص6؛ تيسير التفسير، ج4، ص 82؛ شرح الدعائم، ج1، ص37.

فيها قبل تعلّم المنطق، ويقول في ذلك: «الحكم الشرعيُّ جواز الاشتغال بعلم المنطق المذكور فيه زيغ الملحدين لمن تمهّر في علم القرآن والسنّة حتّى لا يزيغ في اعتقاده بمطالعة ما زاغوا به»[62].

وكما نرى فإنّ الشيخ لم يعتبر المنطق أداة مجرّدة بل جعله حاملا لأفكار فلاسفة اليونان، وما فيها مِمَّا يناقض العقيدة الإسلاميّة، فتخوّف من تسرّب هذه الأفكار إلى من تعلّم المنطق من المسلمين، لكنّ هذا الموقف لم يمنعه من الاستفادة من المنطق، واستعمله إلى أبعد الحدود، فهو مثلا يستدلُّ على وجود الله تعالى بمنهج المتكلمين المنطقيّين، وفي كُلِّ مسألة عقديّة نجد لديه أدلّة نقليّة وأخرى عقليّة تعتمد على الاستنتاج المنطقيِّ واستدلالاته، وقد اتَّخَذَ المنطق منهجا أساسيّا في شرح العقيدة السنوسيّة كما يقول ليذكر دقائق التوحيد ونفائسه[63].

7 ـ التأويل المعقول المانع من التناقض:

فوظيفة العقل في العقيدة فهم الدليل، والكشف عنه، وليس له أن يبني أصلا عقديا ويقضي بوجوب الأخذ به، ولا أن يفرض علما خارجا عن نطاق قدرته؛ والله تعالى يقول في بيان حدود علم الإنسان: **«وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا»** [الإسراء، 85]، ونهى عن القول بغير علم في قوله (عزّ وجلّ): **«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا»**،[الإسراء، 36].

وليس في هذا حجر على العقل بل هو ترشيد وتوجيه إلى أن يشتغل بما يصلح له، ولا يكون حكَما خارج مجال معرفته وحدودها، ولكن ينبغي ألا يعطل، ولا يهمل، فدوره التفسير ويقوم به في إطار الضوابط

62- اطفيش. إيضاح المنطق: 13.

63- اطفيش. شرح النيل: 1/47.

الشرعية التي تعصمه من تجاوز الحدود، وترحمه من تضييع الطاقة فيما لا طائل من ورائه.

وفي التأويل تظهر وظيفة العقل في اختيار التفسير الأنسب على مستوى ممارسة الشرح والبيان، وعلى مستوى الانسجام العام بين التأويلات الخاصة بالنصوص المتعددة فإن النظر العقلي يمكن من الحيلولة دون التناقض ويمنع من تقديم تفاسير متعددة غير متجانسة فيما بينها، أو مناقضة لنصوص محكمة.

ويمكن من خلال دراسة التأويل عند الشيخ اطفيش بناء تصور عن المنهج في البحث العقدي لديه، يظهر فيه أنه في العموم يحافظ على النص، ويستعمله بالمعنى المتبادر الأول ما دام هذا التفسير الظاهري لا يتعارض مع أساسيات العقيدة والتوحيد خصوصا، وعندما يكون المعنى الأول سببا في إثارة الإشكال ـ ويقصد هنا إشكال التعارض مع التنزيه ـ فإن الشيخ يتبع معه منهج التأويل مراعيا في ذلك هذه الضوابط التي تجعل التأويل لا يخرج بالنص من دائرة المقصد الشرعي منه.

وهنا نقف على نتيجة في النظر إلى أن التأويل الذي انتهجه الجمهور من علماء الكلام أنه لم يكن بالصورة النمطية التي تناقلتها بعض المراجع، ونسبته إلى القول بغير علم، أو إلى التفسير بالأهواء، أو إلى التعطيل أو إنكار ما جاء به الوحي.

فلا يمكن أن ينسب إلى التعطيل من يقدم تفسيرا لصفة من الصفات ليثبت اتصاف الله تعالى بها، كما لا يمكن وصم من يثبت صفة، كما هي في النص بالتجسيم لأنه يريد أن يُفهم العالمين أن الله تعالى مخالف لمخلوقاته ولو اجتمع معهم في اللفظ والمبنى دون المعنى والمؤدى اللغوي.

فإن أمثال هؤلاء من علماء الأمة لم يخرجوا بالنص الشرعي عن دائرة التفسير المعقول وإنما قصارى ما اجتهدوا فيه أن يقربوا النص الشرعي العقدي خاصة إلى الإدراك البشري، ويخاطبوا الإنسان بما يراد منه بلغته ولسانه عبر اللغة العربية، وبخطاب لم يخرج في دلالاته عن البيئة التي نزل فيها القرآن الكريم، واللغة التي تحدث بها الرسول (صلى الله عليه وسلم).

فكما أن التفويض كان أساسه محاولة الوفاء للنص في أضيق حدوده، بالهاجس نفسه الذي انطلق منه التأويل وهو التنزيه، وخشية الابتعاد عن روح النص، فإن التأويل أيضا يحاول الوفاء للنص وإبقائه في دائرة التنزيه، والوقوف في مواجهة الفهم الخاطئ الممكن بسبب التضييق عليه أو الابتعاد به إلى الرمزية والإشارية المستبعدة من المقصد الشرعي، وهذا ما أشار إليه الشيخ اطفيش عند نقده للتفسير الصوفي، وقال بشأنه: «وقد كنت ممارسا لعلم التصوُّف، ولا يخفى عليَّ مقاصدهم والحمد لله تعالى وأجيب عمّا أشكل وكرهته لأنّه يوهم تفسير القرآن بما هو خطأ، وكذا تفسير الحديث»[64].

هذه هي الضوابط التي جعلت عملية التأويل جهدا علميا، ومنهجا يسلكه العالم ليقول بعد استفراغ وسعه، ولا يكون ناشئا عن هوى متبع، ولا خارجا من الإطار والسياق الذي نزل فيه القرآن ونزل له.

هذه أساسيات المنهج في الاستدلال عند الشيخ اطفيش كما هي عند الإباضية، فهي لا تسلم إلى القول إن منهجهم ظاهري نصي تفويضي، كما لا تمكِّن من القول إنه عقلي تأويلي خالص، وهذا ما جعل الشيخ

64-) اطفيش. الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: طبع قديم دم 1326 هـ. ص 39.

اطفيش يقف مواقف تقربه من المعتزلة في بعض القضايا، ويقول فيها بمثل قولهم مثل الوعد والوعيد، والصفات وتصنيفها وعلاقتها بالذات؛ ومرة أخرى يقف مواقف تقربه من الأشاعرة، ويقول بقولهم مثل القول بالكسب والحسن والقبح الشرعيين، وإمكانية تجسيد بعض المعاني الغيبية المرتبطة باليوم الآخر، وبوجوب الإمامة بالسمع، ...

فنرى أنه من الصعوبة الجزم في حق منهجه بأنه طرف من أحد أطراف الثنائية المعهودة بين العقليين والنصيين، فلا يمكن أن نضع الشيخ اطفيش والإباضية في فريق دون آخر من فرق المسلمين ومذاهبهم في الاستدلال؛ والسبب في هذا كونهم لم يقفوا موقفا متطرفا من العقل إعمالا ولا إمهالا؛ فلم يلغوه بل أخذوا به لكن لم يكونوا معتزلة، وقيدوه ولم يهملوه ولم يكونوا نصيين ولا أشاعرة خلصا.

والدافع الأساسيُّ إلى هذا المنهج كما هو واضح في خطواته هو الحفاظ على التناسق والانسجام بين القرآن والسنّة، حَتـَّى لا تكون أدلّتهما متناقضة مع أَنـَّهَا متـَّحدة المصدر، إِلاَّ أَنـَّنـَا نلاحظ أنَّ الاقتصار على هذا المنهج مع أهمّيته أدّى إلى إهمال دراسة الأسانيد مع ما في هذه الدراسة من الأهمّية، كما أدّى إلى كثرة التأويل أحيانا ولو لغير داع، وأدّى أيضا إلى التسرّع في الحكم بوضع الحديث أو ضعفه أو احتمال ذلك.

هكذا كان منهج الشيخ اطفيـَّش في التعامل مع الدليل النقليِّ من الكتاب وَالسُّنـَّة، فهو يأخذه على ظاهره، ويلتزم بما فيه ما دام آية محكمة لا تحتمل إِلاَّ معناها الظاهريَّ، أو حديثا صحيحا موافقا لمحكم القرآن، ويسلّم بهذا النوع من الأَدِلَّة باعتبارها تحقَّق فيها شرط قطعيـَّة الدلالة وقطعيـَّة الثبوت، أَمـَّا إذا كان الدليل على غير هذا الوصف فإنّ طريقة التعامل معه تختلف، وذلك باستعمال العقل معها.

فهو ينتقد على منهج المفوّضين المسلّمين بظاهر النصّ الأخذ بظاهر النصوص المتشابهة من غير إعمال نظر، ولا إرجاع إلى المحكم سواء في الحديث أو في القرآن الكريم[65]. ويرى أنّ النصّ المتشابه واقع وموجود، وواضح أَنَّهُ يؤدّي بظاهره إلى التشبيه، ولكن لا يمكن تركه على الظاهر، والسكوت تجاهه، والميل إلى مجرّد التفويض، فيبقى السؤال:كيف نتعامل معه؟

فالإمساك عن تأويل المتشابه إلى ما يوافق المحكم في نظر الشيخ اطفيَّش جمود عن الحقّ مع ظهوره وموقف سلبيّ، لأنّه يمكن تأويله بما يوافق سائر النصوص المحكمة الأخرى الناهية عن التشبيه؛ وما المانع من التأويل إذا كان ينتهي إلى المعنى نفسه الذي جاء به المحكم؟ فالتأويل ليس خروجا عن المقصد الشرعيّ للنصوص، بل هو المحافظة عليه عينها[66].

ورغم مذهبه في التأويل وأخذه بالعقل فإنّه لم يتّفق مع جميع المؤوّلين، فهو لا يجاري التأويل إلى آخر المطاف، ولا يرى وجوبه مع كلّ نصّ مهما كان غامضا، بل هناك حدود للعقل يقف عندها مفوّضا، ويقول: «وما لا ندرك معناه نبقيه بلا تأويل ونؤمن به»[67]، وقد ظهر هذا منه خاصّة في مسائل الغيب والقضاء والقدر.

ثالثا ـ خصائص البحث العقدي.

لقد كان للبحث العقدي عند الشيخ اطفيش خصائص نذكر منها:

1 ـ تعدّد مصادره التي يعتمدها في تقرير المسائل: فالمصادر الأساسيّة

65- اطفيش. شرح أصول تيبغورين: 537.

66- اطفيش. الهميان: 3/160، 161.

67- اطفيش. التيسير: ط1: 6/ 290.

في العقيدة هي القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة، فمنها تستنبط الأحكام وتتّخذ الآراء والمواقف؛ والشيخ اطفيَّش يبحث عن الدليل فيهما أوّلا؛ والشيء الذي اتّسم به وتميّز به هو دقّته واختيار أدلّته المؤدِّية للمقصود، والصالحة للمقام، فلم يكن يلتزم الأدلّة التي يستعملها من سبقه، ونجد هذا في مواطن متعدّدة من المسائل التي ناقشها مثل: تسمية المؤمن، وتسمية صاحب الكبيرة، فقد تعدّدت الأدلّة فيها لكنّ الشيخ ردّ بعضها واكتفى بالقليل من ذلك[68].

وكان مصدره الأوّل في الحديث هو كتاب «الجامع الصحيح» للربيع بن حبيب، ولم يقتصر في الاستدلال بما جاء في هذا الكتاب بل اعتمد مصادر الحديث المختلفة خاصّة المشهورة منها والمتداولة.

ولم يكتَفِ الشيخ في استدلاله بهذين المصدرين بل كان للعقل أثره في صياغة آرائه العقديّة.

وبعد العقل نجد أقوال من سبقوه وما جاء في الآثار القديمة؛ فهو يستشهد بأقوال الصحابة، والتابعين ثمّ بأقوال السابقين من الإباضيّة، وأصحاب المذاهب، وينقل ما كتبوه، كما يستشهد بما ورد عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، خاصّة إذا تعلّق الأمر بمسألة في مقارنة الأديان مثل إثبات الحشر بالأجساد، وعدد الرسل وأسمائهم[69]، وكانت هذه الكتب مصدرا ومنفذًا للإسرائيليّات في تراثه.

2 ـ المقارنة بين الآراء: ومن جهة أخرى كان لتعدّد المصادر عند الشيخ أثر مهمّ في المقارنة بين الآراء؛ فأكثر من المقارنات وإيراد

68- اطفيش، الهميان: 4/99؛ التيسير: ط1: 1/658، 659؛ انظر: عنوان: "أدلة تسمية صاحب الكبيرة كافرا كفر نعمة"، المبحث الثاني، الفصل السادس، ص 317.

69- اطفيش، الهميان: 4/99؛ التيسير: ط1: 1/658، 659؛ انظر: عنوان: "أدلة تسمية صاحب الكبيرة كافرا كفر نعمة"، المبحث الثاني، الفصل السادس، ص 317.

آراء الآخرين وأدلّتها ومناقشتها، والاهتمام بنسبة الرأي إلى صاحبه واهتمّ أكثر بالمقارنة بين أقوال الإباضيّة وآرائهم وبين آراء غيرهم من المعتزلة والأشاعرة خاصّة.

واهتمامه بالمعتزلة كان بحكم التقارب بينهم وبين الإباضيّة؛ وأمّا اهتمامه بالأشعريّة فكان بسبب التقارب أيضا، إضافة إلى الجوار في الحيّز الجغرافيّ بين المذهبين خاصّة في المغرب؛ وعقد مقارنات أخرى بين الإباضيّة وبين الصفريّة والأزارقة والشيعة؛ وكان في كلّ ذلك معتزّا بمذهبه، شديد القناعة بصواب آرائه غالبا[70] إلاّ أنّ هذه القناعة لم تمنعه من التمحيص في الأقوال، ومخالفة مشهور المذهب واتّخاذ رأي شخصيّ يظهره عند نهاية إيراده لمختلف الآراء ومناقشتها.

ونلحظ أنّ اهتمامه بالمذهب الأشعريّ كان أكثر من اهتمامه بأيّ مذهب آخر، والسبب في هذا يعود إلى ما ذكرناه من الجوار، وإلى الاحتكاك الذي ولّد مناقشات بين أصحاب المذهبين الأشعريّ والإباضيّ.

وكان الشيخ مدفوعا في هذه المقارنات برغبته في تصحيح التصوّر الذي تقدّمه المصادر الأشعريّة عن الإباضيّة، وفي الغالب لم يكن تصوّرا صحيحا عن هذا المذهب وآرائه وظهر هذا كثيرا في مراسلات الشيخ إلى الإباضيّة أو إلى غيرهم، من ذلك على سبيل المثال: «الردّ على العقبي» و«إزالة الاعتراض» و«إزهاق الباطل» فهي ردود على من نسب إلى الإباضيّة ما لم يقولوه، وتصحيح لذلك؛ وكان الشيخ اطفيّش مهتمّا بهذه الردود والمقارنات منذ بداية عهده بالتأليف؛ يدلّ

70- اطفيش. الهميان: 8ق1/ 295.

على ذلك رسالة «إثبات عدم الرؤية» التي ألّفها في عهد الشباب وكانت نزعة الجدل واضحة فيها، ثمّ نلاحظ أنّ هذه النزعة تخفّ بتقدّم العمر وبالرسوخ في العلم في ما جاء بعد ذلك من المؤلفات حتّى وصل الشيخ إلى محاولة تصحيح رواية الأشاعرة عن الأشعريّ؛ للوصول إلى القول الأصليّ الذي يرتضيه للأشعريّ كما فعل في مسألة الكسب في الفعل الإنساني[71]؛ وممّا دفع الشيخ إلى المقارنات أيضا رغبته في التقليص من الخلاف أو إثبات الاتفاق بين بعض المذاهب، كما كانت نهاية بحثه في رؤية الله تعالى، أو في مسألة خلق الأفعال في القضاء والقدر[72].

وبعد هذه المقارنات يبدي الشيخ اطفيَّش رأيه الشخصي إمّا بموافقة رأي سابق أو باتّخاذ موقف جديد، وهو أحيانا يشير إلى ذلك ناسبا القول إلى نفسه، وأحيانا يتركه للقارئ حتّى يكتشفه[73]؛ وهذا ما جعل الوصول إلى مواقفه وآرائه غير ميسور دائما بل يستدعي جهدا وطول بحث، وخاصّة عندما يغيّر من رأيه بين كتاب وآخر دون الإشارة إلى هذا التغيير[74].

وقد كانت آراؤه أحيانا مخالفة لمشهور المذهب الإباضيّ، وهو يدرك هذا، ويسارع إلى التنبيه إلى أنّ مقصده من هذا الرأي هو البحث عن الحق في الموضوع، وأنّه لم يكن يرمي إلى الفرقة، وكان شديد الحرص على توضيح ذلك خاصّة في مراسلاته، فهو يهوّن من الخلاف، ويحاول أن يجعله مجرّد خلاف لفظيّ، وأنّ الغاية واحدة والنهاية متماثلة في قوله وقول سائر الإباضيّة خاصة.

71- اطفيش، التيسير: 3/423؛ انظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيش، هامش: 73، ص 375.

72- اطفيش، الذهب: 29؛ - داعي العمل: ليوم الأمل:(خ) مكتبة القطب(أ ب:2): و: 95؛ انظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيش، ص 132.

73- اطفيش، شرح لامية ابن النضر: 1/ 06.

74- انظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيش، ص 440.

وتنبغي الإشارة إلى أنّ الشيخ قد غفل في المقارنات التي كان يجريها عن مذهب المحدِّثين، وقد كانت آراؤه تتشابه مع آرائهم أحيانا، وكان السبب في نظرنا هو اهتمامه بغيرها من المدارس، وعدم اهتمام المصادر الإباضيّة بها أيضا، وانعدام كتب هذه المدرسة في المحيط الذي عاش فيه الشيخ بالمقارنة إلى وفرة المصادر الأشعريّة فيها.

3 ـ نزعة التأصيل: وإذا نظرنا إلى آراء الشيخ اطفيَّش في العقيدة نقف على ميزة أخرى مهمّة تتمثل في محاولته الرجوع بالمسائل إلى أصولها الأولى، فهو يبحث القضيّة كما وجدها في التراث الإسلاميّ، وبحكم تأخُّره في الزمن يجد اختلافا في المسألة الواحدة إلى حدِّ التناقض في الآراء، فيبحث هذه الآراء، ومصدر الاختلاف فيها، ويبحث عن المخرج من الاختلاف فلا يجده إلاَّ في الرجوع إلى الأصول الأولى، وأوّل ما يرجع إليه هو عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعهد الصحابة والتابعين، وهذا هو العهد الذي كانت فيه العقيدة خالصة من الآراء والأفكار الدخيلة، وقريبة من فترة نزول الوحي فلم تتأثَّر بعد بالآراء المذهبية، فهنا يجد الشيخ اطفيَّش القول الذي يرتضيه، ويركن إليه لما فيه من انسجام مع الفطرة السليمة، وروح الإسلام ومقاصده، وهذا ما ظهر جليًا في بحثه لمسألة توحيد الله تعالى وما يجب فيه على المؤمن فخلَّص بذلك العقيدة من الاعتبارات الكلاميّة المختلفة، واستند إلى ما روي عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين كان ينشر الإسلام ويدعو الناس إلى الوحدانيَّة[75].

وللشيخ اطفيَّش أصل سلفيّ خاصّ بالمذهب الإباضيّ يرجع إليه إذا خالف المشهور في المذهب، فنجده يلتمس سندا لرأيه في أقوال

75- اطفيش، الحجّة في بيان المحجة: 28، 29؛ انظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيش، ص 107.

المؤسّسين الأوائل، ويبيـّن أنّ رأيه ليس جديدا في المذهب ولا غريبا عنه وإنّما هو تجديد وبعث لما كان عليه المذهب في أوّل أمره، ومثل هذا نجده في بحثه مسألة الاستطاعة وَأَنَّهَا تكون قبل الفعل وأثناءه[76].

4 ـ الواقعية في الرأي: تميز فكر الشيخ في جوانب عديدة منه بالواقعيّة التي تعطي للآراء العقديّة أثرا عمليّا في الحياة وقد جاء في وضع يختلف عن أوضاع المسلمين في سالف عهودهم، ووجد أنّ الآراء التي قيلت في القديم أضحت لا تساير هذا التغيير في الزمان وأحوال الناس، مِمَّا جعلها أحيانا عديمة الجدوى، وغير صالحة للتطبيق مع أنّ الأصول العقديّة في الحقيقة ثابتة وصالحة لكلّ وقت، لكن التفسيرات التي فسّرت بها لم تكن كذلك، واحتاجت إلى تجديد، وهذا ما حاول الشيخ اطفيَّش القيام به، فكان يقرن الأصل العقديّ الذي يدرسه بالواقع الذي يعيشه الناس، ويحاول أن يصبغه بصبغة عمليّة تخرج به من مجرّد الاعتقاد القلبيّ إلى أن يصبح حقيقة عمليّة مجسّدة في التصرّفات، وهذا ما جعل آراءه على درجة كبيرة من الأهمية.

والشواهد على هذا كثيرة في المسائل التي درسها، من ذلك أَنَّهُ قارن بين ما يطلبه علماء الكلام في التوحيد، وما أثقلوا به هذا الأصل الإيمانيَّ من المصطلحات والاعتبارات وبين واقع الناس في عصره، فوجد أنـّه لو أبقُي مبحث التوحيد على هذا النحو لكان عديم الجدوى، ولا يمكن للناس استيعابه، فقال: إنّ الواجب أن يخاطب الناس بما يفهمون، وبما يمكّنهم من إدراك وجود الله تعالى ومعرفته بيسر؛ وقال عن هذا: «طبع العوامِّ ينفر غالبا عن إدراك الحقائق فمن سمع من العوّام في أوّل الأمر ثبوت موجود ليس بجسم ولا متحيّز ولا مشار إليه ولا عرض

76- اطفيش، شرح الدعائم: 1/ 206، 207؛ انظر: وينتن، آراء الشيخ اطفيش، ص 357.

ظنّ أنّ هذا عدم ونفي؛ فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالّة على ما يناسب ما توّهموه»[77].

ومن الأصول الإيمانية التي بيّن فيها الجانب العمليَّ وراعى فيها واقع الناس ما قاله في معنى الإيمان بالملائكة، فهو يرى أنّ من تمام الإيمان بهم بعد التصديق بوجودهم العمل بما يرضونه ويحبونه ومن هذه الأعمال الجهاد من أجل تحرير البلاد الإسلاميّة من المستعمرين[78]، ونصح من راسلوه مستفتين عن الهجرة من البلاد المستعمرة فقال في حقّهم إِنَّهُ يجب عليهم البقاء في أراضيهم حَتَّى لا يتركوها فارغة ويستولي عليها المستعمر لهجرتهم ولجوئهم إلى بلدان مجاورة[79].

وهذا النزوع إلى تنزيل العقيدة إلى واقع المسلمين أكسب تراث الشيخ اطفيَّش أهميّة وميزة في مسايرة الواقع، وتفعيل العقل الإنساني وتحريره من الانغلاق والجمود الذي أصابه.

5- محاولة التوفيق بين الآراء المختلفة: كما فعل في موقفه من القول برؤية الله تعالى رؤية قلبيّة غير بصريّة، وقوله بالاستطاعة قبل الفعل، وفي اكتساب النبوّة، وهذه الميزة جعلته يبتعد عن التعصّب المذهبيّ، وهو وإن لم يتمّ له ذلك ولم يتخلّص منه تماما، فقد قدّم خدمة جليلة للخروج من الحدود المذهبيّة الضيّقة[80].

6- احترامه لرأي غيره: والأمانة في نقله، والاستشهاد له، والبحث عن المقصد الحقيقيّ للقائل، واحتمال أوجه الصحّة له، والمعاني التي تقرِّبه إلى رأيه، فلم يكن الشيخ في الغالب أسير تفكير مسبق.

77- اطفيش. شامل الأصل والفرع: 1/51.
78- اطفيش. شرح العقيدة: 350: انظر وينتن. آراء الشيخ اطفيش. ص35.
79- اطفيش. الهميان: 7ق1/ 291: -التيسير: 8/422؛ - تفسير ألغاز: 51.
80- اطفيش. الهميان: 7ق1/ 291: -التيسير: 8/422؛ - تفسير ألغاز: 51.

7 - ابتـعاده عن الاختلاف المذموم: إذ كان يرشد غيره إلى تركه، وإذا خالف غيره في رأي أشـــار إلى أَنَّهُ لـولا الاجتهاد المؤدّي إليه لم يكن ليتّـخذه ولولا الحقّ ما أظهره.

الخاتمة:

وبعد فهذا جانب من دراسة البحث العقدي عند الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش، ونماذج من فكره، رأينا كيف كان مهتما بهذا البحث وأنتج فيه الكثير من المؤلفات، وأسهم فيها إسهاما ظهر فيه جانبان: الاستفادة من آثار السابقين، ومواكب متطلبات الظروف التي عاصرها، وقدم البحث العقدي بهاجس تقريبه إلى الإنسان، وخدمة الاهتمامات البشرية من حيث تغيير أوضاعهم إلى الأحسن، وتفعيل دورهم في الحياة، كما كان يراعي التيسير خدمة للمكلفين، ومراعاة لحالهم خاصة في زمنه لما كان المجتمع المسلم تحت سيطرة الجهل في الغالب والاستعمار.

وكان همه في تصنيف المسائل وبحثها أن يتخذ مرجعية يصدر من خلالها، فكان يعود إلى تأصيل المسائل كما كانت على العهد الأول.

إن هذه النماذج تثير الاهتمام في جدوى هذا المنهج في التعامل مع الأصول العقدية خاصة المذهبية منها، لوضع كل شيء في مجاله ونصابه قدر المستطاع، ولفهم تطور الفكر البشري المسلم في بعض مظاهره وأهم مجالاته وهو العقيدة.

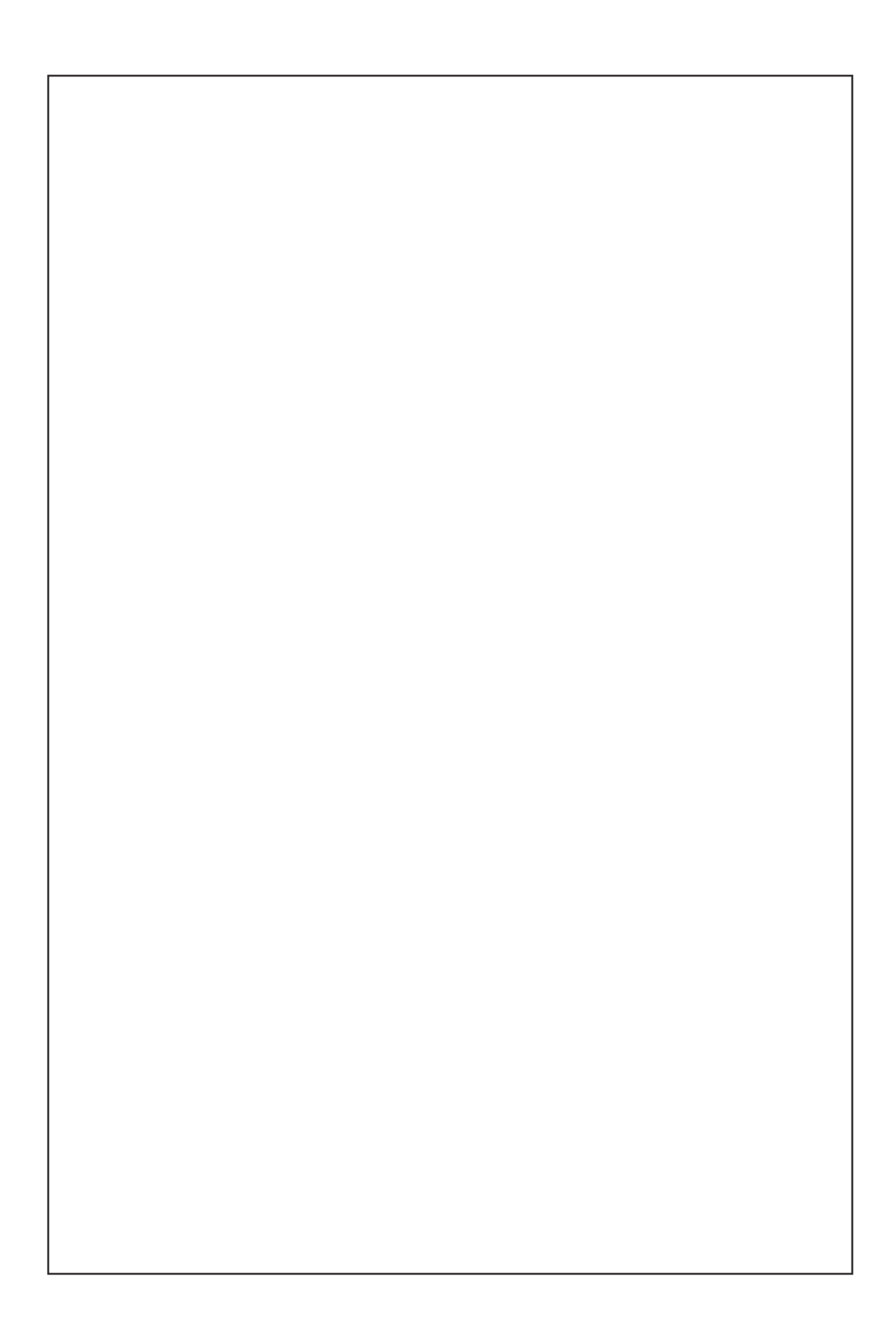
إن هذه الخصائص تبدو أهميتها من نواحي متعددة لعل أهمها ما ذكره الدكتور صالح نعمان، حيث بين أنها تبعد تقديس أقوال الرجال رغم احترامنا وتقديرنا لاجتهادهم وجهودهم، ونبقى دائما في حاجة

إلى تجديد فهمنا للعقيدة واستخلاص ما يصلح لنا في كل حال، مع تجدد الاهتمامات وتغير الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للبشرية[81] .

إن هذه النماذج من فكر الشيخ اطفيش تستدعي مزيد بحث ودراسة خدمة لتطور الفكر العقدي.

والله أعلم والحمد لله رب العالمين.

81- ـ صالح نعمان: منهج البحث في علم العقيدة في ضوء التطور العلمي المعاصر. ص 240، 241.



الشيخ امحمّد بن يوسف اطفيّش وكتابه
(الكافي في التصريف)

أ. عائشة يطو، جامعة مستغانم.

مقدمـة:

يعدّ قطب الأئمة امحمّد بن يوسف اطفيّش(1236-1332هـ/1818-1914م) من أعظم الرجال الذين أنجبهم هذا الوطن؛ كان أمّة في فرد، ورجلا وهب حياته للعلم وإصلاح ما أفسده الدهر، فكان حلقة في سلسلة العلماء الذين بثّوا بذور النهضة في ميزاب والجزائر عامة.

وحريّ بنا أن نحيي ذكرى علمائنا، ونتقبّل ما خلّفوه بقبول حسن، بالمحافظة على تراثهم؛ جمعا، وفهرسة، وتحقيقا، ودراسة، ونشرا. وما أحسب ذلك إلاّ فرضا على أهل الاختصاص.

مكانة الشيخ اطفيش العلمية: كان مبرّزا في جميع العلوم وبخاصة الشرعية منها واللغوية، مغرما بجمع الكتب. وما سيأتي من أقوال لدليل كاف على صحّة ما أوردناه:

* قال عنه الدكتور أبو القاسم سعد الله بعدما تحدّث عن تفاسيره الثلاثة، وعددها، وتاريخ طبعها: « كان الوحيد عندئذ الذي ألّف في هذا العلم على ما نعرف، وكانت له من الإمكانات الأدبية واللغوية والمواهب العقلية ما أهلّه لخوض هذا البحر، فقد كان ولوعا بالأدب واللغة والتاريخ والبلاغة والحديث، وله إطّلاع واسع على الحضارات ومساهمات الشعوب»[82].

82- تاريخ الجزائر الثقافي من 1830 إلى 1954 م. ط1 . دار الغرب الإسلامي.(1998 م): ج7 ص9

* قال عنه الشيخ دبّوز: « إذا نظرت في كتب التفسير التي وضعها، ورأيت مباحثه النحوية وإعرابه فيها، وحفظه لمذاهب النحاة في مشاكل النحو؛ علمت أيّ بحر هو في علوم العربية»[83] .

* استطاع بجدّه وعزيمته الفولاذية، وغرامه وشغفه بالعلم أن يملك من الكتب النفيسة في أعماق الصحراء، في وقت الفتن وصعوبة المواصلات، وقلّة المطابع ما لم يملكه أغلب العلماء الجامعيين اليـوم، ودرس ما لم يدرسوه[84] .

* أثر عن تلاميذ القطب أنّ شيخهم يعرف ما في ابن عقيل، والأشموني، والمغني، وسعد الدين التفتازاني في البلاغة، وشروح السمرقندية كما يعرف داره التي نشأ فيها؛ لا يحتاج في تدريسها إلى إعداد ومراجعة، وذلك لحافظته القوية وذكائه النادر، وشغفه بالعلم شغفا جعله ينكبّ على العلوم فيتقن درسها [85] .

* اعتمد الشيخ اعتمادا شبه كليّ على نفسه في أخذ العلوم؛ فهو لا يكاد يبدأ كتابا في فنّ جديد، ويدرس فيه بابا أو بابين على الأستاذ، ويعرف موضوعه حتى يختم الكتاب بنفسه. لقد درس الآجرومية على أخيه إبراهيم، غير أنّه ما إن أتمّ الباب الثاني منها وهو في علامات الإعراب، حتى ختم الكتاب بنفسه وفهم الآجرومية كلّها وحفظها؛ وقال لأستاذه: « حسبي من دروسك فيها، إن شئت قرّرت لك الأبواب كلّها وشرحت لك ما فيها»[86].

83- نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. ط 1 . المطبعة التعاونية. (1965 م): ج1 ص302

84- ينظر: المرجع السابق: ج2 ص308

85- ينظر: المرجع السابق :ج1 ص302

86- ينظر: المرجع السابق :ج1 ص300

مؤلفات القطب اللغوية: القطب رجل موسوعي شبيه بجلال الدين السيوطي من حيث كثرة التأليف؛ فقد خلّف آثارا عديدة ثرية ومتنوعة كمّا وكيفا، ضاع منها الكثير لعوامل مختلفة، وما تبقّى فهو متفرّق بين مكتبات كثيرة، خاصة في وادي ميزاب، ما يزال أغلبها مخطوطا، وبعضها طبع في الجزائر وفي سلطنة عمان.

تنوّع هذا التراث بتنوّع ثقافته، كتب في جميع العلوم تقريبا، أغلبها في العلوم الشرعية واللسانية. واختلفت هذه التآليف من حيث طبيعتها؛ فهناك الذاتية الإبداعية، وهناك المختصرات والشروح، وهناك الحواشي والتقريرات، إلى جانب القصائد والرسائل والخطب والردود والمراسلات[87] .

عناية القطب بالتأليف منذ صغره نابع من إدراكه لأهمية الكتاب المتمثلة في كونها وسيلة تثقيفية خالدة ومتنقلة. أضف إلى ذلك استشعاره النقص الذي يشكوه طلاّب العلم، وضعف المستوى الثقافي. وما إلى ذلك من صعوبة مؤلفات السلف مع تقاعس الكثير من العلماء عن التصنيف في علم من العلوم[88] .

ولا يمكن أن نتناسى أنّ الشيخ قد عايش فترة عصيبة تمثلت في الحماية الفرنسية على وادي ميزاب منذ عام (853 م)، ثمّ احتلاله عسكريا في (1882 م)،؛ فترة خيّم فيها الجهل، وكان للإدارة الاستعمارية دور في تعميم الجهل. وبذلك ندرك أهمية الجهود التي قدّمها المترجم له وأمثاله من أعلام هذه الفترة في ميدان العلم والإصلاح.

87- ينظر: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقدية، لمصطفى وينتن، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، معهد الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، قسنطينة، (1995 /1996 م) . مخطوطة: ص 390 ومابعده.

88- ـ ينظر: محمد بن يوسف اطفيش ومنهجيته في تفسير التيسير، لمحمد عكي علواني. رسالة ماجستير في العلوم الإسلامية ، المعهد الوطني العالي لأصول الدين، الجزائر، (1990 /1991 م). مخطوط: ص79

مؤلفات الشيخ في مجال اللغة:

* **الكافي في التصريف:** وهو موضوع هذه المداخلة.

* **شرح لامية الأفعال:** مطبوع[89] ؛ انتهى من شرحها عام (1260 م) كما جاء في ختام هذه النسخة[90].

* **حاشية على شرح لامية الأفعال لابن الناظم:** مخطوط[91].

* **كتاب الرسم:** مطبوع[92]؛ هو مختصر في الخط العربي، وقد جاء في صفحة العنوان[93]: « يوجد في نسخة المؤلف بخطه: ولمشايخ الحرم الشريف اعتناء بهذا التأليف وطلبوه من مؤلفه إذ ألّفه فيه».

وضع المصنف كتابه هذا في إحدى حجّتيه؛ الأولى منهما كانت في(1873م)، حيث جاور بمكة عاما كاملا درّس خلاله وألّف. أمّا الثانية فكانت في (1886 م)[94].

* **مختصرثان في علم الخط:** مخطوط[95]؛ جاء في صفحة العنوان ما نصه: « تأليف ثان مختصر في علم الخط شارح لما جاء في جمع الجوامع للسيوطي في علم الخط، وقبله تأليف بسيط في ذلك الفن متن ليس بشرح لشيء، كلاهما تأليف للقطب الرّبّاني الذي حاز الدرجة الثالثة من الاجتهاد».

ولعلّ قوله: « وقبله تأليف بسيط في ذلك الفن متن ليس بشرح لشيء»، تلميح إلى كتاب الرسم الذي ذكرناه آنفا.

89- ـ هو أحد منشورات وزارة التراث بسلطنة عمان. طبع بمطابع سجل العرب عام 1986 م في أربعة أجزاء

90- ينظر ج4 ص482

91- نسخة في خزانة الشيخ ببانو ببني يزجن. غرداية. رقمها (ب93)

92- طبع بمصر عام 1349 هـ . وبالجزائر عام 1986 م . وبسلطنة عمان عام 1984 م

93- ينظر كتاب الرسم (طبعة الجزائر)

94- ينظر تفصيل الكلام عن رحلتي القطب إلى الحجاز في: رحلة القطب الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش الشهير بقطب الأئمة. دراسة وتحقيق: يحيى بن بوهون حاج امحمد, المطبعة العالمية. الجزائر. ط1 . 2007 م: ص40 ـ 57

95- نسخة في مكتبة القطب ببني يزجن رقمها (أ ز/3 ـ 6)

* **المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية:** مخطوط[96].

* **شرح شرح أبي سليمان داود التلاتي على الآجرومية:** مخطوط[97]؛

***شرح أبي سليمان داود التلاتي الجربي (ت:967 هـ) على الآجرومية:** شرح مختصر[98] .

* **حاشية صغرى وأخرى كبرى على شرح أبي القاسم الداوي على الآجرومية:** مخطوط[99] ؛ شرح أبي القاسم بن يحيى الغرداوي المصعبي (ت:1129 هـ) واسع مقارنة بشرح التلاتي[100] .

* **نظم مغني اللبيب لابن هشام:** مخطوط[101] ؛ ويسمّى (قصيدة الغريب)، أرجوزة عدد أبياتها خمسة آلاف ، وضعها وعمره ستّ عشرة سنة[102].

* **حاشية على شرح المرادي على ألفية ابن مالك:** مخطوط[103] ؛ وشرح المرادي هذا هو المسمى (توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك). الموجود من الحاشية هو جزء واحد خصّ الموضوعات الآتية: الأسماء الموصولة، العدد، الحكاية، التأنيث، المقصور والممدود.

* **شرح مختصر للقصيدة اللغزية:** مخطوط[104]؛ القصيدة اللغزية في المسائل النحوية وشرحها لأبي سعيد بن لبّ الأندلسي (ت: 783 هـ).

96- نسخة في المكتبة البارونية بجربة تونس رقمها (107)

97- نسخة في الخزانة العامة بمؤسسة عمي سعيد، غرداية رقمها (م 4)

98- ينظر بحثنا: الحركة اللغوية عند الإباضية في المغرب الإسلامي من ق 10 هـ إلى ق 13 هـ. رسالة دكتوراه في اللغة العربية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية والدراسات القرينية،(2009 / 2010 م). مخطوطة: ص 117 ومابعدها

99- إحداهما في الخزانة العامة رقمها (م 23)

100- ينظر: الحركة اللغوية عند الإباضية: ص 69

101- نسخة في مكتبة القطب ببني يزجن رقمها (أ و- 6)

102- ينظر: نهضة الجزائر: ج 1 / ص302

103- نسخة في مكتبة القطب ببني يزجن رقمها (أ م 1)

104- نسخة في خزانة الشيخ حمّو بغرداية رقمها (حد غ 10) ، نسبت لمجهول، لكنّ المفهرس رجّح كونها للقطب

* **مختصر شرح ابن لبّ على القصيدة اللغزية:** مخطوط[105]؛ هو من مؤلّفات القطب في صغر سنّه ترجيحا.

* **نظم في مثلّثات الكلام:** مخطوط[106].

* **إيضاح الدليل إلى علم الخليل:** مخطوط[107]؛ هو حاشية على شرح الخزرجية في العروض، والموسوم بـ « فتح ربّ البريّة بشرح القصيدة الخزرجية « لأبي يحيى زكرياء بن محمد الأنصاري» (ت: 926هـ).

* **شرح على شرح عصام الدين في الاستعارات:** مخطوط[108]؛ الشرح المشروح هو لإبراهيم بن محمد عصام الدين الإسفراييني (ت: 944هـ) على متن الاستعارات لأبي القاسم السمرقندي (ت: حالي 888 هـ)، وضعه القطب قبل شرحه للغز الماء (1283 م)، أو خلال هذه السنة لإحالته عليه فيه[109].

* **بيان البيان:** مخطوط[110].

* **تخليص العاني من ربقة جهل المثاني**[111].

* **ربيع البديع:** مخطوط[112].

* **الانشراح في بيان شواهد التلخيص والمفتاح:** مخطوط [113] .

* **شرح شواهد القزويني:** مخطوط[114] .

* **تسهيل الاجتهاد في تفسير أشعار الاستشهاد:** مخطوط[115]؛ هو شرح

105- نسخة في مكتبة آل فضل ببني يزجن رقمها (خ دغ 185)
106- نسخة في مكتبة الاستقامة، الخزانة الأولى، ضمن مجموع رقمه 86
107- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أم 4)
108- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أس 1)
109- ينظر: شرح لغز الماء ، ص16.
110- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أس / 1 ـ 2)
١١١- نشرته وزارة التراث بسلطنة عمان، محقّقا من قبل الأستاذ محمد زمري
112- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أس 3)
113- ينظر: الآراء العقدية: ص 393
114- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أع 1)
115- نسخة في مكتبة الحاج سعيد، بغرداية، رقمها (2)

لثلاثة شروح على الآجرومية: شرح الشريف محمد بن أحمد بن يعلى الحسيني (ت: 760 هـ)، وشرح أبي سليمان داود التلاتي، وشرح أبي القاسم يحيى بن أبي القاسم الغرداوي.

* **شرح شواهد قواعد الإعراب:** مخطوط[116].

* **شرح شواهد الوضع:** مخطوط[117].

***حاشيةالتمرين:** المقصود بها (تمرين الطّلاّب في صناعة الإعراب) لخالد الأزهري (ت: 905 هـ). ذكرها القطب في شرحه على لامية الأفعال[118] مرة بهذا العنوان، ومرة بـ «حاشية على إعراب الألفية». وهي من مصنفاته المفقودة.

* **حاشية الشذور وشرحه:** شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لابن هشام النصاري (ت: 761 هـ)، ذكرها القطب في شرح شرح التلاتي على الآجرومية[119]. وهي من المفقودات.

* **حاشية القطر وشرحه:** ذكرها في شرحه على لامية الأفعال[120]. وتعدّ من المفقودات أيضا.

* **حاشية على التصريح:** ذكرها في حاشيته على شرح الرائية[121] .

* **شرح على العيني:** ربّما يكون شرحا على كتاب «المقاصد النحوية» أو مختصره « فرائد القلائد في مختصر لشواهد «، لمحمود بن أحمد العيني (ت: 855 هـ)[122].

116- نسخة في مكتبة الحاج سعيد رقمها (14)
117- نسخة في مكتبة القطب رقمها (أع 3)
118- ينظر: شرح لامية الأفعال: ج1 ص168 ؛ ج2 ص140 ،152 ؛ ج3 ص23
119- ينظر: الآراء العقدية: ص403
120- ينظر: شرح لامية الأفعال: ج3 ص259
121- ينظر: الآراء العقدية: ص404
122- ينظر: المرجع السابق: ص 404

والملاحظ أنّه يحيل على حواشيه في النحو جملة، دون تعيين، كما فعل في شرحه على لامية الأفعال[123].

إضافة إلى ما ذكرناه، لنا أن نلحق بهاته القائمة العناوين الآتية باعتبار طبيعتها اللغوية:

* **شرح نونية المديح:** مخطوط[124]؛ القصيدة المشروحة في مدح الرسول (صلى الله عليه وسلّم) وهي منسوبة لمجهول.
* **شرح لغز الماء:** مطبوع .
* **جواب السرحان:** مطبوع[125]؛ ورد على القطب سؤال من إباضية ورجلان ومالكيتها يتعلّق بفرس النّبيّ (صلى الله عليه وسلّم) سرحان، ولم يذكر نصّ السؤال.
* **الذخر الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى:** مطبوع[126].
* **الغسول من أسماء الرسول:** مطبوع[127].
* **شرح القصيدة العبيرية في أوصاف الجنّة:** مطبوع ؛ القصيدة العبيرية صاحبها أبو عبد الله إبراهيم الكندي (ت: 557 هـ).
* **أرجوزة جامع حرف ورش:** مطبوع[128].
* **تلقين التالي لآيات المتعالي:** مخطوط[129]؛ هو شرح للمنظومة السابقة.
* **كتاب (الكافي في التصريف):** هو واحد من المؤلّفات التي ظلّت

123- ينظر: شرح لامية الأفعال: ج1 ص17
124- ينظر: الآراء العقدية: ص395
125- طبع طبعا حجريا عام 1313 هـ
126- طبع طبعا حجريا عام (1326 هـ)
127- طبع طبعا حجريا عام 1319 هـ
128- طبع طبعا حجريا مع جواب إلى أهل زوارة للقطب عام 1325 هـ
129- نسخة في مكتبة الاستقامة رقمها (ج67)

مجهولة لسنوات طويلة مع وجوده على رفوف بعض خزائن وادي ميزاب[130].

هذا المصنّف متوسط الحجم، من المصنّفات الإبداعية التي ليست بشرح ولا بمختصر ولا بحاشية. قمت بتحقيقه ودراسته في إطار رسالة ماجستير عام (2002 م).

سيكون التركيز في حديثنا عنه على العناصر الآتية:

أ ـ تاريخ تأليفه: لم يرد ذكره في النسخ الخطية التي اعتمدتها في التحقيق[131]، غير أنّ إحالة القطب في (الكافي) على شرحه على اللامية[132] يفيد أنّ تأليف الكافي تمّ بعد (1260 هـ) وهو تاريخ الانتهاء من شرح اللامية[133]. كذا إحالته على تفسيره[134] بعبارة عامة وهي «تفسيرنا».

وكان أوّل تفسير له هو« هميان الزاد إلى دار الميعاد»، قد أنهى مسوّدته عام (1271 هـ)[135].

تمّ الكشف عن نسخة جديدة من (الكافي في التصريف) منسوخة حوالي (1274 هـ)[136]، ممّا جعلنا نستنتج أنّ (الكافي في التصريف) تمّ تأليفه في هذه السنة، أو لنقل ما بين (1271 هـ) و (1274 هـ).

130- ـ الخزائن التي وجدت بها النسخ الخطية للكافي، هي: مكتبة الحاج صالح لعلي ببني يزجن، ومكتبة القطب، ومكتبة الإصلاح بغرداية.

131- النسخ محفوظة في المكتبات المشار إليها سابقا، إضافة إلى نسخة مصوّرة بحوزة الأستاذ محمد بن بكير ارشوم ببريّان، غرداية.

132- ينظر: الكافي في التصريف: ص 75، 84، 130 ، 147 ، 148 ، 195 .

133- ـ ينظر: شرح اللامية: ج 4 /ص482

134- ينظر: الكافي في التصريف: ص64

135- نسخة مخطوطة من هميان الزاد تبدأ من تفسير سورة الفتح إلى سورة الناس، محفوظة في خزانة الشيخ حمّو بغرداية، رقمها (حك 6).

136- بخط تلميذ المؤلف أيوب بن عبد الله بن أيّوب بن حمّ بن أيّوب. هذه النسخة محفوظة في خزانة الشيخ ببانو، ضمن مجموع رقمه (ب 93)

ب ـ دواعي التأليف: لم يبيّن القطب في خطبة كتابه الأسباب التي جعلته يضع هذا لمصنّف، كما جرت عادته في بعض مصنفاته. غير أنّ المستقرئ لجملة « ينتفع به المبتدئ فإلى غيره يهتدي»[137] الواردة في تلك خطبة الكتاب، كذا عبارة «الصرف أمّ العلوم، والنحو أبوها» التي صدّر بها مقدّمته، سيستخلص بعض الدواعي، نحو:

* ندرة المؤلّفات الصرفية المناسبة لهذا الصنف من المتعلّمين في معهده؛ لأنّ أغلب المؤلّفات الصرفية لا تناسب إلاّ المتخصّصين، وهي أيضا من المطوّلات. فاضطرّ إلى وضع هذا المختصر ميسّر الأسلوب، ليناسب هذه الفئة ، به يهتدي إلى كتب أخرى في الفنّ نفسه. والقطب قد أثر عنه أنّه كثيرا ما وضع كتبا تناسب مستوى تلامذته، إن هو لم يجد كتبا تناسبهم.

* عدّه علم التصريف من العلوم الضرورية الواجب التأليف فيها، وتعليمها وتعلّمها، يتّضح ذلك من خلال قوله أيضا: « رأيت علم التصريف فرضا من فروض الكفاية، وكنزا يجب القصد عليه بأكمل العناية»[138].

* انصراف كثير من الناس عن تعلّمه، وهو ما جاء صريحا في مقدّمة شرحه على اللامية: « رأيت أهل هذه البلاد وما والاها جاهلين له كلّ جهل، وغامضا عنهم كلّ بحث من مباحثه صعب أو سهل، لجهلهم فوائد العلم صغارا، واستنكافهم عن تعلّمه كبارا»[139]. وقد كان ذلك مدعاة إلى البدء بمقولة: « الصرف أمّ العلوم ، والنحو أبوها»[140].

137- الكافي: ص 46

138- شرح لامية الأفعال: ج 1 / ص9 ـ 10

139- ج 1 ص9 ـ 10

140- الكافي: ص 47

ج ـ المحتوى العلمي: تناول القطب في كتابه جملة من الموضوعات الصرفية، تمثّلت في المصدر وما اشتقّ منه. وجاء تبويبه لهذه الموضوعات على الشكل الآتي: مقدمة وسبعة أبواب:

المقدمة: عرّف فيها علمي الصرف والنحو، ثمّ علم الاشتقاق، مفصّلا الحديث فيه، لأنّه مدخل مهمّ لفهم المشتقّات[141].

الباب الأوّل[142]: خصّه للمصدر؛ فهو الأصل في الاشتقاق عند الشيخ. تحدّث عن أدلّة البصريين والكوفيين في مسألة الأصل في الاشتقاق. حوى أربعة عشر فصلا، هي: فصل في أبنية مصادر الأفعال، فصل في أبنية الأفعال، فصل في الفعل الماضي، فصل في الفعل المضارع، فصل في فعل الأمر، فصل في اسم الفاعل، فصل في الصفة المشبهة، فصل في اسم التفضيل، فصل في صيغة فعيل بمعنى فاعل وبمعنى مفعول، فصل في اسم الفاعل من الرباعي وغيره، فصل في اسم المفعول، فصل في اسمي المكان والزمان والمصدر الميمي، فصل في اسم الآلة، وفصل في اسمي المرّة والهيئة.

الباب الثاني[143]: خاص بالمضاعف؛ عرّفه وذكر أبوابه. وتناول موضوع الإدغام.

الباب الثالث[144]: خاص بالمهموز؛ تناول موضوع الهمزة بين الصحة والإعلال، وتخفيف الهمزة المفردة، وحذف الهمزة، وصوغ اسم الفاعل والمفعول منه،وبعض المشتقات الأخرى. حوى فصلا في

141- ينظر:المصدر السابق: ص47 ومابعدها
142- ينظر: المصدر السابق: ص 55 ـ 149
143- ينظر: المصدر السابق: ص150 ـ 168
144- ينظر: المصدر السابق: ص169 ـ 192

أبواب المهموز، وآخر في كتابة الهمزة، وثالثا في كتابة همزتي القطع والوصل في نسخ المغاربة.

الباب الرابع[145]: خاص بالمثال؛ عرّفه وذكر أبوابه وإعلاله.

الباب الخامس[146]: خاص بالأجوف؛ عرّفه، وذكر أبوابه، وشروط إعلاله. في فصل في حكمه قبل الإسناد وبعده، وفصل في إبدال الواو والياء همزة، وفصل في المبني للمفعول واسم المفعول وباقي المشتقات.

الباب السادس[147]: خاص بالناقص؛ عرّفه وذكر أبوابه وكيفية تصريفه والمشتقات منه. وقد حوى هذا الباب فصلا واحدا تناول فيه الكلام عن الإبدال .

الباب السابع[148]: خاص بالفعل اللفيف بنوعيه؛ عرّفه وذكر حكمه، الأمر منه، وتوكيده، والمشتقات منه، وحكم الجمع بين إعلالين.

إنّ حصر التصريف في هذه الموضوعات يرجع سببه إلى كون الكلمة في العربية لا تخلو من حرف علّة، فتكون من المثال أو الأجوف، أو الناقص أو اللفيف. وربّما حوت ملحقا بحرف العلّة فتكون من المضاعف أو المهموز. وإذا خلت منهما فتكون من الصحيح. وهذه الأبواب جميعها حواها الكافي في التصريف.[149]

أمّا الباب الأوّل الذي جعله للمصدر، وما تضمّنه من فصول؛ فيعلّل

145- ـ ينظر: المصدر السابق: ص169 ـ 192
146- ينظر: المصدر السابق: ص169 ـ 192
147- ينظر: المصدر السابق: ص219 ـ 231
148- ينظر: المصدر السابق: ص232 ـ 234
149- ينظر: شرح مراح الأرواح في فن الصرف. لأحمد المعروف بديكوز. و ابن كمال باشا. مطبعة البابي الحلبي وأولاده. مصر. (1346 هـ): ص 5

بكون المصدر هو الأصل في الاشتقاق عند المؤلّف، لذلك خصّه بالباب الأوّل، ويشتقّ من هذا المصدر أفعال وأسماء، وهذه الأفعال قد تكون إخبارية أو إنشائية. أمّا الإخبارية فربّما خلت من الزوائد فتسمّى ماضية، وربّما حوت زيادة سمّوها مضارعة، وأمّا الإنشائية فهي دالّة على طلب الفعل سمّوها أمرا، أو دالّة على تركه سمّوها نهيا.

وللأسماء المشتقة دلالات كثيرة، منها:

* دلالة على ذات من قام به الفعل: أسماء الفاعل وما اتصل به من صفة مشبّهة، وصيغ مبالغة، وأسماء تفضيل.
* دلالة على ما وقع عليه الفعل: أسماء المفعول.
* دلالة على ما وقع الفعل فيه: أسماء الزمان والمكان.
* دلالة على ما وقع الفعل بسببه: أسماء الآلة.

د ـ منهج التأليف: إنّ الكافي باعتباره مرجعا للمبتدئين، اعتمد صاحبه منهجا خاصا، معالمه:

* **شرح الألفاظ:** ساق المؤلّف كثيرا من الأمثلة لتوضيح ما قرّره من قواعد، واهتمّ بشرحها شرحا لغويا. ونادرا ما كان يترك الشرح[150].
* **الاختصار:** اختصر الحديث عن بعض المسائل كان قد عرض لها بتفصيل له أو لغيره؛ مثال ذلك مجيء المصدر على أوزان معيّنة: (فاعلة، مفعول) ، وساق شواهد قرآنية، مختصرا الكلام، محيلا على تفسيره وغيره من التفاسير، بقوله: « وفي هذه الآي بحث في تفسيرنا وغيره»[151] .

وقد أحال على شرحه على لامية الأفعال لمعرفة معاني (أَفْعَل)،بقوله:

150- ينظر: الكافي (فهرس الألفاظ المفسرة في المخطوط): ص 303 ـ 308

151- المصدر السابق: ص64

«وغالب هذا النوع للتعدية.وقد يكون للصيرورة...ولغيرها، كما بسطته في شرح اللامية»[152]، لأنّه اكتفى في الكافي بذكر معنيين، وهما التعدية والصيرورة.

* **تجنّب التكرار:** يؤكّد ذلك إيراد عبارات مختلفة من نحو: على ما مرّ، كما مرّ ، قد مرّ[153].

* **الاستطراد:** تمثّل خاصّة في حديثه عن الاشتقاق؛ ساق تعاريف كثيرة محاولة منه الإحاطة بالموضوع،واستيفاء حقّه من البحث، لإفادة المتعلّم المبتدئ[154].

* **عدم عزو الأقوال:** أغلب النصوص المنقولة في الكافي غير منسوبة إلى أصحابها، تجدها مصدّرة بعبارات مثل: قال بعضهم، قال بعض، قيل، عن بعض...

وأرجعت ذلك إلى أنّ هدف الشيخ هو الرغبة في اشتغال المتعلّم بالنصوص لا بأسماء قائليها.

يظهر للمطلع على كتاب الكافي ملامح أخرى، تكشف عن شخصية هذا العالم، منها؛ تصريحه باستنفاذ طاقة البحث كلّها، من خلال عبارة كرّرها في عدّة مواضع، هي « هذا ما ظهر لي في تحقيق المقام»[155]، وما ذلك إلاّ تواضع العالم المدقّق. إضافة إلى ذلك تجده يستعمل الأسلوب الجريء، جرأة لا ترتقي إلى الغرور؛ تمثّل ذلك في مناقشة آراء اللغويين الكبار من جهة، وفي استعماله بعض الأساليب، تنمّ عن رغبته في دفع المتعلّم إلى الاكتفاء بما قرّره من جهة أخرى؛ نحو قوله في مسألة

152- المصدر السابق: ص75 وشرح اللامية: ج2 ص 177 ومابعدها
153- ينظرالمصدر السابق: ص 77، 168، 225
154- ينظرالمصدر السابق: ص 48 ـ 54
155- الكافي: ص 50 ، 179

الإدغام في حالة سكون الثاني: « هذا تحقيق المقام، ولا تلتفت إلى ما سواه من الكلام»[156]. تلك جرأة العالم المصلح، المعتدّ بعلمه، وقد وقفت على هذا النوع من الأساليب في شرحه على لغز الماء ؛ قال: « لا تلتفت لما قاله غيري ممّا يخالف ذلك»[157].

هـ ـ مصادره: اعتمد المؤلّف مصادر له وأخرى لغيره، نفصّل الكلام عنها على النحو الآتي:

*** مصادر له:** استفاد القطب من مباحثه السابقة، ظهر ذلك من خلال ما صرّح به من أسماء كتبه وما لم يصرّح به.وقد حاز شرحه على لامية الأفعال السبق في الاعتماد، يليه حاشيته على المرادي، وتفسيره هميان الزاد وكتبه في النحو.

من إحالاته على شرح لامية الأفعال، ماتعلق بمسألة حسِب[158]؛ قال: «عندي أنّ يحسب ـ بالكسر ـ مضارع حسب ـ بالفتح ـ فذلك من التداخل. فانظر شرحي على اللامية»[159]. وفي مسألة نيابة المفعول عن الفاعل وأسباب ذلك، كذا أوزان اسمي الزمان والمكان الشاذة، نجده يذكر عنــوان المسألة ويحيل على الشرح[160].

إحالته على حاشيته على المرادي مرة واحدة، حينما عرض لتعريف علم الصرف؛ ذكر بعض التعاريف وأحال على حاشيته لمعرفة الباقي[161].

156- الكافي: ص 157
157- شرح لغز الماء: ص 31
158- ينظر: الكافي: ص 75
159- ج1 ص 219
160- ينظر: الكافي: ص 130, 146
161- ينظر: الكافي: ص 47 ـ 48

أمّا كتبه في النحو فلم يصرح بعناوينها، إنّما ذكرها جملة بعبارة «النحو»؛ من حلال قوله: « مباحث ذكرتها في النحو»[162]، و«بسطت في النحو»[163]. وقد تمكّنت من الوقوف على كتابه « المسائل التحقيقية في بيان التحفة الآجرومية» لمراجعة وتحقيق بعض المسائل مثل: نيابة المفعول عن الفاعل وأسباب حذف الفاعل، وأسباب بناء الفعل الماضي.

كانت الموضوعات المحال عليها تخص: بناء الماضي، وفعل الأمر، وهمزة صحراء، والضميران (هو، هي).

أمّا ما تعلّق بتفسيره، فقد أحال عليه في باب المصدر الذي يأتي على وزني فاعلة ومفعول، نحو: كاذبة ومفتون، واستشهد لذلك بآيات قرآنية، ثمّ أردفها قائلا: « وفي هذه الآي بحث في تفسيرنا وغيره»[164]، ولم يخصّص. لكنّا رجّحنا كونه تفسيره هميان الزاد؛ ففي الكافي اختصار وفي تفسيره توسّع.

* **مصادر لغيره:** رجع إلى العديد من مصادر اللغة، غير أنّه لم يصرّح بأيّ واحد منها، عدا شرح المرادي على الألفية المسمى توضيح المقاصد والمسالك، في موضعين: الأول بقوله: « انظر المرادي»، والثاني: «ذكر المرادي»[165]. أمّا المسائل التي أحال فيها عليه فتمثّلت في تعاريف علم الصرف، وتعداد حروف الإبدال؛ فقد أورد خمسة عشر حرفا وقال بأنّ المرادي ذكر ذلك وزيادة.

إنّ المتمعّن في قائمة أسماء الأعلام التي ذكرها، يدرك أنّه راجع مصنفاتهم مباشرة أو بواسطة؛ فهناك آراء للخليل، وسيبويه، وابن

162- ينظر: المصدر السابق ص89 ، 102

163- ينظر : المصدر السابق ص117 ، 130 ،225

164- المصدر السابق: ص64

165- ينظر: المصدر السابق: ص47، 231

جني، وأبي عمرو بن العلاء، والكسائي، والأخفش الأوسط، والمازني، والمبرّد، وثعلب، والسيرافي، وأبي علي الفارس، والزمخشري، وابن الحاجب، وابن عصفور، والجاربردي، والمرادي، وسعيد قدّورة، واللّقّاني، والسّيّد. وكان أكثرهم ذكرا سيبويه والزمخشري.

و- موقفه من مسائل الخلاف: لم يكتف القطب بمجرّد عرض الآراء، إنّما ناقشها، فأيّد أحيانا وعارض أحيانا أخرى؛ يختار لنفسه مذهبا يتبنّاه عن قناعة. وكثيرا ما يصدر أحكاما على بعضها،من نحو: حسن، مقبول، ليس بشيء، صحيح، أولى، ليس كذلك، لا وجه له، باطل، ليس برشد. وقد لا يعلّق تماما.

من أمثلة ذلك:

* مسألة الأصل في الاشتقاق، هل هو الفعل أم المصدر؛ بسط المؤلف بعض أدلّة البصريين القائلين بأصلية المصدر في الاشتقاق، وساق أيضا أدلّة الكوفيين القائلين بأصلية الفعل في ذلك. أمّا عن موقف الشيخ من هذا الخلاف فكان موافقة البصريين، بدليل تصريحه في المقدمة: «الصرف...اصطلاحا تحويل الأصل الواحد - وهو المصدر - إلى صيغة أو صيغتين أو صيغ...»[166]، وأنّ المصدر أصل اشتق منه الفعل، والصفات، وأسماء المكان والزمان، والآلة، والكثرة[167] .

* مسألة همزة (اسم)؛ أصل هذه الهمزة عند البصرين (سُمْو) من (السُّمُوّ) أي الرّفعة، حذفت الواو وعوّضت بهمزة وصل. أمّا الكوفيون فعندهم مشتق من (وَسْم) أي العلامة، حذفت الفاء وعوضت بهمزة وصل. وكان رأي القطب هو رأي البصريين، وإن لم يصرّح بذلك، لقوله في

166- الكافي: ص47

167- ينظر: المصدر السابق: ص 55

تعريف الإبدال: « الإبدال جعل حرف مكان حرف لغير إدغام، فخرج بـ (مكان) نحو: ابن، واسم؛ فإنّ همزتيهما أوّلا عوض عن لام الكلمة آخرا، وقيل المحذوف في (اسم) فاء الكلمة»[168]. وربّما يكون تقديم رأي البصريين على رأي مخالفيهم دليلا على تبنّيه، كذا إيراد حكم الكوفيين بعد (قيل) تبيان لضعفه، وفي شرح المؤلّف على لامية الأفعال: مذهب البصريين هو القياس، لأنّ حذف اللام عوّض بهمزة أوّلا بخلاف دخول همزة الوصل على ما حذف صدره، وهو غير مألوف في كلام العرب[169].

* مسألة الهمزة المتطرّفة المتحرّكة بعد ساكن؛ يرى فيها المشارقة عدم إثبات صورتها المحدثة، في نحو: (جَا)،وصرّح الشيخ أنّ قولهم ليس برشد، أمّا المغاربة فنصّوا على كتابتها، وهو الصواب في نظره[170]، ولعلّ العذر في ذلك هو رفع اللبس عن القارئ.

* مسألة الوزن تَفعال؛ قال فيه البصريون هو بناء لتكثير مصدر الثلاثي نحو: (التَّهدار) لتكثير (الهَدْر). وعند الكوفيين مصدر (فَعَّل) الدال على الكثرة لمشابهته (التّفعيل) في الحركات والسكنات والزوائد. أمّا القطب فذكر (تَفعال) ضمن أوزان الثلاثي المجرّد، معلّقا في الختام: «وما ذكرت من أنّ تفعال مصدر للثلاثي مذهب البصريين. وقال الكوفيون مصدر الرباعي بالتّشديد للمبالغة، وهو الراجح عندي»[171]. فهو مع الكوفيين فيما ذهبوا إليه.

* مسألة أوزان الآلة: إنّ لاسم الآلة أوزان مقيسة: مِفعل، ومِفعال،

168- المصدر السابق: ص 223

169- ينظر: شرح اللامية: ج 1 ص 11

170- ينظر الكافي ص 190

171- المصدر السابق: ص 65

ومِفعلة. وقد شذّ عن ذلك بعض الأوزان: مُفعُل، مُفعُلة. ولا يعدّ سيبويه هذه الأسماء من الآلات، إنّما هي أسماء أوعية لم يذهب بها مذهب الفعل. وكان تعليق الشيخ على هذا الرأي بقوله: «وهو الصحيح»[172]، لكنّه استثنى (المُنخُل) من ضمن ما أورده سيبويه، لأنّه آلة للنّخل.

* مسألة البناء (فَعَّل)؛ اختلف حول الزائد فيه. قال الجمهور الزائد هو الثاني، لقربه من الطرف، وهو أولى بالتغيير، والتّكرار حصل به، وهي التي تعقبها الياء في المصدر. أمّا الخليل فقال بزيادة الأوّل لسكونه، لأنّ السّاكن حرف فقط والمتحرّك حرف وحركة، والأولى تقليل الزيادة. أمّا القطب فأخذ برأي الجمهور لتصريحه: « وهو الصحيح عندي»[173] لأنّ أدلّتهم ترجّح قولهم « والمصير إلى الراجح متعيّن»[174].

* مسألة اسم المفعول من الأجوف؛ فمثلا (مَقُول) اسم مفعول من الأجوف أصله (مَقْوول)، نقلت ضمّة الواو الأولى إلى القاف فالتقى واوان ساكنان؛رأى سيبويه حذف الثانية لزيادتها، أمّا الأخفش الأوسط فقال بحذف الأولى لأنّ الثانية علامة، والعلامة لا تحذف. وقد عقّب الشيخ في موضع ذكر فيه قاعدة حذف أحد الساكنين المجتمعين الأوّل منهما معتلّ والثاني صحيح، بقوله: « الأصل حذف الثاني إلاّ إن كان له معنى على حدة»[175].

* مسألة أصل اللغة؛ قال عنها الأشاعرة إنّها توقيف، وهو الرأي الذي أيّده القطب عند حديثه عن مسألة التفريق بين الأمر والماضي والمبني

172- المصدر السابق: ص 148
173- المصدر السابق: ص76
174- المصدر السابق: ص76
175- الكافي: ص215

للفاعل والمبني للمفعول من باب (باع) للإناث. ذكر أنّه يكون بالتقدير، وإلاّ فالقول أنّ واضع اللغة قد غفل عن الفرق بينهما إن كان مخلوقا، غير أنّ الصحيح كونه الخالق المنزّه عن الغفلة[176].

ز- شواهده: شواهد الصرف قليلة مقارنة بشواهد النحو في المصنفات عامة، وبناء على ذلك فنحن نجد في الكافي مجموعة من الشواهد القرآنية والشواهد الشعرية وشواهد من الأحاديث، وشواهد من الأمثال. وقد تفاوت عددها؛ فشواهده من القرآن بلغت واحدا وستين، والشعرية عشرة، وحديث واحد، ومثال واحد.

* **الشواهد القرآنية:** إنّ عدد الشواهد متفاوت من باب لآخر، تبعا لما اقتضته حاجة المسائل المطروحة للنص القرآني. ولاحظنا كذلك تكرّر بعض الشواهد، كان مجموعها خمسة[177].

اختلف منهج المؤلّف في إيراده لهذه الشواهد؛ ففي فصل المضارع مثلا استشهد بقوله تعالى: (وإذا الرّسل أقّتت)، والشاهد فيه (أُقِّتت) التي أصلها (وُقِّتت)، أورده دليلا على عدم زيادة الواو أوّل المضارع، وإن هي زيدت مضمومة أو مكسورة لا تثبت بل تقلب همزة. وقد علّق عليها ببيان أصلها قائلا بقوله: « أي وقتت»[178] .

ونجده يستدل بمحل الشاهد فقط، نحو ما ورد في باب المثال من مناقشة مسألة عدم ورود وزن (فِعُل) في كلام العرب، بسبب الثقل الناتج عن الانتقال من كسر إلى ضمّ. ساق لفظة (الحِبُك) وهي قراءة

176- ينظر: المصدر السابق: ص 209
177- ينظر: الكافي: ص 272
178- ينظر: الكافي: ص 113

شاذة نسبها بعضهم إلى أبي مالك الغفاري وبعضهم إلى السّمّال. وراح القطب يشرح الشاهد، ويسوق ما جاء فيها من آراء متعدّدة[179].

إنّا وجدنا الشيخ يذكر الآية تامة أحيانا، وأحيانا جزءا منها، وأحيانا أخرى محلّ الشاهد فقط. وقد يعلّق على هذه الشواهد باستطراد أو باقتضاب، وقد لا يعلّق إذا انتفى الإشكال في الشاهد. كذلك لا يعنى بنسبة كثير من القراءات. ولعل مرد ذلك معرفة المتعلم بهذا الجانب من خلال تفسير شيخهم وتفاسير أخرى، ومصادر سابقة في علم الصرف. فمن القراءات غير المنسوبة: قوله تعالى: (ولا الضَّأَلِّين) - الفاتحة 7 - و(أَنْ يَصَّلِحَا) - النساء 128 - و(تَسَّاقَّطْ عَلَّيْك رُطَبًا) - مريم 25 - [180].

*** شواهد الحديث الشريف:** ذكرنا أنّ القطب أورد حديثا واحدا، هو قوله عليه الصلاة والسلام: « هل أنتم تاركو لي صاحبي»[181] استدل به على كون المجرور الظاهر قد يفصل قليلا عن جارّه، والأصل فيه ألاّ يفصل عنه ولا يتقدّم عليه.

إنّ هذا الإقلال من الاستشهاد بالحديث مردّه عند البعض روايته بالمعنى، و لربّما يكون الشيخ من أصحاب هذا المذهب[182] .

*** الشواهد الشعرية:** لم يكن للشعر حظ كبير في كتاب الكافي، لعدده الضئيل، وهذه الشواهد غير منسوبة، علق على بعضها فأطال حينا واختصر أحيانا أخرى. وقد لا يعلّق تماما بحسب مقتضى الحال. من أمثلة ذلك:

١٧٩- ينظر: الكافي: ص ١٩٦ ـ ١٩٧
180- ينظر: المصدر السابق: ص 165 ،225 ، 226
181- ينظر: المصدر السابق: ص 102
182- يراجع: الحركة اللغوية عند الإباضية: ص 123

قوله في موضوع إبدال الياء من الثاء: « ومن الثاء المثلثة كـ (الثّالي) في (الثّالث)، ومنه:

قد مرّ يومان، وهذا الثـالـــي وأنت بالهجران لا تبـالـــي»[183]

هذا شاهد من الرجز قائله مجهول.

وشاهد آخر على ورود مصدر الثلاثي على وزن فاعل وهو رجز قالته امرأة من العرب؛ قال: « وقد يجيء بوزن فاعل كقوله:

قـــم قائمـا، قـــم قائمـا أصبت عبـــدا نـــائما

أي قم قياما. ويجوز أن يكون وصفا حالا مؤكّدة لعاملها»[184] .

ح ـ المصطلحات: استعمل المؤلّف مصطلحات معروفة ومتداولة في كتب المتقدّمين نحو الإبدال، والحذف، والإدغام، والمبالغة...وهناك مصطلحان من المصطلحات قليلة التداول ـ في ظنّي ـ استعملهما القطب هما السكون الحي والسكون الميت، لضبط الألفاظ التي يتوسطها واو أو ياء. والمقصود بالسكون الحيّ ثبوت علامة السكون على الياء والواو. أمّا السكون الميّت فانعدام علامة السكون . مثال ذلك قوله في باب المصدر: « (الوجل) صحّ لصحّة مضارعه، فإنّه يقال: وَجِلَ ـ بكسر الجيم ـ يَوْجَل ـ بفتحها وإسكان الواو إسكانا حيّا بعد فتح»[185] .

وقال في موضع آخر: « واو الجماعة...يضمّ الحرف المتّصل بها قبلها، وتسكّن سكونا ميّتا...كـ (ضربوا)[186]» وهذان المصطلحان استعملا من قبل علماء القراءات.

خلاصة القول إنّ الكافي في التصريف مؤلف مختصر مقارنة

183- الكافي: ص 229

184- الكافي: ص 63 ـ 64

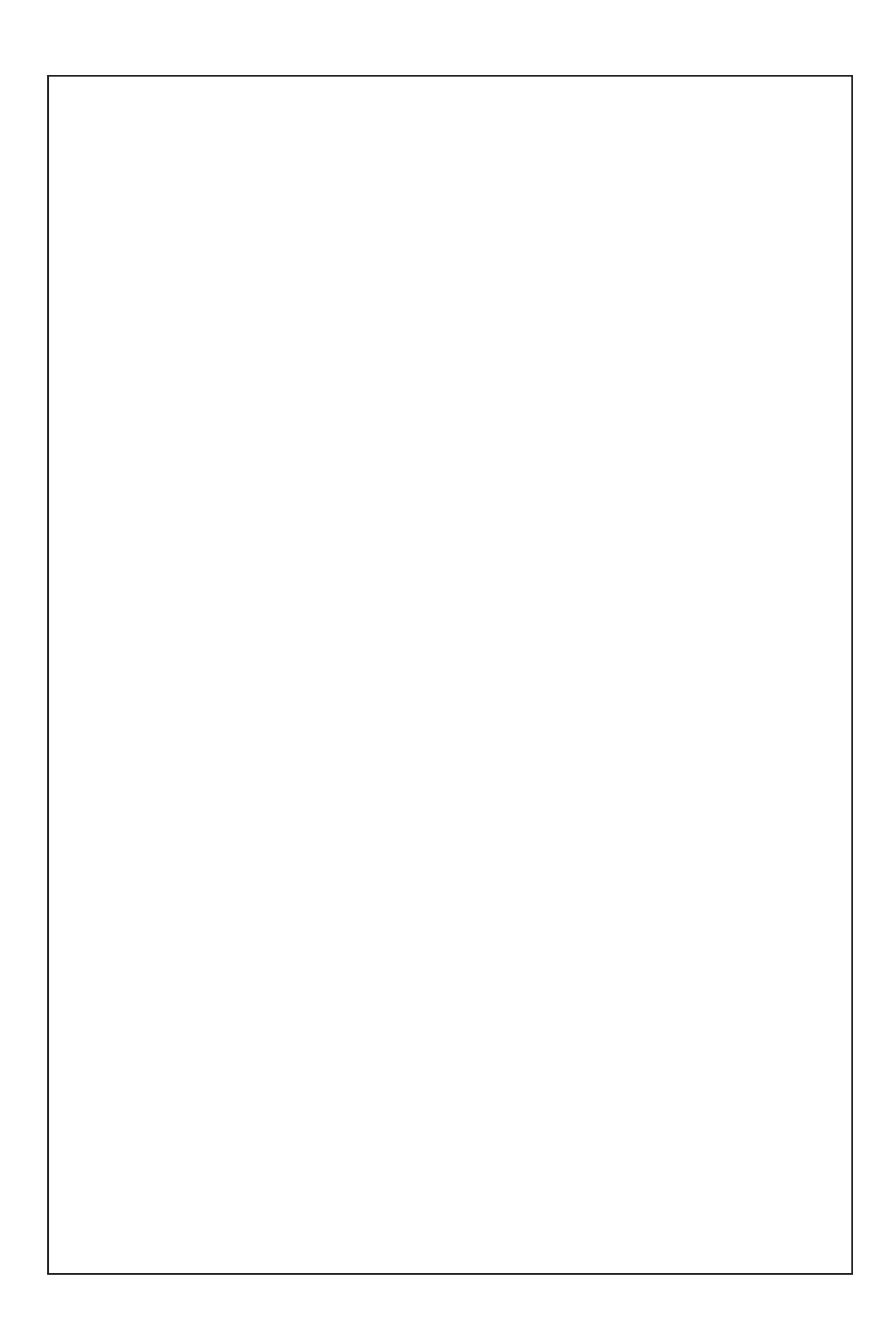
185- المصدر السابق: ص 57

186- المصدر السابق: ص 90

بشرح اللامية الذي اعتنى فيه بالإكثار من المسائل دون تحقيقها، كما صرح هو بذلك في إحدى مراسلاته، فهو من المطولات المصنفة في صغر سنه، بينما الكافي متأخر عنه يختلف منهجه عن منهج الأوّل؛ يظهر من خلاله ذلك المجتهد والناقد البارع لأنّه حقق كثيرا من الآراء، وأبدى بآرائه الشخصية في أغلبها.

أفاد صاحب الكافي من شرحه على اللامية، التي أحال عليها كثيرا، ومن خلالها أفاد من موضوعات اللامية وبعض شروحها المشهورة، كذلك أفاد من شرح مراح الأرواح، ينبئ ذلك عن سعة اطّلاعه.

إلى جانب ذلك، فالكافي يعتبر من الكتب القليلة التي وضعت في فن الصرف في الجزائر يمدنا بمعلومات عن الطرائق التعليمية التي تتبع في تدريس هذه المادة الحيوية. إنّ القطب كان رجلا معطاء دائم التجديد؛ يضع المصنفات المناسبة لتلامذته، ثمّ يعيد النظر فيها؛ إن وجد فيها قصورا أعاد التصنيف وفق الطلب. إنّه بحق عالم مجدّد .



القُطْبية عند اطْفَيَش

أ د صالـح بلعيد - جامعة تيزي وزو

الحمد لله الملكُ المحمود الودود، ومصوّر كلّ مولود، ومآلُ كلّ مطرود، وموطدُ الأوطاد، ومرسلُ الأمطار، ومسهّلُ الأوطار، وعالمُ الأسرار، وبعد؛ سأتحدّث في هذا المحاضرة التي وسمتها: القطبية عند اطْفَيَش، عن لقب (القُطب) ولماذا لُقّب اطْفَيَش بـ (قُطب الأمّة) وهل بالفعل يحمل صفات القُطبية التي تعني: علوّ الإمامة والآية والمرجعية والطريقة المتجلّية في الصوفية التي تنزل صاحب اللقب المكانة العُليا التي تقرب إلى درجة اليقين، والتعالي عن سقطات البشر، كما تجيز القطبية للمريدَ نقلَ خبرات الإمام والقول بها أو فعلها، وتبريرَ أفعاله بما هو جائز له دون غيره. وهذا ما أسعى التحقيق فيه؛ باستكناه أفكار محمد بن يوسف بن عيسى اطْفَيَش العدوي الجزائري الملقّب بالقُطْب.

ولقد استنطقتُ كلمة (قَطَبَ) في المعاجم اللغوية فوجدتُها تعني: قَطَبَ جمع أقطاب؛ وهي حديدة في الطبق الأسفل من الرحى؛ يدور عليها الطبق الأعلى. ويقال: هو قُطْب الأمر؛ أي مداره. وصاحب الجيش قُطْب رحى الحرب؛ أي مدارها. القُطْب: سيّد القوم الذي يدور عليه أمرهم. كما يقال: هو كوكب بين الجَدْي والفرقدين يدور عليه الفلك. كما يعني القُطْب المحوَر؛ أي نقطة ثابتة على كرة متحرّكة على نفسها. ويقال: جاءت العربُ قاطبةً؛ إذا جاءت بأجمعها. وقُطْب السماء: نجم يدور عليه الفلك. وهذا قُطْب الدار: أساسه وسيّده.

وأما في المعاجم الصوفية فتعني: المرتبة والمقام؛ وإنّها بمثابة السلطة التنفيذية للعلم الإلهي الذي يمثّل السلطة التشريعية؛ ينالها العالِم وتسمّى

(العالِميّة) وتخوّل له التصرّف في الكون، وتصرّفه تنفيذي يحكمه العالم الإلهي، وتتجاوز مرتبةَ المَشْيَخَة، حيث المشيخة وظيفة دنيا، محدّدة بالزمان والمكان وينالها كثير من الخاصة، بينما القطبية مرتبة عُليا لا نهائية، ولا ينالها في الزمان والمكان إلاّ خاصة الخاصة؛ وتُسخّر العقلَ لخلق مبرّرات لأفعالها. ومَنْ تُطلق عليه الكلمةُ يعدّ قطباً، فمرتبته في الحقيقة المحمدية؛ لأنّه القطب الذي تدور عليه حقائق الأقطاب من حيث إنّه المصدر والفيض والممدّ لكلّ الأقطاب. كما أنّ القطبية ترتبط بصيغة (المجذوب) وهو من اصطفاه الحقّ لنفسه، وأطلعه بجناب قدمه، ففاز بجميع المقامات والمراتب، بلا كلفة المكاسب والمتاعب. فالقطبية في نظر الصوفية تعني ثلاثة أمور هي:

ـــــ الإمامة

ـــــ المرجعية

ـــــ الوتدية

مترادفات القطب: بحثت في المعاجم الصوفية ووجدتُ أنّ لها عشر (10) مرادفاتٍ، وهي: الغوْث ـ الخليفة ـ قُطب الزمان ـ قُطب الوقت ـ واحد الزمان ـ شخص الوقت ـ صاحب الوقت ـ عبد الله ـ الحجاب الأعلى ـ مرآة الحقّ[187] . ومن خلال هذه المرادفات أريد استنطاق دِلالاتها لمعرفة مدى تمثّلها في العالم اطْفَيَش، وأربط ذلك بعلمه وأفعاله وخصاله، كما أقرّها شيوخ الصوفية من مثل: محي الدين بن العربي، وابن الفارض، والنفّري، والحلاّج وغيرهم.

1ـ الغَوْث: في تعريفات الشريف الجرجاني يقول عن القطب: عبارة عن

187- سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، ط1، لبنان: 1981، ندرة للطباعة والنشر، ص 909

الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كلّ زمان وهو على قلب إسرافيل عليه السلام[188] . فنجد القطب عنده يساوي الغوث. والغوث من الإغاثة، وهي الإعانة والنُّصرة عند الشدّة، يقول تعالى (إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم). يطلقها المتصوّفة على كلّ شخص يُلتجأ إليه، أو على كلّ من يقصده الملهوف لنصرته. فنجد العالم اطْفَيَش كما تذكر المصادر بأنّ له رقائقَ ممتدّةً إلى جميع قلوب الخلائق ممّن يقربونه أو ممّن يتكلّمون معه، فهو جذّاب وإنساني الأخلاق، فقد كان كريماً عطوفاً صديقاً صدوقاً. تجتمع أمام بيته جحافل المتسوّلين ومن بهم خصاصة، فيغدق عليهم بما وسعه الله عليه من النّعمة إضافة إلى تقديم حلول لمشاكلهم من وجهة دينية دنيوية؛ حيث يغيث الناس في السرّاء والضرّاء، وكأنّه غيث ينزل من السماء. وإنّ اطْفَيَش في هذا المجال كان السيدَ الأشرفَ الأسمى والصيتَ البعيد المرمى، في مقاسم النعمى؛ حيث جعل غيثَه نوال الدهماء، ومسّ حلاوتها الغوغاء، ودامت كواكبُ سعودها تمزّق جلابيبَ الظلماء.

2- الخليفة: نظر إليها المتصوّفة على أنّها نيابة مجرّدة عن شخص النائب والمنوب عنه، كلّ متصرّف بالنيابة؛ فهو خليفة المنوب عنه في ما ملكه التصرّف فيه. والخلافة عندهم تَقْرُب إلى الولاية والإمامة، وليس المقصود هنا دِلالة الخلافة النبوية؛ حيث إنّ ما يقصده المتصوّفة خلافة الإنسان في الأرض؛ على أنّه مسيّر بعقله ونقله، وله صفة الكمال في المخلوقات. إنّ المتصوّفة يربطونها بالولي الذي توالت طاعته من غير أن يتخلّلها عصيان. ففيمَ كان اطْفَيَش خليفةً أو ولياً؟ الخلافة والولاية عنده هي معرفة الله بحسب ما يمكن المواظبة على الطاعات،

188- الشريف الجرجاني، التعريفات، د ط، القاهرة: 1938، ص 235.

وهو مجتنب للمعاصي، وبعيد عن الانهماك في الشهوات، إضافة إلى أنّه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يعمل كلّ شيء للشأن العام، وكأنّه لم يفعل شيئاً، فلا يبحث عن أكبر لذّة، بل عن أشرفها. كما تمثّلت الخلافة والولاية في شخص اطفيش في تطبيق الإيثار، فكان يؤثر الناسَ على نفسه، ويقدّمهم على عياله، ويواسيهم في السرّاء والضرّاء.

3. **قُطب الزمان:** يقصد بالزمان في توصيف المتصوّفة: ما يقتضيه الاستعداد لغير المجعول ويرتبط الزمان بالمقام الأعلى (السلطان) باعتبار القطب مركزَ الدائرة ومحيطَها ومرآةَ الحقّ، وعلى القطبية مدار العلم ومنبتُه، فأطفيش فريد زمانه، ويُطلب في محيطه وخارج محيطه. ومن هنا استحقّ لقب (قطبُ الزمانِ) بغرض توصيل الأفكار التي لم يستطع أهلُ زمانه توصيلَها إلى محيطه، ولذا التفّ عليه الجمعُ وأسبغوا عليه لقبَ (القطب) لاستحقاقه؛ فحيثما نظرتَ إليه غابتْ عنك مراتبُ أخرى، فكأنّه مكعّب سحري، فأيّة جهة أدركتها لم تستطع إدراك جهات أخرى. ومن هنا لقّب بقطب المغرب والمشرق. ففي المغرب كان قطباً يقصده علماء المنطقة للإفتاء، كما كان يُستشار من علماء المغرب الأقصى ومن أهل شنقيط، وفي الخارج نعرف أنّه حجّ سنة 1886م وسمع به مفتى الحرم الشريف فقدّمه لإلقاء الدروس، فكثُر القومُ على حلقته، ودعاه المفتي لمزيد من البقاء في بيت الله الحرام، ولما سمعَ به سلطانُ زنجبار استدعاه معلّماً ناصحاً. وهكذا كان يدور في العالم الإسلامي، ومن خلال تنقّلاته أقام علاقات علمية مع كثير من أعلام النهضة العربية وأعلام الفكر الإسلامي، وبخاصة الشيخ محمد عبده، وعلماء عُمان.

4. قُطب الوقت: كما رأينا فإنّ اطْفَيَش فريدُ زمانه، فهو قطبُ وقته؛ فالوقت هو الحال القائم بالإنسان بحسب الاستعداد، أو التجلّي الإلهي بحسب استعداد الشخص، فالوقت هو الحال الحاضر للعبد، الحاضر فقط دون الماضي والمستقبل. فالعالم اطفيش كان مهيأً لفتح داره للتدريس والتأليف قبل أن تكون له الدار، وفتحها بعد أن كانت له، وأصبحت محجّ الباحثين عن العلم والإيواء والتطلاب، كما فتح مكتبته للباحثين، وأفرغ جهده في إصلاح المجتمع، بهدف خدمة الإسلام قولاً وفعلاً، فكان يغتنم أوقاته لتفريغ معلوماته في زمانه بحسب توزيعها على جبهات: جبهة إلقاء دروس الوعظ والإرشاد كلّ صباح بعد صلاة الفجر، وجبهة التدريس من الصباح إلى الزوال، وجبهة استقبال الطلاب بعد صلاة العصر، وجبهة التأليف ليلاً.

5. واحد الزمان: إنّ اطفيش من الأفذاذ الذين قلّت نظائرهم في العالم الإسلامي؛ فقد لُقّبَ بقطب المغرب والمشرق بحكم أنّه فقيه وعالم ومفتي وصاحب عدل وحافظ متون، فلم تخفِ عنه الأدلّة الشرعية ولا أخلفَ الأدلةَ النقلية، كان يقيم المسائل من خلال القرآن والسنّة الشريفة، ويعتمد آراء المذاهب الإسلامية، جمعَ بين سعة العلم، ودقةَ النظر، وصدقَ الحكم، حتى سطع نجمُه أمام أترابه بعصاميته، فتمكّن كلّ التمكّن علماً وفقهاً وتصوّفاً؛ حيث فَقَهَ المسائل، وأدرك أسرارَها ومحّص صفاتِها، فاستحقّ لقب القُطبية المحدودة في الزمان والمكان.

6. شخص الوقت: إنّ القطب اطفيش كان قد شمّر عن ساعد العمل، فجدّ في البناء التربوي؛ حيث أسّس معهداً إسلامياً في بني يزگن بغرض إصلاح المجتمع الميزابي، ومن خلاله إصلاح المجتمع الجزائري

والإسلامي، وعمل على توجيهه توجيهاً إسلامياً حنيفياً، فحمّل طلابه تبعة نشر أفكاره القطبية في بني يزگن وفي خارجها، وحمّلهم كذلك رسالة تبليغ المعرفة العلمية الصحيحة المصاحبة للورع العلمي الذي هو عماد الدين، وهو الكفّ عمّا يوجب النار؛ حيث كان يؤكّد على أنّ العلم يبنى على التقوى وإخلاص النيّة والالتزام بالقيم الأخلاقية الإسلامية ومحاربة الجهل.

7. صاحب الوقت: هو الصديق والقرين؛ فتعني اللفظتان: شخص مفرد متعيّن في الزمان والمكان يتّحد بالقطب من حيث إنّ هذا الأخير واحد في وقته، له التحكّم في العالم بشرع زمانه (فريد زمان) ويقال:

لكلّ زمان واحدٌ هو عينُه وإنّي   ذاك الشخصُ في العصر أوحـــدُ

هذا على وجه العموم، وأما على وجه خصوص الخصوص فتطلق الكلمتان على من جُمعت له الحالات، وأقيم مقام الشفاعة، فهو سيّد القوم وصاحب الوقت وخليفة الله في أرضه. إنّ الحاج اطْفَيَش لم يتلقَ القطبية عن غيره (عصامي) كان قطبَ الرحى حيث يدور حوله العلماء، فهو فَلَكٌ واسع يدور عليه المريدون، خاض الكفاحَ معهم، ورفض معهم كلّ مظاهر الجمود الفكري والتعصّب المذهبي داعياً إلى العلم النافع وتطهير النفوس الإسلامية من الجهل، ولهذه الخصلة الكبيرة استحقّ لقب (صاحب الوقت).

8. عبد الله: إنّ ما سوى الحقّ هو عبدُ الله، فالعبدُ الإلهي الذي اكتسبَ صفة الإلهي للصورة التي خُلقَ عليها. فعبدُ الله هو العبدُ الذي استخلصَ نفسَه من عبودية كلّ ما سوى الله، فكان خالصَ العبودية. والمقصود هنا هو الإسوةُ الحسنةُ بأخلاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث حُسْنُ الخلق أحدُ

مراكبِ النّجاة، ومن لا أخلاقَ له فلا دينَ له. ومن هنا فقد شمّر اطْفَيَش عن ساعد العمل إسوة بعباد الله العلماء العاملين فالعالم العامل هو عبد من عباد الله الذين رضي عنهم بأن مدّهم الوعاء العلمي الفيّاض الذي لا تنتهي عجائبه وخيراته، فلذا كان اطفيش فيضاً من الإلهام العلمي في العلوم النقلية والفقهية والشرعية.

9. الحجاب الأعلى: الحجاب هو المنع والحاجز، وهو باب وطريق موصل للمحجوب به، فلا وصول إلى المحجوب إلاّ من الحجاب؛ فالحجاب هو الفاصل لكنّه الموصل إلى الحقيقة، وليس الفاصل المانع. الحجاب عند المتصوّفة ما لا يمنع الإنسان من الوصول إلى مطلوبه، بل يحجبه ثمّ يصبح عين القصد؛ لأنّه الدليل والطريق الموصل للمعرفة. لقد اجتمعت في اطفيش صفات العالم العامل، وهذا ممّا مكّنه من العلم الأصيل، العلم المجاري لأحداث العصر استقاءً من الأصالة، ولذا لم يكن من أولئك النسّاك الزاهدين الذي تحجبهم الاستغراقات الدروشية في الملكوت حتى ينقطع عن العالم وعمّا حوله بل كان من أولئك الذين يعيشون أوقاتهم مع أهله وقريته وطلابه، يتأثّر بما يتأثّرون، ويعمل على كشف الغمّة عليهم، فكان يضيره كلّ مساس بما اتّفقت عليه الجماعة، وما أقرّته العزّابة، بل وكلّ مساس بالإسلام، فلا يسكت عن باطل، ويستنكر البدع والجهل، وكان يستجيب لحركة النهضة في المشرق، بل دخل عضواً فاعلاً في كثير منها. ومن خلال أفعاله هذه يتمثّل أمامي قول أبي الحسن الحُصري الذي يقول: الصوفي وَجْدُه وُجودُه، وصفاتُه حجابُه.

10. مرآة الحقّ: المرآة هو الوجه المشرق للإنسان؛ حيث تعكس أفعالُه الصدقَ والوجوبَ والنصيبَ والحظَ، وما وجب للشيء بعين الاستحقاق.

والحقّ هو الله من حيث ذاتُه المجرّدة عن كلّ وصف ونسبة، بل من حيث ألوهيتُه للخلق. الحقُّ عند اطفيش هو العدل والإنصاف وهو صفة الإنسان الكامل، بل هو الأمر والنّهي، والحقّ يتجلّى على الدوام، فلا يسقط ولا يُتنازل عنه، فمن يتنازل عن حقّه يتنازل عن واجبه، فالحقّ يعلو ولا يُعلى عليه، والحقّ لا يحصل إلاّ عند وجود خميرة صالحة؛ فحيث وجود خميرة فاسدة تعني عجيناً فاسداً، والإنسان ابن التربية. ومن هنا كان اطْفَيَش يركّز على التربية التي تأتي من البيت أولاً، ثمّ تربية الكتّاب ثانياً، وتختتم بتربية المدرسة، فيوصي بأنّ الصغير عليه أن يتربّى في البيت، ثمّ عند الكتّاب وما يأخذه من المدرسة، ولا مانع أن يحضر جلسات العزّابة حيث يتربّى رجل الغد. وتشير المصادر أنّه كان عضواً في العزّابة؛ ومهمّته إلقاء الدروس والتوعية وتولّي غسل الأموات، ويروى عنه أنّه كثير الترداد لبيت:

إذا أُصيبَ القومُ في أخــلاقهم   فأقِمْ عليهم مَأتماً وعويـــــــلاً

وبهذا التأكيد والتركيز على التربية أرى اطفيش عالماً مجداً لم يصب بالحلول الذي تبنّاه الحلاج في أنّه الحقّ، أو ما في الجبّة إلاّ الله، فهو إنسان يرى الأمور من منظور البشر بإعمال الحكمة في مقام وإعمال الحيلة في مقام، حيث الإمامة تقتضي ذلك، كما أنّ الخلوة لا تأتي بالحلول. ولهذا نراه عضواً في تشكيلات وطنية ودولية؛ بغرض إفادة المجتمع في ما وهبه الله من علم يُنتفع به.

الخاتمة: من وراء كلّ هذا نعلم أنّ العالم العصامي اطْفَيَش لم تحصل له القطبية إلاّ بحقّ اليقين دراسةً وتدريساً ومُمارسةً ونُصحاً، وكذلك بعد دراسته لأمّهات الكتب الدينية والعلمية والمنطقية والصوفية، حيث

كان ينام في المكتبات مُتصفّحاً قارئاً، ومُلخّصاً سريعاً، فدرس ودرّس، ونقّح وحقّق فحصلت هل القطبية العلمية باعتبار فَرادته في أهل زمانه وفي مكانه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ صوفيته لم تكن صوفيةً مُتنسّكة زاهدة دروشية؛ حيث كان يقف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً وهي الأخلاق الإلهية الصحيحة، إلى جانب أعماله وأخلاقه وإيمانه القوي الذي لا يفترّ أمام الحواجز والصعوبات والتي جعلته يرفع دعوة الإصلاح والاجتهاد واستعمال العقل في النقل، ومتابعة مجريات الأمور في بلدته بني يزگن وبلده الجزائر وفي خارج بلاده، والتألّم من أذى الاستعمار الذي يعدّه مظهراً من مظاهر الشرك؛ حيث كان يدعو إلى محاربته بمقاطعة سلعه أولاً، وعدم التعامل معه في أيّ شيء ثانياً، بل الثورة عليه في كلّ مكان وزمان ثالثاً، وعدم مهادنته حيث وجد أو ارتحل رابعاً فهو الشرك المشرك المذنب الذي لا يجوز التعامل معه، بل إنّ معاداتِه واجبةٌ، وفي شرع الله آمرة وفي سنّة رسوله طاعة.

ومع كلّ هذا فلم يهدأ من المناوئين له، وكان يصنّفهم مع جبهة الاستعمار، ولم يستكن لهم، بل كان يحاربهم بقلمه، وفي كلّ خطبه كان يقول بالقول الناصح والكلمة الطيّبة، ويدعو لهم بالهداية إلى الرشد والصواب، وغاية أمره الحِلم والتواضع، وأتمثّل فيه الشريف الرضي الذي قال:

وللحِلم أوقاتٌ وللجهل مثلُهـــا ولكن أوقاتي إلى الحلم أقـــرَبُ
يصول عليَّ الجاهلون وأعتلي ويُعجم فيَّ القائلـــون وأُعـرِبُ
يرون احتمالي غُصّةً ويزيدهم لواعجَ ضغن أنّني لستُ أغضَبُ

وأخيراً هي كلمة أهديها لروح اطْفَيَش فأقولها: رُحماك أيّها القطب؛ فبفضل فطرتك الدينية، وثاقبِ فطنتك العلمية، وما ميّز الله به من حنكتك

وتجربتك، نلت لقب (قطب الأمّة) وما جاورها من القطبية العلمية، فكم لك من منقبةٍ تُجلى وتعظُم، وكم لك في خدمة البلاد الإسلامية من مَأثرة تُؤثر، فيغري الثناءُ عليك ويلهجُ، وإنّه لا توجد خلّةُ فضلِ بارعٍ إلاّ وقد جمعتَها، ولا مُكنةُ جبرٍ إلاّ مهدتَ محجّتها فاجتماعُ المآثر سمحتْ بما كنتَ به ضنيناً، وبذلتَ ما كنت عليه شحيحاً، فاستحققتَ جدارةً إمامة؛ حيث وحّدت بالإجماع، وتوليتَ المحامد بما شاع وذاع. فإنّ دولتنا المجيدة بقطبك محتفيةٌ، بأمثالك متباهيةٌ وبأتباعك مفتخرةٌ، وبمن يكتب عليك راضيةٌ، فسوف يقلّدك المجلس الأعلى أعلى المنازل ويمنحك وسام الفطاحل، وخذ منّا أعمال هذا اليوم وفاخرْ، وزِدْه إلى محامد أعمالك وكابرْ، ولنجعلَه من الصدقات الجاريات، لفيض علمك في القطبيات، ولسوق موادك الخالدات.

رسالة الرد على إلحاق وادي ميزاب والإعتراض على مشروع قانون النائب جاك بيو الخاص بتعديل

الملكية العقارية بالجزائر/1894م

للشيخ امحمد بن يوسف اطفيش

أ.عائشة يطو- جامعة سيدي بلعباس


119

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم



موضوع المخطوط

لم يكن الغرض من كتابة هذه الرسالة هو تدوين تاريخ منطقة وادي ميزاب في القرن التاسع عشر الميلادي,وإنما وجهها الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش إلى الوالي العام الفرنسي جول كومبون Jules Combon، بتاريخ 12 ربيع الأول 1412هـ/1894م ، الغاية منها الإعترض على تطبيق القانون الرامي إلى تعديل قانون الملكية العقارية بالجزائر خاصة ميراث ذوي الأرحام على منطقة وادي ميزاب، والذي عرض مشروعه على مجلس الأمة الذي ناقشه يومي 15 و 16 فبراير 1894م.

منهج المؤلف

المخطوط ينتمي إلى أحد أصناف الفنون الأدبية وهو النثر، ويندرج تحت ما يسمى بفن المراسلة. وهو خالٍ من عبارات السجع والبديع، كونه رسالة رسمية من رئيس هيئة العزابة إلى الوالي العام بالعاصمة، غلب عليه منهج الاستقراء للواقع المعاش والأحداث المتتالية والاستنباط من الكتب السماوية والاستشهاد منها ومن السنة النبوية والإحتجاج بالقانون الفرنسي والمعاهدة الموقعة بين الجانبين.

لقد عمد القطب في الشطر الأول من الرسالة الذي استهله بالخطبة إلى استخدام أسلوب الحوار والمناقشة بحيث قام بتفكيك القرار الصادر من الوالي العام الفرنسي القاضي بإلحاق وادي ميزاب وإلغاء الإتفاقية التي نظمت العلاقات بين الجانبين منذ 1853، والرد على كل ما بررت به فرنسا الإجراء الذي اتخذته بشأن هذه المنطقة.

واعتمد في رده على بنود الاتفاقية أولا وما ينفي من الواقع نقضها، ثم يثبت من خلالها أن فرنسا هي التي لم تحترم ما اتفق عليه على سبيل المثال قول الجنرال: «...أعطى بعضكم الحكم...»، والأصل في المعاهدة أن لا تتدخل فرنسا في الشؤون الداخلية لوادي ميزاب.

ثم يسترسل في استنباط حججه من القانون الفرنسي ذاته ليقيم الحجة على فرنسا وهذا أسلوب المحاربة أو المقاومة بقانونها، إذ أن هذا الأخير يقضي بعدم شرعية الإلحاق المطبّق على وادي ميزاب، بحكم المعاهدة السابقة له. وكونه لم يعرض على مجلس الأمة وبالتالي فإنه لم يُستصدر قانونا لتطبيق هذا الإلحاق.

والملاحظ أن القطب استخدم مصادر لم يصرح بها كنص المعاهدة، ورسالة القائد دبراي ورسالة الوالي العام المتعلقة بالإلحاق، بالرغم من أنه أوردها كاملة في آخر المخطوط، وكذا تقرير وزيري الحربية والداخلية الذي كان بعد قرار الوالي العام، والذي فيما بعد نُفّذ على أساسه الإلحاق وأخيرا الجريدة الرسمية.

في حين صرح بباقي مصادره، كم أنه في بعض المواضع صرّح ببعض المصادر ولم يورد الشواهد.

ثم ينتقل بعد فراغه من إقامة الحجة على فرنسا ببطلان الإلحاق والتأكيد على استمرار المعاهدة، إلى المطالبة بعدم تطبيق القرار المزمع استصداره من خلال مشروع القانون المناقش من طرف مجلس الأمة على منطقة وادي ميزاب موضحا حكم الشريعة الإسلامية في ميراث ذوي الأرحام، ويؤكد على طلبه الأخير برسالة الوالي العام الفرنسي المؤرخة في نوفمبر 1882م التي حملت قرار الإلحاق للمنطقة، لما تحويه من عهد ووعد بترك الإباضيين لحكم مشائخهم، إذ جاء ذلك صريحا في قول ترمان «...فما مرادنا إلا احترام عوائدكم المتواترة بحيث لا نوظف عليكم آغا ولا قائدا ولا قاضيا من أبناء العرب بل نترككم على حسب ما توجبه فوائدكم ومرافقكم مرتبطين بجماعتكم فيما

يؤول إلى تصرفاتكم متعلقين بمشائخكم الإباضية فيما يرجع إلى فصل نوازلكم ونكون نحن معضدين مؤكدين لحكم رؤسائكم ممضين منفذين لآراء مشائخكم...»

كما يلاحظ عليه استعمال التكرار في المعنى لبعض العبارات والمواضيع، في أكثر من موقع، على سبيل المثال ما ذكره في السطر الثامن والتاسع» ولنا أنه إنما ينتقص لو أعنا جيشا عليكم... أو قطعنا الدراهم التي نعطيكموها» وكرره في السطر السابع عشر «...لنا إنما ذلك لو ظاهرنا جيشا أو قطعنا الخراج أو نقصنا منه...»، وأيضًا ما جاء في السطر السادس والسابع «... ونصلح الفساد ما قدرنا على قدر الطاقة... وإصلاح الفساد على قدر طاقتنا...».

وتكرر في السطر الرابع عشر «...قال: القتل والإفساد حرام... لنا: أنه حرام إلا أن الواجب علينا دفع ذلك بقدر الطاقة...».

أيضا من الملفت للنظر أن القطب أورد الأحاديث المتعلقة بميراث ذوي الأرحام، بروايات متعددة وكثيرة، وبالتالي فإن هذا التكرار إنما يعكس إرادته في التأكيد على قوة حجته على خصمه.كما أنه استعمل بعض المصطلحات التي و إن كانت لغوية في ظاهرها إلا أنها في المخطوط تدل على استعمال ومعنى عامي كمصطلح القبلة الذي يدل على نطاق جغرافي معين في الجزائر.

وأخيرا ، تجدر الإِشارة إلى أن الشيخ استعمل أسلوب المراوغة والمداراة إذ أنه معروف عنه موقفه من الاستعمار كما سبق الكلام عن ذلك وتحليله في البحث، وأنه كان من أكثر المعارضين للمعاهدة. لكنه في هذا المقام احتج بها ما دام أنه أمر قد نفذ رغما عنه، ثم إنه أورد

في الرسالة من المواقف ما يوحي بالامتثال التام من طرف الميزابيين لتعاليم الاستعمار والاحترام والتمسك ببنود المعاهدة، مع أن الواقع يشهد بالعكس إذ أن القطب خاصة كان محرّضا على الجهاد، وتولى الإشراف على تمويل المجاهدين بالأسلحة وله من المواقف الكثير ما يشهد له ولبني نحلته بإخلاصهم للوطن والأمة الإسلامية.

مصادره

اعتمد القطب في تحرير رسالته على ما يجعلها أكثر إقناعا وأقوى حجة، فكان أن استهل بالرد على قرار الإلحاق بدمغ مبررات فرنسا في تطبيقه، على ما يشهد به الواقع والأحداث التي تعاقبت على المنطقة منذ عقد الإتفاقية إلى سنة 1882، وما جاء في بنود اتفاقية سنة 1853، والحكم الموقع يوم 3 مارس 1881 بمعسكر، وتقرير وزيري الداخلية والحربية والقانون الفرنسي المتعلق ببيع الشرط والإلحاق والعهد القديم والعهد الجديد، والفقه السياسي الإباضي.

أما بشأن مشروع القرار الذي تقدمت به لجنة الجزائر والنائب جاك بيو Jaques Piou، فهو يعتمد في المطالبة بعدم تطبيقه على منطقة وادي ميزاب على بنود الإتفاقية ، بحيث يؤكد على سريانها رغم قرار الإلحاق، وبالتالي فإن القانون الذي إن وافق عليه مجلس الأمة، لا يمكن أن يسري على قرى وادي ميزاب. ويحاول في إطار توضيح حكم الشريعة الإسلامية في الميراث،جمع الأدلة الوافية والقاطعة من القرآن ، ثم من السنة ، بحيث اعتمد على مسند الإمام الربيع بن حبيب وهو مصدر إباضي والمستدرك على الصحيحين للإمام الحاكم، سنن ابن ماجة، السنن الكبرى للبيهقي، سنن أبي داؤد، صحيح مسلم، صحيح

البخاري، سنن الترمذي، صحيح ابن حبان ومذهب أبي حنيفة. وأورد إجماع الأمة المحمدية على تحريم أن يرث الكافر المسلم.

نسخ المخطوط

النسخة (1): الأصلية

هي الأقدم حسب تاريخ وفاة ناسخها، كاملة،وصفها كالآتي في مكتبة الأستاذ محمد بن أيوب الحاج سعيد: (هي السادسة والثمانون والأخيرة ضمن مجموع رسائل القطب (120 ص)، والمخطوط من ص119 الى ص 120 اشتمل الرد على ثلاث اقسام: الأول على الأسباب التي تذرعت بها فرنسا لنقض معاهدة 1853، والثاني على نقض المعاهدة المذكورة مسبقا،أما الثالث فلنقل لنص وثيقة نقض فرنسا المعاهدة, المؤرخة في 1/11/1882 ، أُثبت اسم الناسخ بمقارنة الخط، حالة الحفظ متوسطة. في ص 115 تمليكة باسم الشيخ حمو بن باحمد بابا وموسى، وفي ص120 ختم صاحب الخزانة، رقم المخطوط 12. أما عنوان الرسالة المثبت فهو: «رد على نقض فرنسا لمعاهدة 1853 للقطب، الناسخ محمد بن باحمد وموسى[189] - نسخ حديث- صفحتان – الصفحة الأولى 48 سطرًا – الصفحة الثانية 41 سطرًا - مقاس الصفحة الواحدة (25.5 19.2 X) – نوع الخط مغربي مقروء- بداية المخطوط كتب بحبر رمادي والباقي بالأزرق على ورق المخطوط الأصفر– كامل. (المخطوط ضمن قسم التاريخ والجغرافيا).

189- محمد بن باحمد ابن صالح ابن أحمد الداوي بابا وموسى (و: 1313هـ/1895م - ت: 17 جمادى الثانية 1394هـ/7جوان 1974م).

- معجم أعلام الإباضية, الإباضية منذ نشأة المذهب إلى نهاية ق14(جزء المغرب)- جمعية التراث- إشراف د.محمد ناصر صالح و لجنة من الأساتذة. القرارة 1995 , ج4 ,ص769.

وهي خالية من تاريخ النسخ، غير معنونة، مرقمة بالأرقام الهندية، على هامش الصفحة الثانية إستدراكا لبعض الكلمات الساقطة من متن السطر السادس والعشرين، وهي بخط المتن نفسه.

النسخة (2):

هي نسخة كتبت بعد وفاة الشيخ القطب،
وهي ناقصة عن النسخة (1) ، إذ أنها خالية من نص رسالة الوالي العام الفرنسي «ترمان» لأهل وادي ميزاب والمؤرخة في 1نوفمبر1882.

أما ناسخها فهو الشيخ عمر بن يوسف عبد الرحمن[190]، توجد النسخة الأصلية بمؤسسة عمّي سعيد، كما توجد نسخة مصورة عن الأصلية، بمكتبة القطب تحت رقم أز6 .

والملاحظ على هذه النسخة أنها تكاد تكون متطابقة مع النسخة (1) عدا ثلاث عشر موضعًا للإختلاف، أهمها رسالة الوالي العام ترمان لأهل وادي ميزاب، حيث وردت في النسخة (1) كاملة، في حين تمت الإشارة إليها فقط في النسخة (2) وعدا ذلك فهي إختلافات إملائية ونحوية، عدا الحديث النبوي الشريف « إبن الأخت منهم » الذي ورد صحيحا من ناحية المتن في النسخة (1).

النسخة (3):

وهي مبتورة بحيث أنها تخلو من رسالة الوالي العام لأهل وادي ميزاب المؤرخة في 1 نوفمبر 1882، كما أنها خالية من جزئ الرسالة الذي يطالب فيه الشيخ الوالي العام بإلغاء مشروع القرار المتعلق بتغيير حكم

190- عبد الرحمن الحاج عمر بن الحاج يوسف اليسجني (و: 16/09/1916م :ت: 12/06/1996م).
- ينظر: حياة الشيخ عبد الرحمن الحاج عمر بن الحاج يوسف اليسجبني و جهاده في سبيل العلم و التعليم, بقلم تلميذه: الحاج سعيد باحمد بن باسعيد, رتبه: الأستاذ كروم الحاج أحمد بن حمو, راجعه و صححه: الشيخ أيوب صدقي (1422هـ/2001م).

الشريعة الإسلامية في ميراث ذوي الأرحام ، إذ ستنتهي بعبارة «..... انتهى ما جرى اه».

والظاهر من النسخة أن الورق الذي خط عليه المخطوط ، ورق عادي مخطط حديث، وخط هذه النسخة مغربي جيّد مقروء ، خالية من الهوامش، وبها الكثير من الأخطاء، والعبارات الساقطة مقارنة مع النسختين (1) و(2)، إلا أنها صححت بعض من العبارات التي وردت خطأ في باقي النسخ ، الأمر الذي يسّر كثيراً فهم مضمون المخطوط، مثل عبارة « وخرجوا لقتاله» عوضا عن «وأخرجوه لقلت له». وهي الوحيدة المعنونة بـ : « الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه جواب الأستاذ الشيخ أطفّيش على الإلحاق المزعوم لمزاب»، والعنوان في السطر الثاني والثالث من الصفحة الأولى بعد الحمد لله والتصلية.

هذا بالإضافة إلى وجود نسخة لرسالة[191] بخط الشيخ بأرشيف Ex-provence مرسلة في نفس السنة للوالي العام الفرنسي لنفس السبب والموضوع.

قضايا المخطوط

1.معاهدة الحماية 22 أبريل 1853م

بعد إستيلاء فرنسا على قصر الأغواط كان عليها الاهتمام بوادي ميزاب[192]، فعرف بينهما مايسمى بإتفاقية أو معاهدة الحماية، وقِّعت

191- مصنفة تحت رقم 14-H22 بأرشيف اكس- بروفنس.

192- Jean Melia : ghardaia, , paris, lib: charpentier, edt: fasquelle, 1930,p :58.

بين القائد دبراي Dubarail نيابة عن الحاكم العام راندون Randon وممثلين عن المدن الميزابية، وكان ذلك في 29 أبريل 1853[193].

بنود الإتفاقية

تعهدت فرنسا للميزابييـن بـ :

1- حفظ بلادهم.

2- إحترام معتقداتهم.

3- صيانة عوائدهم.

4- لا تتدخل أبدا في أمورهم الداخلية.

5- تترك للمدن السبعة أن تعين فيما بينها القسط الذي تتحمله كل مدينة من الخراج الموعود به وهو 45 ألف فرنك سنويا.

6- وقد التزمت بلاد ميزاب بأن تغلق أبوابها وتوصد أسواقها في وجه أعداء فرنسا.

أما السلطة الفرنسية فإنها تقتصر على حفظ النظام العام في البلاد ورعاية حقوق الفرنسيين[194].

2. نظام الإلحاق

تمّ الإعلان عنه بمقتضى قرار 26 أغسطس 1881، وهذا القانون في مجمله يقضي بضم الإدارة الجزائرية نظريا إلى الإدارة الفرنسية في العاصمة وإلحاق كل فروعها حتى القضاء الشرعي بالوزارات المختصة بباريس، ممّا أدّى إلى تحديد دور الحاكم العام الذي لم يعد إلاّ مجرّد

193- حمّو عيسى النوري: : نبذة عن حياة الميزابيين الدينية و السياسية و العلمية من سنة 1505 إلى -1960 دار الكروان- باريس 1984 مج1، ص63

-حمّو عيسى النوري: المرجع السابق، ص: 272.

194-محمد عمر بن عيسى: : مذكرات ووثائق رسمية عن وادي ميزاب من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية من سنة 1853 الى 1951 . مطبعة النهضة - 1371 هـ / 1951 م. عدد 19. تونس.. ص: 63

ممثل لفرنسا، مع اتساع نطاق هذا النظام وتوزيع اختصاصات وزير الداخلية الفرنسي الخاصة بالجزائر على كل زملائه في الوزارة[195].

أهـداف الإلحـاق

1- تحقيق الامتيازات الاقتصادية

2- فتح أسواق جديدة والبحث عن المواد الأولية

3- زيادة مداخيل الخزينة

4- إحتكار تجارة العبيد والذهب

5- الإستيلاء على العقار

6- التجنيـــس

7- التنصيـــــر

8- تطويق الثورات والقضاء عليها

3- التنافس الفرنسي البريطاني ومشروع الحزام الإفريقي العرضي:

كانت فرنسا تهدف الى اقامة محاور للتبادل التجاري عبر الصحراء مع بلدان افريقيا الغربية من اجل منافسة المحاور التي تستخدمها بريطانيا. وعملت جاهدة على تنفيذ مشروعها الرامي إلى إقامة حزام فرنسي عبر افريقيا من الشرق الى الغرب، وذلك بالتوغل من ممتلكاتها في الشرق والغرب صوب النيل. وبذلك تعرقل مشروع بريطانيا التي كانت تهدف من ورائه الى مدّ الأملاك البريطانية بصورة متصلة من الكاب حتى القاهرة.

195- جلال يحي: : السياسة الفرنسية في الجزائر من 1830 إلى 1959 ، دار المعرفة، القاهرة، ط1 ، سبتمبر 1959، ، ص259

Ageron Charles : les algeriens musulmants et la France (1871-1919) ,presse universitaire de France,1968

ويعد خط سكة عين الصفراء الذي يمرّ على فجيج ، تافيلالت ووادي درعة ، أحد محاور المنافسة بين بريطانيا وفرنسا.

وكانت فرنسا تخشى من سبق انجلترا لها الى السودان بعدما استقرت في رأس الرجاء الصالح[196] وبعد الاستيلاء على الهقار ، وفرض الحماية على المغرب ، فتحت الطريق أمامها من الجزائر الى السودان[197].

4- مشروع سكة الحديد العابر للصحراء:

عملت فرنسا على ضم مساحات من الأراضي على الحدود إلى الجزائر مما زاد في مساحة هذا الإقليم، كما أدى توسعها صوب الشرق والغرب والجنوب إلى زيادة مساحة الأراضي التي تحتلها في شمال إفريقيا. وبالرغم من أنها أصبحت تملك الوضعية الأمثل في هذه القارة إلا أنها لم تحاول الاستفادة منه[198].

لكن ما قامت به بريطانيا من دراسات لإمكانية إقامة مشروع لسكة حديد، يمكنها من ربط مستعمراتها ، ينطلق من زنجبار ويربط البحيرات العشر ببحر الهند، جعل الفرنسيين يدركون مدى أهمية هذا المشروع. إذ أن فرنسا لم تكن ترغب في خلق مقاطعات جديدة أو وحدات استعمارية قائمة بذاتها. يقول: Duponchel في دراسته للمشروع التي أسماها le transsaharien ، والتي حدد فيها جهة هذا الخط بحيث ينطلق من الجزائر إلى مركز الهضاب الداخلية لإفريقيا وينفذّ عبر وادي ريغ وورقلة: «من الطبيعي أن ما يحصل يجعلنا نستنتج أنه من أجل أن

196 - B: Brahim Ben Youcef :le M>zab ,imprimerie Abou Daoud,el harrach,P 201.
F. Abadi:letters sur le transaharien, Constantine, imp L.Marle 1880.P8,9 -

197- أندري برنيان: : الجزائر بين الماضي و الحاضر, ترجمة إسطنبولي رابح و منصف عاشور, ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر 1984م . ص 396

198- جلال يحي : المرجع السابق . ص 201

لا نبقى بعيدين عن إنجلترا منافستنا، ومن أجل إقتصادنا وصناعتنا التي هي في وضع حرج، فإنه من الضروري ربط الجزائر بخط سكة حديد»[199].

فكان أن بدأت في دراسته منذ سنه1880 ،حيث أرسلت البعثات وحملات الاستكشاف إلى المناطق المزمع إنجازه عليها. وكان الهدف الرئيسي والأكبر منه هو وصل شمال افريقا بغربها[200].

وقد قام المهندس جورج رولان G.Rolland بدراسة جيولوجية شاملة لمنطقة وادي ريغ، و رأت البعثة المخصصة لدراسة المشروع اختيار الخط الرابط بين بسكرة ورقْلة والغوليا لفائدة النقل التجاري.

لقد لقي المشروع كثيراً من المؤيدين ، خصوصاً وأنه كان يعود على الإمبراطورية الفرنسية بمزايا واضحة من النواحي الاقتصادية والاستراتيجية. لكن عوامل مختلفة تدخلت في تنفيذه ،إذ أن الحكومة الفرنسية لم تكن بقادرة على احتلال الصحراء في ذلك الوقت ، وكانت ترغب في ترك المشروع يُنفّذ في البداية لكي يساعد على توغلها في الصحراء ، ولكن الجهات الفنية والأوساط المالية رفضت القيام به إلا اذا ما قررت الحكومة إرسال قوات عسكرية إلى الصحراء الكبرى ، أي احتلال هذه الصحراء ،أو في حالة طلبها إنشاء سكة حديد استراتيجية واختيارها للنقط والمدن والواحات التي ستمر بها[201] .

لقد كانت فرنسا تدرك تماماً أهمية المناطق الجنوبية للجزائر آنذاك، بحيث كانت تتركز في أيدي البربر كبني ميزاب وبني توات كل

199- Duponchel: le chemin de fer transaharien,etude prelimenaire du projet et rapport de mission,paris,lib hachette et Cie 1879 P:5 , 6

200- جلال يحي :المرجع السابق,ص 201

201- جلال يحيى: المرجع السابق . ص 203

المبادرات التجارية المغربية مع تمبكتو والسودان، وبالتالي فإن احتلال مناطقهم يعني التحكم في شريان الحياة لديهم ، ألا وهو اقتصادهم.

لقد كانت توقعات فرنسا من وادي ميزاب كبيرة لإنجاح مشروع سكة الحديد، كما هو الشأن بالنسبة لواحات أخرى كثيرة لا تقل أهمية، وذلك اعتباراً لموقعها، وبالتالي احتكارها لطرق التجارة، أو غناها، بما يمكن تزويد وسيلة النقل هذه بكل البضائع ذات الأهمية التجارية والاقتصادية، كالمواد الأولية.

وبالتأكيد لم يبق لفرنسا أدنى شك في موقع وادي ميزاب بالنسبة لخط سكة الحديد، بعدما استطاع دوفيري Duveyrier إختراق الصحراء الوسطى مرورا بميزاب وبلاد الشعانبة ذهابا إلى الغوليا، وكان بذلك أول فرنسي يمرّ بأقصى طريق يربط الجزائر وبلاد السودان.

5- مشروع البحر الداخلي

كان هدف فرنسا هو إيجاد سياسة مائية تمكنها من تبديل حالة ميزاب الاقتصادية من حيث المنتجات بسرعة ، وكانت ترى أن النهرين اللذين يحيطان بتراب ميزاب شمالا واللذين ملؤهما كثير، يُستطاع الانتفاع بسهولة بمياههما للسقي[202].

ولم يقف طموح فرنسا عند هذا الحد لكنه تعدى إلى إمكانية إنجاز مشروع يرمي إلى تفجير بحر داخلي، لقي تأييد أطراف ومعارضة آخرين أمثال Daunrée, Cosson, وPomel.

والتنقيب عن المياه لم يكن بطبيعة الحال ليخدم السكان الأصليين لهذه المناطق، فالمسألة كلها كانت منصبّة على تهيئة الجو المناسب

202- محمد عمر بن عيسى: المرجع السابق, ص49.

لإقامة المعمرين، لتمكينهم من استغلال الأراضي بكل أنواعها، وهذا يقودنا إلى الحديث عن موضوع المضاربات الفلاحية التي شكلت محوراً أساسيا في نظام الإلحاق.

5- توظيف رؤوس الأموال والمضاربات الفلاحية

كان الهدف المبدئي لهذا الترتيب، هو وضع إصلاح فلاحي دون تكاليف لجميع الأراضي، والقيام بإحياء الأرض الفلاحية حول السكك الحديدية عبر الصحراء، ومن أجل ذلك، تم إنشاء شركات رأسمالية، قام ببعثها أنصار سان سيمون و منها شركة وادي ريغ التي اشترت بالمزاد العلني ثلاث واحات في سنة 1878، ثم شركة باتنة التي تحصلت على ثلاث واحات منها أورير في سنة 1882.

كما وفّرت الآبار الارتوازية ظروفاً ملائمة لهذه المضاربات وبُذلت الأموال الطائلة بدون أساس علمي صحيح وراء الطمع في تطوير الاستعمار بتواطؤ الأوساط المنتمية إلى سان سيمون التي مدّت في القنوات للآبار الأرتوازية وفي مشاريع الري رودار (Roudaire) انطلاقاً من سواحل البحر الأبيض المتوسط و شط ملغير، وأقيمت هذه المشاريع على أسس خاطئة في قياس مستويات الارتفاع ولم يكن لأحد أن يجني ثمار هذه المضاربات، غير الإستعمار فقد حصدتها الشركات الرأسمالية من شيعة سان سيمون و فارناند فورو F.Foureau سنة 1880 وأعوانهم المسلمون في الإدارة الفرنسية

7- الفتن والصراع داخل وادي ميزاب

إن الوضع الذي آلت إليه القرى الميزابية من قتل وسلب وتعقيد في المعاملات والعلاقات الاجتماعية بين مختلف الفئات التي يتكون منها

هذا الإتحاد، ليس بالجديد وإنما هو امتداد للوضع الذي كانت عليه من قبل عقد معاهدة 1853م.

ولقد حصر صاحب كتاب تاريخ بني ميزاب، أسبابها في أربع، وهي العصبية القبلية، الانحطاط الثقافي، غياب سلطة مادية قاهرة كالجيش النظامي أو الشرطة، وازدواجية الصف وهو أهمها، إذ أن العشائر الميزابية كانت تشكل كتلتين، صف غربي وآخر شرقي، وكان الصراع على السلطة بينهما على أوجه[203]. وقد كان هذا الوضع بالنسبة لفرنسا ذريعة اتخذتها للضغط عليهم لقبول المعاهدة، بحجة بغية إقامة النظام وإحلال السلام، وقد كان الاتفاق بينها وبينهم على ذلك.

ولم يقف بنو امزاب أمام هذا الوضع مكتوفي الأيدي، بل قام مجلس العزابة باتخاذ إجراءات وقائية وردعية، وذلك منذ مطلع القرن السابع عشر الميلادي. وجاء في مستهل قراراتهم أن من يحمل الحديد فغرامته عقوبة خمسة وعشرين ريالاً، والذي ضرب به فخمسين ريالا والنفي، والحامية فغرامتها خمسة وعشرون ريالا[204]. وممّا سعّر نارالفتن أكثر هو المعاهدة نفسها، إذ أنها تسببت في شق صف الأمة الميزابية إلى مؤيد لها، وصفٍّ رافض لها والمتمثل في العزابة[205] ، والذين استنجدوا بالثائر محمد بن عبد الله بمعية الميزابين المقيمين في التل، مما دفع بالمارشال راندون إلى إخضاعهم في سنة 1853م[206] ، و كثر الإقتتال

203- يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب- المطبعة العربية- غرداية 1992
المرجع السابق، ص71.
Ernest Mercier : L'Algérie en 1880 ,paris: challamel, Aine edt, lib: algerienne et coloniale 1880 p:197
L. D'Armagnac :le mzab et les pays chaambas, edition baconnier, Alger, 12 Mai 1934 , p:40

204- يوسف بن بكير: المرجع نفسه، ص72.

205- Brahim Ben Youcef :op cit, p:170

206- يوسف بن بكير: المرجع نفسه ، ص98.

بين الطرفين ووقع ضحايا كثر بين 1853 و1881م[207] ، مّما أعطى للحاكم العام لويس ترمان سببا يتستّر وراءه لإلحاق وادي ميزاب في سنة 1882م.

مساندة الثوار بعد ابرام المعاهدة

يبدو أن المعاهدة لم تقف حائلاً أمام الميزابيين لمساندة الثوار من داخل قراهم، فقد كان هذا الوادي همزة الوصل بين الثورات وقبائل الصحراء، و مصدراً يمدها بالعتاد والأسلحة المصنوعة محلياً والمستوردة من الأسواق الحرة من ليبيا، وكثر تردد الثوار على أسواق ميزاب لشراء الذخيرة والأدوات الحربية، فانتعشت الثورات في الصحراء رغم ضراوة مقاومة الاستعمار.

لقد كان لهم مشاركة قوية في ثورة المقراني والشيخ الحداد، بحيث أسندت قيادتها في مركزها الرئيسي لبولنعاش أحمد بن صالح الذي سقط شهيداً أمام دار المقراني في مجانة، وخلفه أيضاً إبنه على قيادتها إلى حين التجائه إلى تركيا و بها توفي، وقامت فرنسا بمصادرة أملاك هذه العائلة إنتقاما منها[208].

وكان قادة أولاد سيدي الشيخ يعتمدون على الحاج عمر بن حمو بكلي شيخ عشيرة أولاد عبد الله بالعطف اعتماداً كلياً في تدعيم الثورة مادياً وأدبياً وإمدادها بالعتاد والذخيرة ويتناصرون بكل ثقة وأمان، وكان منزل الشيخ الحاج عمر بالعطف مثابة لرؤسائهم على مسمع من السلطة الفرنسية ومرأى منها[209].

207- Brahim Ben Youcef : op cit, p170

208- محمد عيسى النوري: المرجع السابق، ص302.

209- محمد عيسى النوري: المرجع نفسه، ص288.

ولعبت بني يزقن دوراً هاماً أيضاً في هذه الثورة، إذ كانت أحد المستودعات للتموين والعتاد والبارود، كما وقد تمت لقاءات عدة لقادة الثورة بالقرب منها ومن منطقة النومرات، مما أدى بالسلطات الاستعمارية إلى استصدار قرار من الوالي العام سنة 1864 يقضي بحجز جميع قوافل بني ميزاب وحرمانهم من الحبوب الآتية من الشمال.وفي سنة 1875، أرسل رئيس جماعة بني يزقن يوسف بن أحمد السرار رسالة إلى بوعمامة، يعرض عليه مساعدته لإثارة الميزابيين ضد الفرنسيين[210].

9- موقف الإباضية من الثورات على ضوء المذهب

ذكر البعض خبر مساندتهم للشريف محمد بن عبد الله، مما دفع بالمرشال راندون إلى إلزامهم بعقد المعاهدة ، من أجل قطع التمويل والمساعدة عليه[211]، وأكد البعض على رده وعدم الإنصياع له، ووصفه بقاطع الطريق، واتهامه هو ومن معه بالسلب والنهب، ثم تضارب الإباضية بينهم أيضاً بشأن دوافعهم، فهم يحملون على الشريف محمد بن عبد الله ، كونه حسب رأيهم كان موالياً لفرنسا، ثم انقلب عليها[212] ، في حين لا يقفون نفس الموقف، من الشيخ الحداد الذي كان يعمل كخليفة لمنطقة المجانة قرب سطيف تحت الإدارة الفرنسية بلقب باش آغا، وكان من طبقة الحكام الوطنيين الذين كان الفرنسيون يستخدمونهم في المناطق الخاضعة للإدارة غير المباشرة، وبعد الإجراءات التي اتخذتها فرنسا بعد سقوط حكومة نابليون إثر هزيمة فرنسا أمام ألمانيا، ومنها توسيع دائرة المناطق الخاصة الخاضعة للإدارة المدنية في الجزائر وذلك بإلغاء أجهزة الإدارة الوطنية وقرار كريميو القاضي بتجنيس اليهود ، قرر تقديم استقالته.

210- يوسف بن بكير: المرجع السابق, ص102.

211-يوسف بن بكير: المرجع نفسه, ص98.

212- حمو محمد عيسى النوري: المرجع السابق, ص301.

وكذا الشأن بالنسبة لموقفهم من الأمير عبد القادر، فمرة يذهبون إلى أنهم كانوا من جنده، أمدوه بالرجال ، ومن حاشيته وخواصه، وزوّدوه بالذهب لضرب سكته، وكان يُصنع له السلاح ، داخل وادي ميزاب ، ومن جهة أخرى رفضوا الخضوع له و دفع الضريبة له ككل القبائل التي خضعت له وكانت تجاهد معه[213] ، في حين كانوا عوناً كبيراً لثورة أولاد سيدي الشيخ حتى كانت أحد الأسباب التي أدت إلى إلحاق المنطقة بالإدارة الفرنسية العسكرية مباشرة سنة 1882م.

والأمر قد يعزى إلى اختلافهم كما كان الشأن بالنسبة لموقفهم من المعاهدة ثم إلى أحكام حالة الكتمان.

وهذه المرحلة هي أدنى درجات الجهاد في سبيل الله ، و فيها تفتر القوة و تضعف النفوس فيعجز المسلمون عن ردّ المظالم وإنكار المنكر إلا بالقلب، فترضى الأمة بالواقع و تستسلم لحكم الجبابرة ولا تجد سبيلاً للثورة ضد الحكم.

فإذا سلمنا بوجود الإباضية في مرحلة الكتمان في هذه الفترة التاريخية جاز لنا أن نقول أنها تفرض عليهم إنعزالاً سياسياً تاماً حفاظاً على كيانهم مما يجعلهم يركنون إلى الإنزواء حول أنفسهم رافضين كل ما يأتي من الخارج. ولعل هذا ما جعل وادي ميزاب يمتاز بالاستقلال السياسي منذ القرن الرابع الهجري، وحتى خلال فترة الحكم العثماني لم يكن إلا تابعاً بالإسم فقط ، مقابل خراج يدفعه لهذه الحكومة، وهذا أيضاً ماجعلهم يسلكون نفس المسلك مع الاستعمار الفرنسي.

213- يوسف بن بكير: المرجع السابق، ص64, 68.

إن مسالك الدين هي ميزة تميّز بها الفكر السياسي الإباضي، وهي اجتهاد مرتكز على الفكر العقدي لدى هذه الفرقة، وقد مارست الإباضية هذا الفكر واقعاً معيشاً لقرون عدة، ورفضت دول الإسلام انطلاقاً من ذلك الفكر، ولم تزل تقاوم أي نظام يمس بذاتيتها ونظامها الخاص[214] .

10- المؤسسة الربوية:

في عهد منعت فيه القروض البنكية على الأهالي, أصبح لزاما عليهم اللجوء إلى التجار الصيارفة اليهود والميزابيين والقبائل.

و يؤكد د. أمات على ظاهرة سداد دين المقترض للمرابي ببيع أملاكه أو بالدفع عنه بقوله: «. . . إن المجتمع الميزابي يتميز بشعور أفراده بالمسؤولية اتجاه بعضهم البعض وتحملها، من أجل ذلك أنشأوا خزينة، تتكفل بمساعدة الفقراء والمحتاجين، وكذا بسداد الدين عن المغتربين في بلاد التل الجزائري، الذين لم يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم، ويشرف على هذه الخزينة، لجنة منتخبة، ولا تزال هذه المؤسسات موجودة في اعتقادنا، في كل من تونس وطرابلس والإسكندرية، وتحرص مختلف الحكومات على أن تظل هذه المؤسسة قائمة، والسبب في ذلك هي الصعوبة والمعاناة التي يتحملها الدائن أيا كانت صفته، حتى لو كان من الأهالي، في متابعة المدين الذي يلجأ إلى بلده وادي ميزاب، واليوم صارت المتابعة أسهل، إذ أنه تم رفع شكاوي ومطالب للقائد الأعلى نفسه. . .»[215] .

214- بحاز إبراهيم: مشوهات الإباضية, نشر مجلة الحياة, ع5/2001م, ص47, 48.

- محمد عمر بن عيسى: المرجع السابق, ص62

215- Ageron Charles : opcit, p :487.

Claude Martin : Les israélites Algériens de 1830 a 1902, Paris 8e ,edt Herakles 1936, , p :9

Charles Amat: le mzab et les m'zabites,paris,challamel et cie editeurs librairie algerienne et coloniale,18- M. Harnier:L AFRique, Librairie classique, ued, 1887, p :203

والأصل في القانون الفرنسي كما يقول Claude Martin في شأن ذلك: «. . . إن المهارة الفائقة عند المرابي، تتمثل في جعل دين المقترض يرتفع بواسطة الفائدة من تجديد لتجديد في الأجل، إلى أن يصير بالإمكان السيطرة أو الإستيلاء على أملاكه مقابل قرض ضئيل... عندما يكون المدين مالكا لثروة معينة، فإن المفاوض على الصفقة المالية لا يعطيه تبعا للطريقة التقليدية، كيسا من البذر ليطالبه بكيسين عند جني الغلة, لكن يجعله يوقع على سند يسمى Emprunt Marda وكانت القروض على الأملاك تجر إلى معادلات دقيقة، فالمرابي يقرض بدئ على الرهن العقاري بنسبة 20% مع رفع المبلغ المسلم حقيقة للمقترض, إذا لم يستطع هذا الأخير التحرر فإنه يفرض عليه الاكتتاب، ويصرح عند الموثق بأنه تم التعاقد على قرض جديد وعندما لا يسدد القرض على الأملاك، ويصدر قرار المحكمة، فإنه يلجأ إلى بيع الشرط، والذي من أجل عدم المصادرة، من خلاله يحتفظ المدين بحق معاودة شراء المبيع بعد أجل محدد من سداد المبلغ الأساسي للدائن ونفقاته من أجل تملك المبيع, وذلك اعتقادا منه أنه سيسدد أقل بعد أجل مدته 5 سنوات، وهي المدة المحددة بالقانون الفرنسي، والأصل في بيع الشرط هو أن يبيع المدين أملاكه بقرض ضئيل للدائن، فإن لم يستطع عند هذا الأجل الوفاء بتعهداته، فإن المرابي يمنحه مقابل مبلغ معين تأجيلا آخر, وتسير الأمور على هذا النحو إلى حد إرهاق الضحية... وقد أعطيت فرص أخرى للمضاربة في هذا المجال بفضل قانون 1873، الذي أسس للملكية الفردية للأهالي، ومثلما كان الشأن بالنسبة لعدة مشاريع إنسانية لحكومة باريس، فإن هذا الإجراء الموجه لاستيعاب الأهالي، أسهم في إفلاس الجزائريين وذلك بمنح حق البيع بالمزاد العلني للمالك المشترك للذي

يطلبه، ففتح الباب للتعسفات، فكان يكفي للمرابي أن يصبح سيدا بواسطة أحد المالكين كي يضع حدا للملكية المشتركة. . . فالمرابي يمنح من أجل مئات من الفرنكات عقارا يبيعه فيما بعد بغلاء فاحش, فالمقتضي للعقار عن طريق الشراء، المتحمس لكل امتياز، يتوجه إلى المرابين الذين يقرضون الأهالي والذين أرغموهم على البيع بالمزاد العلني. . . وهذه المهمة كان يقوم بها المالطيون والميزابيون واليهود، وشيئا فشيئا كونوا ملكيات ممتدة عن طريق أجزاء صغيرة أو الملكيات المباعة في المزاد العلني وكان اليهود يعملون دور المخفضين حينما لا يعمل لحسابهم الخاص، فرجال الأعمال واليهود خاصة هم الذين استفادوا من هذا القانون. . . في الحقيقة إن تجريد العربي من ملكه من طرف المرابي اليهودي, كان يتم و شائع قبل الغزو الفرنسي، لكن من حين لآخر، لكن الاحتلال الفرنسي وفر الحماية لليهود، وكان يسمح لهم بالارتزاق والاغتناء بشكل شرعي أو غير شرعي من تجارتهم مع المسلمين وكأنه من أجل اليهود، باشرت فرنسا احتلال الجزائر»[216]

مشروع تعديل قانون الملكية العقارية بالجزائر

تقدمت به لجنة الجزائر التي كلفت بدراسة الملكية العقارية بها، وخصصت له لجنة أخرى كلّفت بفحص ودراسة التعديلات المقترحة من طرف لجنة الجزائر، رفع باسمها فرانك شوڤو تقريرًا حول هذه المقترحات والتعديلات، وتقدم من خلالها النائب جاك بيو بمشروعه القاضي بتعديل المواد 457 – 458 – 459 – 466 من القانون المدني، الخاصة بميراث وبيع أملاك القاصر.

216- Claude Martin : opcit, p :198, 199, 200, 201.

تمت مناقشة هذا المشروع أمام مجلس الأمة يومي 15 ، 16 فبراير 1894. لقد تعرض مناقشوا هذا المشروع إلى أهم المراحل التي مرت بها الملكية العقارية بالجزائر، وانطلقت اللجنة من التشريع الإسلامي نفسه، وهو أن إحياء الأرض الميتة أساس من أسس انتقال الملكية العقارية لمن يحييها ، وأن حق الشفعة[217] والرهن[218] لتحريم القروض الربوية خلق نوعا من الغموض والفوضى في بلد لا يملك سجلات، أرشيف ومؤسسات الحالة المدنية.

والمشروع يسعى في مواده لإيجاد حلول لكل نقائص قانون 1873.

والهدف منه إجمالا هو إحداث الملكية الفردية في الجزائر، وتمكين الأهالي من الحصول على عقود ملكية فرنسية مع الإحتفاظ بملكيتهم وبذلك يصبح بإمكانهم الحصول على قروض كالأوروبيين تماما.

إن التشريع في البلدان الإسلامية كما يرى مقرر اللجنة، له مصادره من القرآن والسنة، لكن هذه المصادر في نظره غير قطعية ومبهمة، وبالتالي أعطت مجالا لشروح غير محصورة والتي لا يمكن ترجمتها إلى قوانين أو تشريعات، فهي مرتبطة بالعادات.

وفي الجزائر جنسين مختلفين، وهما البربر والعرب. فالعرب أكثر تدينا وأقل قلقا بشأن التطور أو تحسين حالتهم المادية، متعودون على الحياة العائلية والقبلية، وبالتالي فإن الملكية الفردية غير شائعة عندهم،

217- الشفعة في القانون الإسلامي تماثل حق الأخذ بالتتابع في القانون الفرنسي

218- يماثل التسنية. أو بيع الشرط. وهو يقابل البيع في القانون الفرنسي. البيع بالإحتفاظ بحق إعادة شراء المبيع في أجل محدد. وذلك بإعادة دفع المبلغ الأصلي ومصاريف الحائزة على العقار.

-Emilien Chaterieux :etudes algeriennes contribution al'enquete senatoriale de 1892, paris:augustin challamel, edt lib:algerienne et coloniale 1893, p :57, 58, 59, 60, 61.

وليس لهم إهتمام كبير بالأرض ولا يطلبون سوى ما يكفيهم ويبقيهم من عوائد ملكياتهم، وإذا سدت حاجاتهم، فإنهم لايسعون لتملك الأرض ولا إلى تحصيل عائدها.

عكس البربر فإنهم إيجابيون، أقل تدينا، متحمسين للأرض والزراعة، فإذا حصل وورث عدد من البربر شجرة فإنهم في كثير من الأحيان ما يقتسمونها لينفرد كل واحد بعرف.

وهذا استثناء، لذلك فإنه حينما تناقش الملكية العقارية في الجزائر فإن الأمر متعلق بالملكية العربية.

إن أكبر مشكلة تواجه فرنسا والتي يجب حلها هي مسألة ملكية الأعراش.

مايميز أرض الملك هو أنه حين يموت صاحبها ،فإنها تنتقل مباشرة إلى أيدي الوارثين كالملكية الفرنسية. وما يميز أرض العرش فإنه حين يموت صاحبها تصبح من جديد ملكا للقبيلة، والجماعة هي التي تمنحها لمالك جديد، وغالبا ما يكون إبنا للمالك السابق، وهي تحتاج للعناية بالزراعة لكي يحافظ عليها، وحينما لا تزرع فإنها تعود إلى القبيلة، لكن في غياب الوارث فإن الأرض المتروكة من طرف الفقيد تكون لصالح من يليه، بتمليك جديد من طرف الجماعة، إذا هدف فرنسا هو تحقيق وحدة الملكية.

إذا أردنا رؤية المبادرات الشخصية لاستيطان الجزائر، فإنه يجب علينا تسهيل المعاملات على الأراضي بين الأوروبيين والأهالي، وتكوين مؤسسات على الملكية المشتراة من طرفهم، وهكذا فقط بجانب الاستيطان الرسمي والعسكري نشجع المبادرة الشخصية التي ربما لم تشجع بشكل كبير إلى حد الآن.

القانون الفرنسي كان مطبقا على كل المعاملات العقارية في الجزائر، ماعدا التداول على الملكية التي تعتبر جزءا من القانون الشخصي الإسلامي، والذي لم نقدر على إلغاءه من غير عواقب وخيمة .

يجب علينا إحداث الملكية الفردية في أراضي العرش، والاعتراف بها في أراضي الملك، لمعرفة الحصول على الأراضي الموجهة لمركز الاستيطان الذي يتوجب خلقه، وعلى الأخص لضبط حدود الغابات.

هناك إجراء آخر اقترحته اللجنة ويتمثل في تعويض البيع بالمزاد الإجباري بتحكيم المحكمة التي تقرر إذا كان يجب إعطاء طالب الملكية جزءًا من العقار أو مبلغا من المال تعويضا عنه، وفي حالة إذا لم يتفق المالكون وحيث يجب أن يدفع المبلغ عن طريق بيع العقار إجباريا، فإنه لا يطبق الإجراء على كل المشتركين في الملكية بحيث لا يتم تقسيم العقار بين الأفراد ولكن يتم تقسيمه بين الأسر أو بين فروع الأسر كما ينص عليه القانون الفرنسي في المادة 831 ، وبالتالي يصبح المالكون من نفس الفرع هم المعنيين بالبيع وليس الشركاء عامة، وبالتالي يكون العدد المعني بالبيع أقل.

قيمة المخطوط العلمية

يعد مصدرا من مصادر تاريخ الجزائر الحديث الذي تعز مصادره باللغة العربية إذ يؤرخ لمرحلة من تاريخ الجزائر تمتد من قبل سنة 1853، تاريخ المعاهدة بين وادي ميزاب وفرنسا، إلى سنة 1894، أي ما يزيد عن نصف قرن من تاريخ الجزائر.

تناول مجموعة من القضايا يمكن حصرها في طبيعة العلاقة بين فرنسا ووادي ميزاب خاصة، وسياستها اتجاه الصحراء عامة، والأهداف

التي كانت تسعى لتحقيقها من وراء السياسة التي انتهجتها في هذه المرحلة، ومدى تأثير الأحداث العالمية، وعلاقة فرنسا بالقوى العظمى في توجيه هذه السياسة، من ذلك التنافس الاستعماري خاصة بين فرنسا وبريطانيا، الشيء الذي أبرز للوجود خطي سكة الحديد الجزائري والإفريقي. كذلك احتياجات الثورة الصناعية وتسارع خطاها.

بالإضافة إلى وضع فرنسا المالي والتحولات الكبرى في مجال النقد، ثم هزيمتها أمام ألمانيا، وانعكاس هذه الهزيمة على نظام الضرائب المفروض على المواطنين الجزائريين بحيث ضوعفت بشكل خيالي من أجل دفع ضريبة التعويض لألمانيا إثر هزيمتها أمامها سنة 1870، الشيء الذي أرهق كاهل السكان وأفقرهم.

كما يبدو جليا من خلال هذا المخطوط الموقف الرسمي للإباضيين من معاهدة 1853 مع فرنسا والتي كانت بالنسبة لهاوسيلة من وسائل الغزو،الهدف منها ضرب معقل من معاقل الثوار، وعزل الإباضيين عن المجتمع الجزائري.

وهي بالنسبة لها معاهدة استسلام واعتراف بها، وليست معاهدة حماية. ومن هذا المنطلق طبقت الإلحاق على هذه المنطقة فيما بعد. تضارب الكتاب من الإباضيين في مواقفهم منها، وفي تحديد أسبابها، وكذلك في مواقفهم من بعض قادة الثورات الشعبية كالأمير عبد القادر والشريف محمد بن عبد الله والناصر بن شهرة، وهذا التضارب إنما يعكس اختلاف الأمة الميزابية فيما بينها في نظرتها للإتفاقية وموقفها منها، كما هو الشأن بالنسبة للثورات وقادتها,ومع أن هيئة العزابة عارضت بشدة إمضاء المعاهدة ولم تحضر التوقيع عليها، وإن كانوا

رضخوا فيما بعد، فقد اعتبروا المسألة ضربا من الاجتهاد . ثم بعد ذلك من الإلحاق المطبق سنة 1882والذي اعتبرته فرنسا شرعيا من الناحية القانونية، إذ ان المعاهدة أصلا في نظر البعض من ساستها لم تكن إلا إلحاق مع ترك التسيير الذاتي الداخلي لسكان المنطقة، وجاء الإلحاق لمصادرة هذه الحرية، كون الإباضيين قد أخلّوا ببنود المعاهدة. في حين اعتبر الإباضيون الإلحاق غير شرعي، كونه صدر من الوالي العام الذي لم يكن له الحق في اتخاذ قرار مماثل، إذ النظام الجديد لا يخول له ذلك، كون الجزائر ألحقت بالنظام المدني الفرنسي، كما أن قرار الإلحاق يجب أن يصادق عليه مجلس الأمة وفقا للقانون الفرنسي.

وقد فشل بشهادة مؤرخين فرنسيين من بينهم أجرون شارل ، والذي جاء ليتماشى مع وضع الجمهورية الثالثة آنذاك،.وكما ذكر القطب، لم يكن في الإلحاق مصلحة للإباضيين، ولم تكن الأسباب التي تذرعت بها فرنسا مقنعة,و تطرق القطب للأحداث التي توالت بين هذين التاريخين، من ذلك الثورات الشعبية وتعامل الإباضيين معها ومع قادتها وخاصة الشعانبة، ونظرتهم إلى جيرانهم والقوانين التي كانت تحدد هذه العلاقات،التي سنها بنو امزاب لأنفسهم منذ تواجدهم كي يحفظ لهم استمرارهم وبقاءهم,كذلك الذي أصدرته جماعة غرداية عام 1073هـ الموافق لعام 1662م الذي يمنع إحداث واحة أو بناء مسكن أو حفر بئر في الشمال الغربي لواحة غرداية, قصد وقايتها من البوار فنجم عن ذلك أن سكان غرداية أرغموا المذابيح في الضاية على تنقيص مساحة الري من أجل الاقتصاد في ماء السيل.

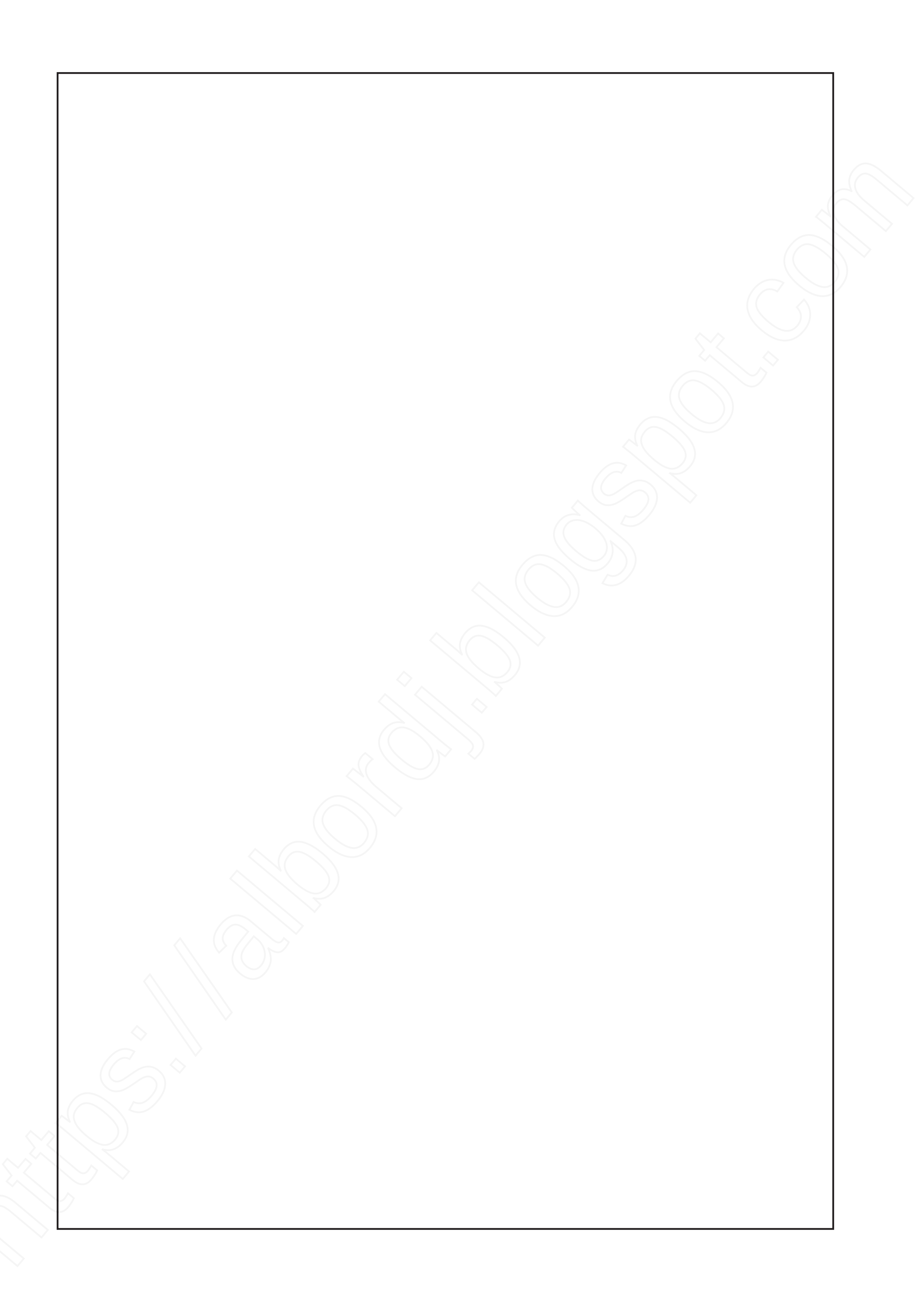
ولا تقل أهمية الجزئيات التي تخللت كل هذا، من ذلك قضية تجنيس يهود المنطقة، الفتن الداخلية، ومؤسسة الربا وتأثيرها في الوضع

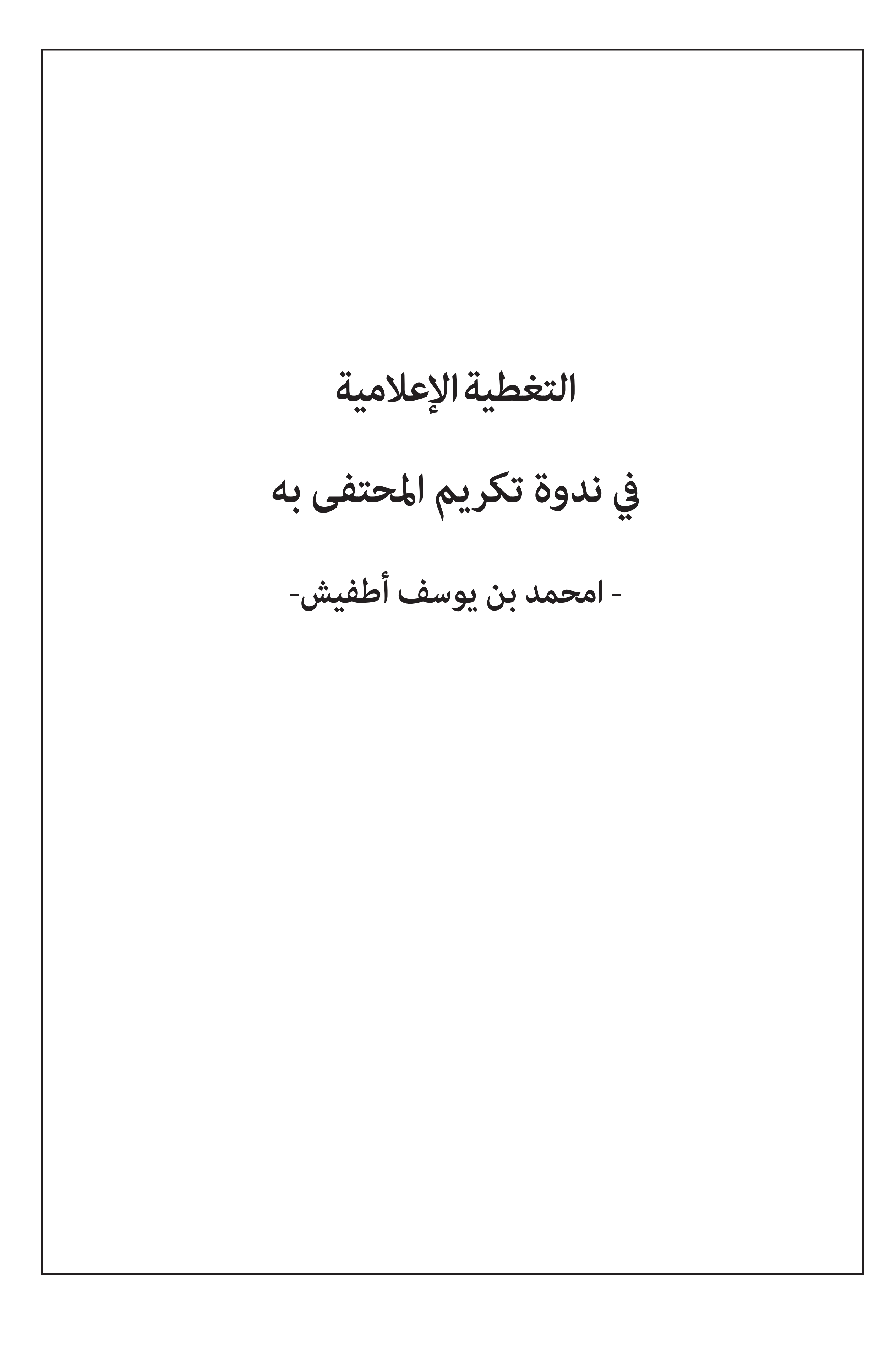
الاقتصادي للجزائريين، جملة الهدايا الممنوحة من قرى ميزاب لفرنسا قهرا أو بإرادة أهالي هذه القرى منها دقلة نورووريش النعام، أما عن سياسة فرنسا الخاصة بالملكية العقارية في الجزائر فقد لخصها مشروع القرار الذي تقدمت به لجنة الجزائر والنائب Jaques Piou، لمناقشته أمام مجلس الأمة، والذي حمل في طياته التعديلات المقترحة التي تسمح لفرنسا بالاستمرار في تطبيق وتوسيع دائرة البيع بالمزاد عن طريق تغيير أحكام الشريعة الإسلامية في ميراث ذوي الأرحام، وإدخال طرف أجنبي وسط العائلة، لتطبيق هذه السياسة الرامية إلى مصادرة أراضي المسلمين وتوسيع دائرة الاستيطان.

إنه مما يرفع من المستوى العلمي للمخطوط الذي بين أيدينا هو أنه رغم صغر حجمه إلا أنه من خلال القضايا التي تناولها، استطاع أن يكون شاملا في طرح السياسة الاستعمارية اتجاه كل القضايا التي تمس الشعب الجزائري، وأن يجلي أهدافها بدقة في هذه المرحلة خاصة فيما يتعلق بسياسة الإلحاق، وفي المقابل استطاع أن يعكس موقف الجزائريين اتجاه هذا الاستعمار بصفة عامة، ويقظته ووعيه الكامل بكل ما يمكن أن يحاك ضده تحت أي غطاء كان، ثم تبنيه لقضيته وجهاده في سبيلها.

هذا بصفة عامة أما بالنسبة للإباضيين، فيعد المخطوط مصدرا لتاريخهم في هذه المرحلة، بيّن من خلاله القطب مذهبهم، نظامهم الاجتماعي والاقتصادي ووضعهم تحت الغزو الفرنسي، وجهادهم في الحفاظ على استقلالهم واستعدادهم للدفاع عن بقائهم وردّ كل ما يمكن أن يهدد هذا البقاء حتى لو كان مجرد قرار، إدراكا منهم لما قد ينجرّ عن هذه القرارات التي لا تخدم سوى الغزو.

وإن جاز لنا القول، بأن هذا المخطوط قد أضاف شيئا من الحقائق إلى تاريخ الجزائر، فإنه قد أرّخ للحوار الذي دار بين هيئة العزابة وعلى رأسهم القطب والجنرال دولاتور الذي حمل قرار الإلحاق الصادر من الوالي العام ترمان، ثم حدد المكان الذي دارت فيه المفاوضات بين بني ميزاب ومحمد بن عبد الله حينما طالبهم بالخضوع له وهو واد تغير.

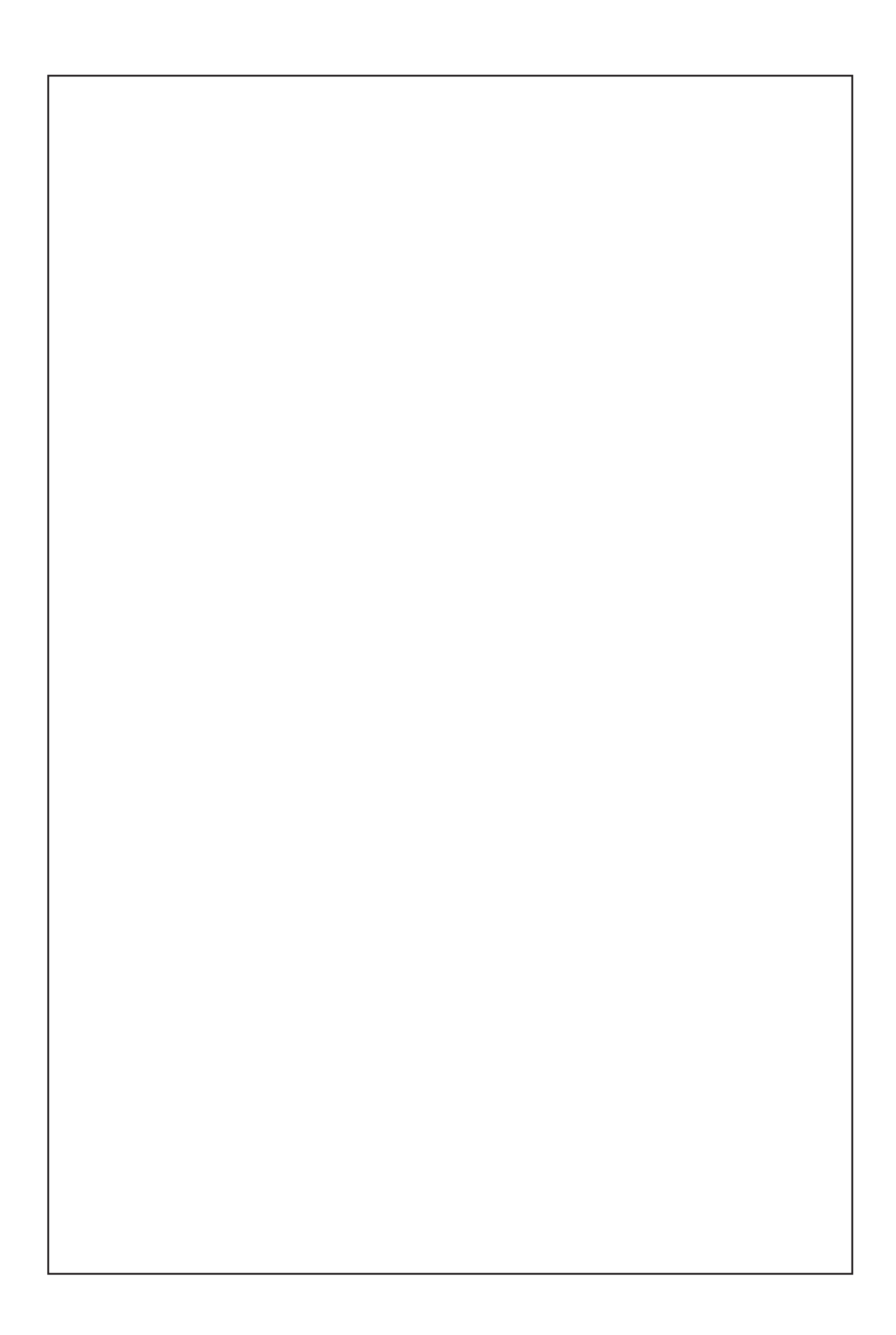




التغطية الإعلامية

في ندوة تكريم المحتفى به

- امحمد بن يوسف أطفيش-



الشعب | الأربعاء 23 فيفري 2011 م
الموافق لـ: 20 ربيع الأول 1432 هـ | ثقافة

يوم دراسي حول مآثر العلامة محمد أطفيش بفندق الأروية الذهبية

رجل موسوعي وهب حياته للعلم والتعليم والدعوة لإصلاح حال المسلمين

نظم أمس المجلس الأعلى للغة العربية بفندق الأروية الذهبية، ضمن منبره "شخصية ومسار"، يوما دراسيا حول "مآثر القطب الموسوعي محمد بن يوسف أطفيش"، حيث قام نخبة من الأساتذة والباحثين الذين تناولوا أعمال الفقيد أطفيش بالدراسة والتحليل، بتقديم والوقوف على أهم المراحل، الأعمال، والمؤلفات التي تزخر بها مكتبة القطب.

أكد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية محمد العربي ولد خليفة أنه تم تخصيص هذا اللقاء، الذي يندرج ضمن برنامج المجلس الرامي إلى تثمين جهود أولئك الذين ساهموا في الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري، والتنويه بنضالاتهم ومحافظتهم على تجانس المجتمع والوحدة الوطنية، والتعريف بالتراث الوطني المشترك، حيث تم تخصيص هذا اللقاء لأحد أعلام الجزائر "قطب الأئمة" امحمد بن يوسف أطفيش "تقديرا وعرفانا لرجل موسوعي وهب حياته كاملة للعلم والتعليم والتقرب من الله سبحانه وتعالى بالتقوى والاستقامة وخدمة الجماعة، والعمل دون كلل ولا ملل على احياء علوم الدين والدعوة المبكرة في الجزائر لاصلاح حال المسلمين ودعوتهم بعد قرون من الجمود، الغفلة والفتن"، كما ذكر ذات المتحدث بالحب الكبير الذي كان يكنه القطب للغة العربية، حيث أقبل عليها منذ صباه وأتقنها نظما، نثرا، ونبغ في فنونها وعلومها، مقدم ولد خليفة الدلائل التي تشير إلى موهبة الرجل وهو في ريعان شبابه، حيث نظم وهو في السادسة عشرة من عمره قصيدة من خمسة آلاف بيت لازالت مخطوطة، مضيفا أن للقطب أطفيش مؤلفات أخرى كثيرة، "يقول البعض إنها تجاوزت المائة، ويصل تعدادها عند البعض الأخر إلى 300 في علوم العربية، وفي الفقه وأصوله، التفسير، التجويد، الحديث والسيرة النبوية الشريفة، الفلسفة، الفلك والحساب، فضلا عن رسائله إلى العلماء من معاصريه، للإجابة على بعض المسائل الفقهية في المذهب الإباضي وقضايا الساعة."

كما تطرق ذات المتحدث إلى المكانة التي كان العلامة يتمتع بها في الجزائر وخارجها، حيث حظي القطب الموسوعي باحترام كبير في واحة ميزاب، باعتبارها المنطقة التي نشأ بها ونشط بها كثيرا، وفي الجزائر، العالم العربي والإسلامي ما بين شرق إفريقيا وشواطئ بحر العرب في عمان، كما ألقى، كما جاء على لسان ولد خليفة، دروسا في المدينة المنورة أثناء رحلته الحجازية الأولى، وفي خلاصة قوله قال العربي ولد خليفة أن ما تم تقديمه "ليست إلا قطرات من فيض العلامة امحمد بن يوسف أطفيش، الذي تعتز لغتنا العربية الجامعة وثقافتنا الوطنية بمآثره وتراثه."

أما الحاج محمد أطفيش، حفيد العلامة، فقد تحدث عن المؤلفات، المخطوطات، التي تزخر بها مكتبة قطب الأئمة، حيث ألف أكثر من 135 عمل من مختلف الأحجام، منها 70 في العلوم الإسلامية، و10 في العلوم الأدبية، إضافة إلى مؤلفات أخرى في ميادين عدة، ومخطوطات كثيرة تشهد على الغنى الذي يعرفه المسار العلمي والأدبي لجده، كما كانت ولا تزال المكتبة مقصد الكثير من الباحثين وأهل العلم.

وتطرق من جهته الأستاذ الجامعي محمد عيسى موسى إلى المعنى اللغوي لاسم العلامة، مبينا أن كلمة أطفيش أمازيغية مركبة من ثلاث كلمات، أطف بمعنى خذ، إي بمعنى أقبل ولاتخف، أش بنعنى كل من الطيبات وبالتالي حتى اسم قطب الأئمة يحمل دلالة لغوية تليق بالشيء الذي قدمه العلامة لمجتمعه، الجزائر، والعالم العربي والإسلامي.

وتم تقديم عدة محاضرات في هذا اليوم الدراسي، منها "منهج التفسير عند القطب اطفيش"، "محمد أطفيش وكتابة الكافي في التصريف"، و"من مواقف أطفيش ضد الإستعمار الفرنسي، اعتراض على قانون الملكية الجزائرية."

سميرة لخذاري

الجزائر نيوز • الأربعاء 23 فيفري 2011

أخبار الجزائر

ثقافي نيوز

المجلس الأعلى للغة العربية يحيي ذكرى قطب الأئمة امحمد بن يوسف أطفيش

حفيظة عياشي

تحدث محمد ولد العربي خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربية عن السيرة الذاتية للشيخ العلامة أمحمد بن يوسف أطفيش، معتبرا إياه أحد أعلام الجزائر وقطب الأئمة، مشيرا إلى أنه وهب حياته كاملة للعلم والتعليم من أجل التقرب من الله تعالى بالتقوى والاستقامة وخدمة الجماعة وعمله بلا كلل على إحياء علوم الدين ودعوته المبكرة في الجزائر لإصلاح حال المسلمين.

كما كشف ولد خليفة، أمس، خلال تنشيطه برنامج يوم دراسي حول القطب الموسوعي أمحمد بن يوسف أطفيش بفندق الأروقة الذهبية بين عكنون عن الخصال الطيبة التي اتصف بها قطب الأئمة أمحمد بن يوسف، حيث أحب العلامة اللغة العربية وأقبل عليها في صباه وأتقنها نظما ونثرا ونبغ في فنونها وعلومها، وأضاف المتحدث في السياق ذاته أن العلامة أتمّ حفظ القرآن في الثامنة من عمره وتطوع للتعليم في منزله الشخصي وهو في سن الخامسة عشرة بعد أن حوّله إلى مدرسة.

من جهة أخرى، كشف رئيس مجلس اللغة العربية عن بعض الدلائل التي تشير إلى موهبة الرجل وهو في ريعان شبابه، فقد نظم قصيدة متكونة من خمسة آلاف بيت لا تزال إلى يومنا مخطوطا وعمره لم يتعد الخامسة عشر، وهذا الأخير يساوي



عشرات الدواوين التي نشرت في السنوات الأخيرة مما يسمى الشعر الحرّ أو المنثور، حسب ما أكد ذات المتحدث.

في السياق ذاته، قال ولد خليفة إن للعلامة مؤلفات كثيرة وأنها تجاوزت المائة ويصل تعدادها عند البعض الآخر إلى ثلاثمائة في كل من العلوم الطبيعية والفقه وأصول التفسير والتجويد والحديث والسيرة النبوية والفلسفة والفلك والحساب، فضلا عن رسائله إلى العلماء من معاصريه للإجابة عن بعض المسائل.

وحسب ما أكده العربي ولد خليفة، فإن الشيخ تحصل على هذه المعرفة الموسوعية من بيئته المحلية في واحة بميزاب، كما أنه نهل من مكتباتها الزاخرة بعلوم عصره إلى جانب ذلك كان له تفتح على البلدان في العالم الإسلامي، وقد استحضرت فتيحة يطو، أستاذة تاريخ من جامعة سيدي بلعباس في مداخلتها المعنونة رسالة الرد على إلحاق وادي ميزاب والاعتراض على مشروع قانون النائب جاك بيو الخاص بتعديل الملكية العقارية بالجزائر1894 م للشيخ أمحمد بن سويف أطفيش عن منطقة وادي ميزاب وأحكام الشريعة الإسلامية والتصدي للسياسة الفرنسية، وتعد هذه المداخلة جزءا من رسالة مشاركة في تدوين جانب من تاريخ الجزائر في القرن 19. في حين أكد صالح بلعيد، دكتور من جامعة تيزي وزو في مداخلته بخصوص لقب "القطب" وعن سبب تسمية العلامة به، أن العلامة يحمل صفات القطب التي تعني علو الإمامة والآيات المرجعية والطريقة المتجلية في الصوفية التي تجيز للمريد نقل خبرات الإمام والقول بها أو فعلها وتبرير أفعاله بما هو جائز له دون غيره، كما عنون أستاذ تواتي بن تواتي القادم من جامعة الأغواط مداخلته منهج التفسير عند القطب أطفيش.

الحوار
الأربعاء 23 فيفري 2011م
الموافق 20 ربيع الأول 1432 هـ

المجلس الأعلى للغة العربية يتناول شخصية "أطفيش" بالنقاش

نظم المجلس الأعلى للغة العربية، امس، يوما دراسيا حول "مآثر القطب الموسوعي محمد بن يوسف أطفيش: العلم والتقوى وخدمة الجماعة". وذلك ضمن برنامج "منبر شخصية ومسار" الذي يعكف المجلس على تنظيمه دوريا في إطار رزنامته الثقافية على مستوى فندق الأروقة الذهبية بتقصرين. شارك في تنشيط اليوم الدراسي عددا من الباحثين الذين يعرضون المسار النضالي للرجل ويناقشون أعماله وفلسفته وفكره على غرار الدكتور عمار طالبي والدكتور يحيى بوتردين والاستاذ محمد أطفيش ومصطفى ونتن وعائشة يطو وعمر دوادي أحمد جلايلي محمد عيسى موسى... وللاشارة يندرج الملتقى ضمن برنامج المجلس الرامي إلى تثمين جهود أولئك الذين ساهموا في الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري والتنويه بنضالاتهم ومحافظتهم على تجانس المجتمع والوحدة الوطنية والتعريف بالتراث الوطني المشترك والتعريف بقيمهم لدى الجيل الجديد.

ويعتبر الفقيد الشيخ محمد بن يوسف أطفيش، من المنافحين عن الإصلاح الاجتماعي على المنهج الإسلامي الصحيح، رافضا مظاهر الجمود الفكري والتعصب.

■ خيرة بوعمرة

المساء
الأربعاء 20 ربيع الأول 1432 هـ الموافق 23 فيفري 2011 م - العدد : 4264

مجلس اللغة العربية يكرّم العلاّمة بن يوسف اطفيش

عـالم الإصلاح الاجتماعي والديني

نظم المجلس الأعلى للغة العربية أمس بفندق الأروية الذهبية وضمن منبره "شخصية ومسار" لقاء حول "مآثر القطب الموسوعي محمد بن يوسف أطفيش، العلم والتقوى وخدمة الجماعة"، هذا العلم المشهود له بالحكمة وخدمة الوطن والمعروف بتراثه الثقيل داخل الجزائر وعبر دول الوطن العربي والاسلامي.

■ مريم. ن

يندرج اللقاء ضمن برنامج المجلس الرامي إلى تثمين جهود أولئك الذين ساهموا في الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري والتنويه بنضالاتهم ومحافظتهم على تجانس المجتمع والوحدة الوطنية والتعريف بالتراث الوطني المشترك.

كان الشيخ أطفيش من أعلام الاصلاح الاجتماعي والديني المبني على المنهج الاسلامي الصحيح، الرافض لمظاهر الجمود الفكري والتعصب داعيا إلى العلم النافع ونبذ الصراع المذهبي الذي غذاه الاستعمار الفرنسي قصد القضاء على المقاومة. ظل الشيخ صامدا ونموذجا للوطنية ومرجعا دينيا وثقافيا شامخا.

للإشارة فقد ترأس جلسة اللقاء الدكتور عمار طالبي الذي ذكر بعلاقات الراحل مع أبرز رموز الاصلاح في وطننا العربي ابتداء من رشيد رضا إلى شكيب أرسلان، محمد عبده وغيرهم كثيرون إضافة إلى علاقاته بالاصلاحيين والأدباء في دولة باكستان.

ولا يزال اسم هذا الرجل منقوشا في ذاكرة المشرق خاصة بالقاهرة أين أسس مع المصلح الشهير الخطيب مجلة "الهداية الاسلامية" إضافة إلى نشاطه مع المقاومين في كل مكان مغربا ومشرقا، إلى درجة أن الزعيم الليبي الثائر سليمان الباروني الذي حارب الايطاليين كان من تلاميذه المقربين.

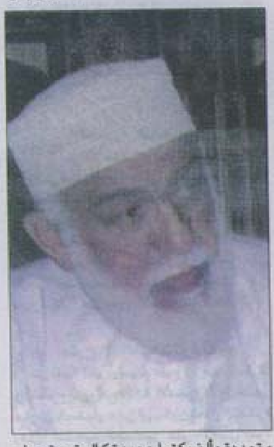
شارك في الندوة العديد من الباحثين والأساتذة وقد استهل المداخلات الدكتور العربي ولد خليفة الذي استحضر صفة "القطب الأعظم" التي وصف بها حياته وما كان منه من علم وأدب وشعر ونضال سياسي لذلك فإن حياته أصبحت مدرسة رائدة للجزائريين والعرب والمسلمين ولا تزال كتبه تدرس في شرق افريقيا وفي عمان إلى درجة أن هذه الأخيرة اختارت أحد أحفاده ليكون ممثلها في الأمم المتحدة.

توالت التدخلات، منها تدخل لحفيد الراحل وهو الأستاذ الحاج محمد اطفيش الذي توقف عند محطات مهمة من تراثه وحياته إضافة الى مواقفه السياسية الشجاعة.

الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش اشتهر بلقب "قطب الأمة" ولد سنة 1821 بغرداية، عاش يتيم الأب عانى قساوة العيش، اشتغل بالتدريس في سن الـ15 سنة وعمل على اصلاح مجتمعه ومحاربة الاستعمار، وفي فترة قصيرة تولى القضاء، خرج إلى الحجاز مرتين إضافة إلى بعض الرحلات داخل الوطن.

كان المفكر الأعزل الذي نشأ في وطن عظمت فيه المحن فزاده ذلك إصرارا على العطاء والتضحية.

كان الشيخ عالما موسوعيا في علوم



متعددة وألف كتبا عديدة كالعقيدة وعلم الكلام والمنطق والتفسير والفقه وأصوله واللغة والحديث وقد أحصي من تآليفه 135 أثرا بين كتاب ورسالة، بالإضافة إلى المراسلات والمنظومات الشعرية هذه خلاصة اجتهاد وجد.

أصبحت أعمال الشيخ في عصرنا محل دراسة من طرف باحثين ومختصين للتعريف بتراثه ونضاله وقد نوقشت حوله 12 أطروحة (4 دكتوراه دولة) حول منهجه في تفسير القرآن العظيم وأصول الدين واللغة.

لا يزال كتابه "الذهب الخالص" منارة خالدة حيث سبق مفكري عصرنا وجمع بين الفقه والأخلاق وعلم الاجتماع والسياسة.

للتذكير: فقد تم في هذا اللقاء تكريم حفيد الشيخ من طرف الأستاذ نويوات ممثل رئيس الجمهورية وكذا الدكتور ولد خليفة، كما تم اهداء عشرات الكتب لمكتبة الشيخ بغرداية كما نظم على هامش اللقاء معرض لكتب الشيخ ومراسلاته.



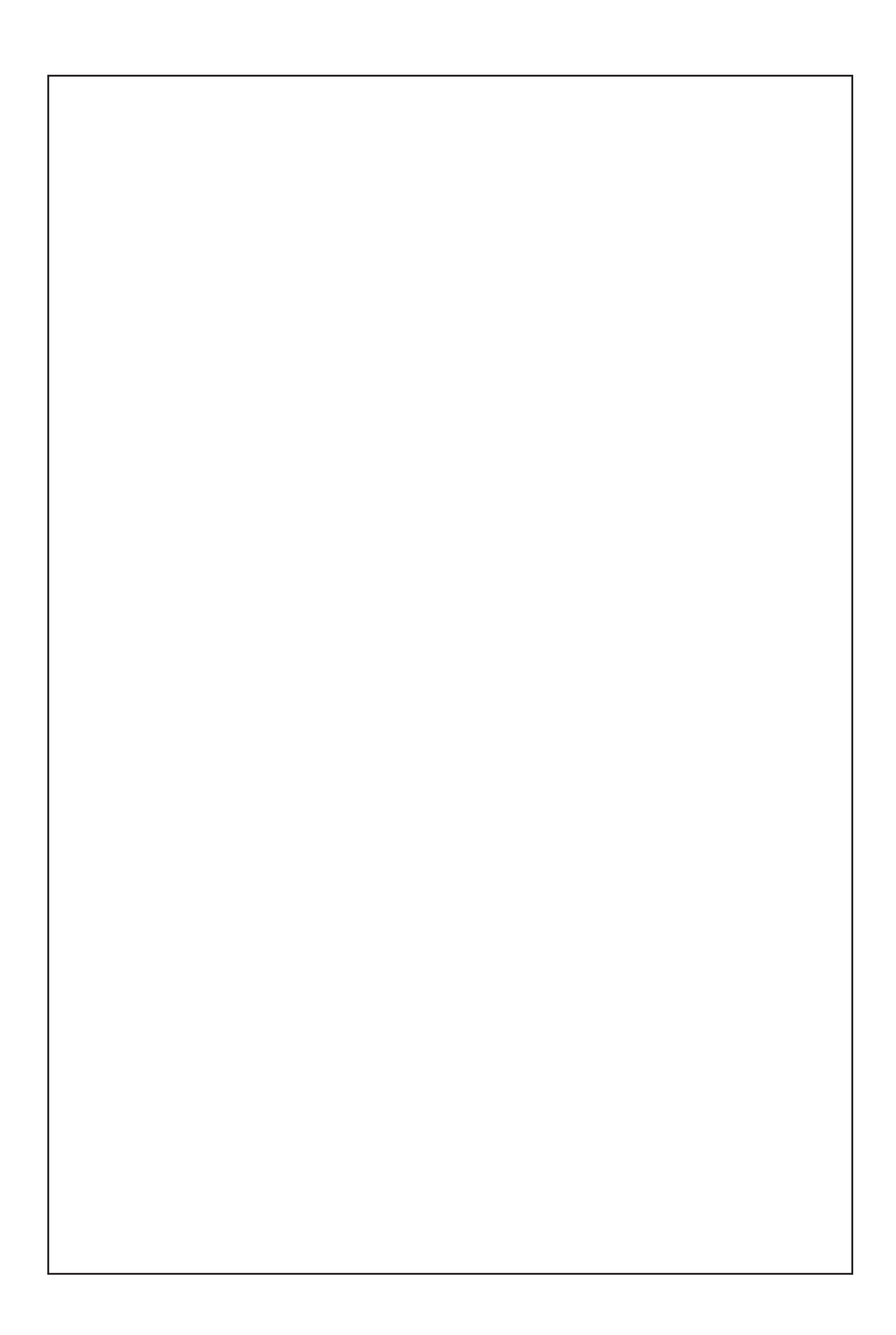
البلاد — الأربعاء 23 فيفري 2011
17 — ثقافة

المشاركون في ندوة "العلامة بن يوسف أطفيش" بالعاصمة يؤكدون:

فرنسا حاولت تفجير صراع مذهبي للقضاء على الثورة

اعتبر المشاركون في أشغال اليوم الدراسي "مآثر القطب الموسوعي محمد بن يوسف أطفيش" الذي نظمه المجلس الأعلى للغة العربية أمس بفندق "الأروقة الذهبية" في العاصمة في إطار منبره "شخصية ومسار"، أن العلامة الراحل كان أحد أعلام الجزائر الذين قدموا الكثير للوطن وخدموا المجتمع، مؤكدين على أنه ساهم بشكل كبير من خلال أعماله في الدفاع عن مقومات الشعب الجزائري والتنويه بنضالاته. كما كان من الداعين إلى الإصلاح الاجتماعي المبني على المنهج الإسلامي الصحيح، رافضا بذلك مظاهر الجمود الفكري والتعصب، حيث كان دائما يؤكد على ضرورة الأخذ بالعلم النافع، ونبذ الصراع المذهبي الذي ولدته "الكولونيالية الفرنسية" التي عملت على إضعاف المقاومة والقضاء عليها.
وأبرز المتدخلون بالدراسة والتحليل، الروح الوطنية التي كان يتمتع بها محمد بن يوسف أطفيش، كونه ظل صامدا رغم الظلم والمعاناة الذين كان يتعرض لها من طرف الاستعمار الفرنسي، واعتبروه نموذجا للوطنية الجزائرية، ومرجعا لا يستهان به في علوم الدين والدنيا.
من ناحية أخرى، شهد اللقاء الذي نشطه الدكتوران عمار طالبي ويحيى بوتردين ضمن منبر "شخصية ومسار" الذي ينظمه المجلس الأعلى للغة العربية، مشاركة العديد من الأساتذة والباحثين على غرار الأستاذ محمد أطفيش ومصطفى ونتن وعائشة يطو، إضافة إلى الأستاذ أحمد جلايلي ومحمد عيسى موسى وصالح بلعيد والحاج تواتي بن تواتي وآخرين.

أمينة. ص



إعلان عن جائزة اللغة العربية 2012

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم «جائزة اللغة العربية لسنة 2012 التي تهدف إلى تشجيع الباحثين والمبدعين وتثمين منجزاتهم العلمية والمعرفية، ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية، والإسهام في نشرها وترقيتها، سواء أكانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية، أم مترجمة إليها،

1 - شروط الترشح للجائزة:

- أن يقدم العمل باللغة العربية
- أن يتوفر العمل على قواعد المنهجية العلمية
- أن يكون البحث موثقا وأصيلا، ولم يسبق نشره، وفي مجال الترجمة ترفق نسخة للنص بلغته الأصلية
- أن لا يكون قد نال به صاحبه جائزة أو شهادة علمية
- أن يندرج البحث في أحد المجالات المذكورة أدناه.
- قرارات لجنة التحكيم غير قابلة للطعن
- لا ترد الأعمال إلى أصحابها سواء فازت أم لم تفز

2 - حدد مبلغ الجائزة بـ 1.000.000 دج، يوزع بمقدار250.000 دج لكل مجال من المجالات الأربعة التالية:

- جائزة المجلس في علوم اللغة العربية.
- جائزة المجلس في الترجمة إلى العربية في العلوم والآداب
- جائزة المجلس في العلوم الاقتصادية
- جائزة المجلس في التاريخ الوطني

حدد مبلغ الجائزة للفائز الأول بـ:160.000 دج، ومبلغ الفائز الثاني بـ 90.000 دج في كل مجال من المجالات الأربعة المذكورة أعلاه.

يمكن أن يتكفل المجلس بنشر الأعمال الفائزة، وتصبح ملكا له، إلا أنه يمكن للفائز بالجائزة استعادة حقوقه حسب دفتر الشروط، وبعد انقضاء مدة ثلاث سنوات - على الأقل- من نشر العمل.

تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم مكونة من ذوي الاختصاص، الذين لا يسمح لهم بالمشاركة في الجائزة،

3 - طلب الترشح:

يتكون طلب الترشح للجائزة من الوثائق الآتية :

- طلب خطي
- نسخة من وثيقة الهوية (بطاقة التعريف أو رخصة السياقة)
- السيرة العلمية للمشارك
- نسختين من البحث المقدم لنيل الجائزة :
- النسخة الأولى مسجلة على قرص والنسخة الثانية توجه عن طريق البريد المسجل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهدا على ذلك.

4 - يفتح باب الترشح للجائزة ابتداء من نشر هذا الإعلان في وسائل الإعلام إلى غاية 31 ديسمبر 2011

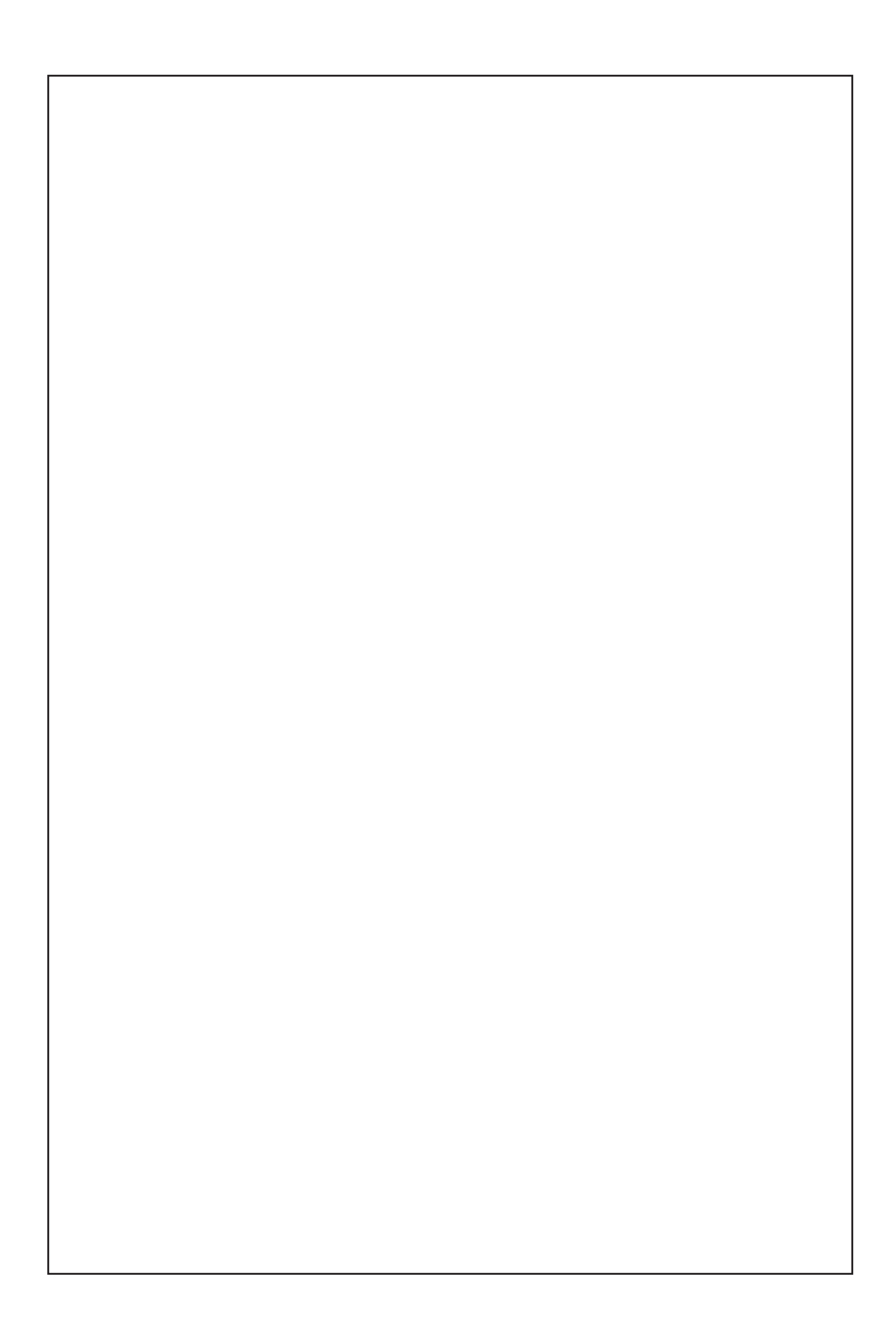
5 - يوجه ملف الترشح إلى العنوان الأتي :

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت ، الجزائر

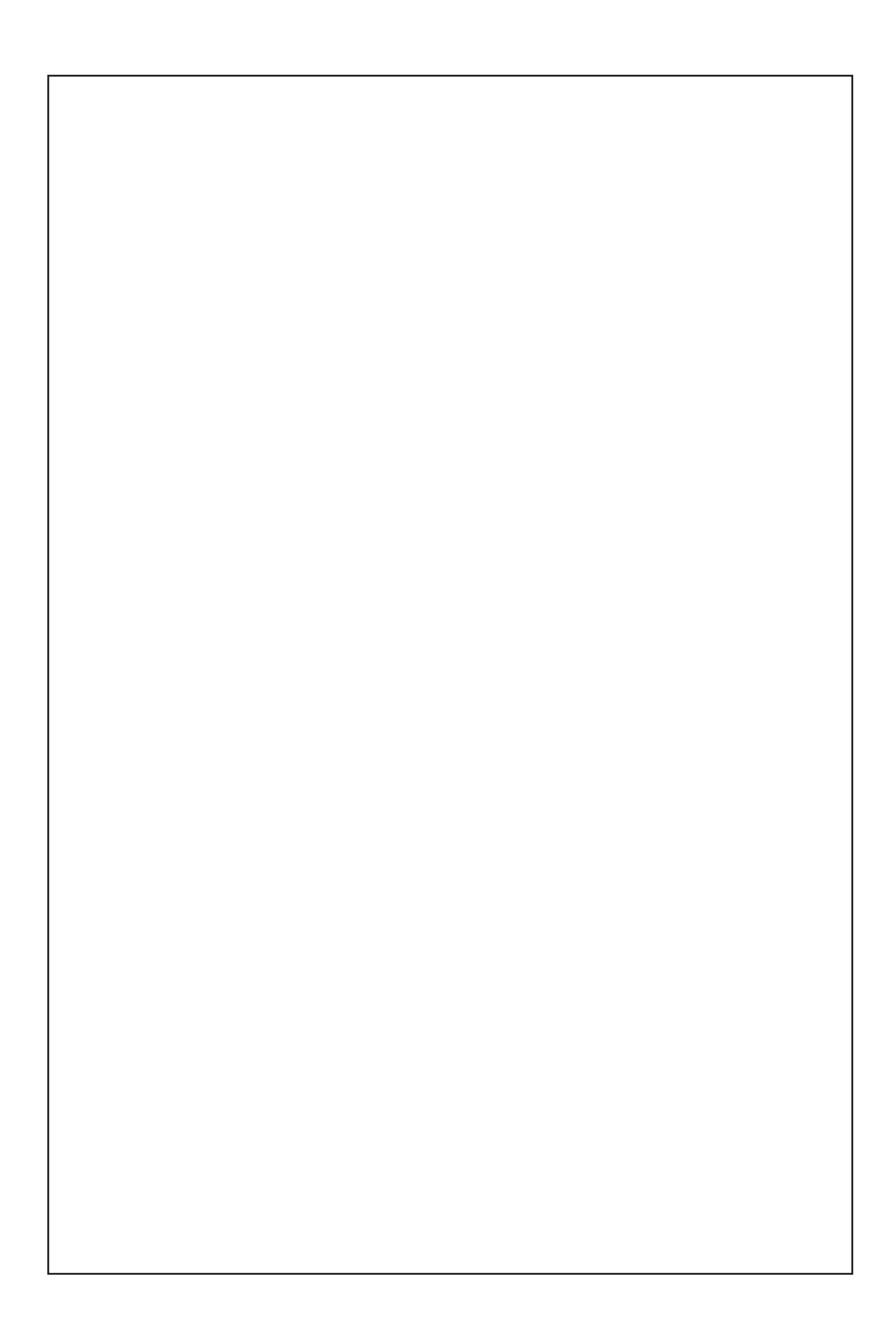
أو ص.ب : 575 شارع ديدوش مراد الجزائر العاصمة

«جائزة المجلس للغة العربية»



تصميم وإخراج وطبع:
زيتا قرافيك
الهاتف : 84 80 60 - 021

المجلس الأعلى للغة العربية



قطب الأئمة : امحمد بن يوسف أطفيش

هو الشيخ امحمد بن يوسف أطفيش المشهور بلقب: « قطب الأئمة»ولد سنة 1238هـ / 1821 م ببلدية غرداية أم القرى الولاية حاليا ثم عاد مع عائلته إلى بلدة بني يزقن وعمره أربع سنوات عاش يتيم الأب تحت كفالة أمه وإخوته وقد عانى شظف العيش وسوء الحال ولم يشتغل بغير التدريس كما كان قليل الأسفار بسبب انشغاله بإصلاح مجتمعه ومضايقة الاستعمار له، وفي فترة قصيرة تولى القضاء ثم رجع إلى التدريس، خرج إلى الحجاز مرتين بالإضافة إلى بعض الرحلات عبر قرى وادي مزاب وورجلان قضى عمره في سبيل الله على ثلاث وجهات هي:

إصلاح المجتمع - خدمة العلم - جهاد المستعمر.

أصبحت أعماله في عصرنا محل دراسة من طرف باحثين ومختصين للتعريف بجهوده ونضاله في سبيل إعلاء كلمة الدين والوطن، فقد نوقشت حوله 12 أطروحة منها أربع رسائل دكتوراه دولة حول منهجه في تفسير القرآن العظيم وأصول الدين وعلوم اللغة العربية وحول آرائه العقدية وغيرها.

وتعتبر هذه الوقفة التي ينظمها المجلس الأعلى للغة العربية للفقيد تكريما له وعرفانا لما بذله من جهود في سبيل علوم الدين والدنيا وتعريف الخلف باعمال السلف.

الإيداع القانوني: 2192-2011

ردمك: 978-9947-821-60-2





شارع فراكلين روزفيلت / ص.ب: 575 ديدوش مراد الجزائر
الهاتف: 25/ 24 07 23 021 - الفاكس: 07 07 23 021
w w w . c s l a . d z